يونس أحمد السامرائي

سامراء

في أدب القرن الثالث الهجري

ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

مطبعة الارشاد ـ بغداد

١٩٦٨

يونس أحمد السامرائي

سامراء
في أدب القرن الثالث الهجري

ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب

مطبعة الارشاد ــ بغداد

١٩٦٨

تقـــديم

كان من حسن الطالع أن توافق كلية الآداب في جامعة عين شمس على البحث الذي تقدمت به لنيل شهادة الماجستير ، والذي جعلت عنوانه « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري » •

والذي حدا بي الى اجتباء هذا الموضوع والكتابة فيه سببان :

أولهما : انني أحد أبناء هذه المدينة ، والانسان ميال بفطرته الى مهد صباه ، ومنبع احلامه وذكرياته •

وثانيهما : شعوري واحساسي بان هذه المدينة قد غمط حقها ، ولم يهيأ لها ما كان ينبغي من دراسة واستقصاء •

وكثيرا ما كنت أجيل الطرف في باقي آثارها ، وشخوص معالمها ، واردد النظر فيما كتب عنها أو أشير اليها في المراجع القديمة والحديثة ، فكان ذلك حافزا يستفزني الى مواصلة البحث والاستقراء ، منذ عهد ليس بالقصير •

لقد لعبت هذه المدينة ـ بشهادة المصادر القديمة والحديثة ، وبخلود عدد من آثارها الشاخصة ـ دورا خطيرا في المجالات السياسية والعمرانية والادبية ـ طوال الحقبة التي مكثت فيها عاصمة للخلافة العباسية ، فاستوطنها ثمانية من الخلفاء العباسيين ، وأمّها العلماء والادباء ، وانتجعها الشعراء والفصحاء وأقام فيها القضاة والمحدثون ، واختلف اليها كل ذي حرفة وفن ، وأصبحت ـ بحق ـ المدينة العباسية الاولى في شتى مناحي الحياة •

* * *

تصدى للكتابة عن هذه المدينة ـ في القديم ـ عدد من البلدانيين والمؤرخين والأدباء واختلفت كتاباتهم باختلاف ميولهم العلمية ، ونزعاتهم الادبية ، فجاءت في بعض المصادر أخبارا متناثرة تسرد خلال الحوادث التأريخية أو الطرائف الادبية ، وأتيح لبعضها أن تحتل صفحات لا بأس بها في بعض الاسفار ، ولا سيما في مؤلفات اليعقوبي وياقوت •

وكتب عنها ـ في الحديث ـ عدد آخر من الباحثين والأدباء والمؤرخين ، فحاول بعضهم تعيين مواضع لبعض معالم المدينة من قصور وبرك وشوارع[١]، ووضع آخر فهرسا عمرانيا لقصور أحد خلفائها[٢]، وكتب ثالث تأريخا لهذه المدينة ، دون التقيد بحقبة زمنية معينة[٣] ٠

وتصفحنا هذه المؤلفات وعشرات غيرها من كتب البلدان والتأريخ والأدب والشعر ، وحاولنا أن نرسم صورة لهذه المدينة واضحة المعالم ، مستهدفين من ذلك ، ابراز شخصيتها العلمية والادبية والسياسية والتأريخية ، والعمرانية والفنية ، وحاولنا أن نرافق هذه المدينة منذ العصور السحيقة ، ونتتبع الأطوار التي مرت بها ، وفصلنا القول في أسمها واللغات الواردة فيه ، وأشرنا الى من أنتسب اليها من العلماء والادباء ، وتكلمنا على أهميتها العلمية والادبية ، والمحنا الى اسماء عدد من العلماء والادباء والشعراء والمؤدبين والقضاة والمحدثين ، الذين أموها وأقاموا في أكناف خلفائها ووزرائها ، كما ذكرنا ما كان يدور في مجالس خلفائها ووزرائها من المناظرات الفنية والتأريخية والعلمية والادبية ، وأفضنا في الكلام على قصور خلفائها ووزرائها ، واستقصينا الامثلة والشواهد الادبية والشعرية التي قيلت في كل معلم من معالمها ٠ وتطرقنا الى المحاولات التي جرت من قبل بعض الخلفاء للانتقال عنها والتحول الى غيرها من المدن ٠ وانتهينا الى ما قاله الشعراء والأدباء في ندبها ورثائها بعد أن مشى فيها الخراب ٠

ونحن مع ذلك لا ندعى الاستقصاء الشامل لكل ما يتعلق بهذه المدينة، فما تزال هناك ـ كما نعتقد ـ جوانب ينبغى أن تدرس بشيء من العناية والشمول ٠

وأما قصرنا الكلام على سامراء في أدب القرن الثالث الهجري دون غيره فلأن القرن المذكور يمثل ـ دون شك ـ أزهى حقبة مرت بها الدولة العباسية في المجالات : العلمية والأدبية والسياسية والحضارية ، ولأن « سامراء » قد

---

(١) أنظر سامراء لمديرية الآثار القديمة ، ورى سامراء للدكتور أحمد سوسه ٠

(٢) انظر : الديارات للشابشتى ، الذيل رقم (١١) ص ٢٣٠ تحقيق : كوركيس عواد ٠

(٣) أنظر : مآثر الكبراء في تأريخ سامراء للشيخ ذبيح الله ٠

ابتنيت في هذا العصر ، واتخذت عاصمة للخلافة مدة أربت على نصف قرن من الزمان ، وتهيأ لها من الأسباب المادية والظروف المناخية والجغرافيـة ما فضلها على غيرها من المدن الاسلامية الكبرى ، فنالت في هذا القرن شهرة مدوية في كل مرفق من مرافق الحياة ٠

ولا يسعني اخيرا الا أن اجزل الثناء عاطرا موصولا لاستاذي الدكتـور عبدالقادر القط ، لما اسداه لي من توجيهات قيمة ، وملاحظات ثمينة ، كان لها الفضل الأكبر في اعداد هذه الرسالة واخراجها بهذه الصورة ٠

كما لا يفوتني أن اسجل شكري وثنائي للاستاذ الدكتور محمد العلائي والاستاذ الدكتور أحمد محمد الحوفي عضوي لجنة المناقشة ، لما ابدياه لي من توجيهات نافعة ، وخاصة الدكتور الحوفي الـذي أفدت من ملاحظاتـه كثيرا ، وحاولت تنفيذ بعضها ـ في رسالتي هذه ـ بعد المناقشة ٠

يونس أحمد السامرائي

تمهيـــد

سامراء عبر العصور :

تشير المراجع التأريخية والبلدانية الى قدم هذه المدينة ، والى توغلها في أعماق العصور السحيقة • فقد قيل انها بنيت من قبل « سام من بوح »[1] فنسبت اليه وسميت « ساميرا »[2] • وقيل : ان هذا الاسم أطلق على موضع يقع بين قريتين كان سام بن نوح يتردد اليهما ، ويسمى بالفارسية « سام راه » أي طريق سام[3] وأثبتت التنقيبات التي أجريت برئاسة الاستاذ الالماني هرزفلد في سنة ١٩١٢ ـ ١٩١٤ ان موضع سامراء كان يمثل طورا من أطوار ما قبل التأريخ ، وقد عثر على أنواع من الأواني والفخار ترقى في زمنها الى الألف السادس قبل الميلاد ، وسمى هذا الطور بطور سامراء[4] نسبة الى الموضع الذي أكتشفت فيه هذه الأواني والفخار أول مرة[5] •

---

(١) أنظر : كتاب البلدان لليعقوبي ص٢٣ طبعة النجف ، والتنبيه والاشراف للمسعودي ص٣٠٩ ، ومعجم البلدان لياقوت ٣/١٧٤ طبعة بيروت •

(٢) أنظر : معجم البدان ٣/١٢٣ ، ٢١٥ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٦/٢٥٣ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، مخطوط بدار الكتب ٦/٣٢٠ ـ ٣٢١ ، وكشف الطرة عن الغرة للآلوسي ص٢٨٨ •

(٣) أنظر مجمل التواريخ والقصص ص ٥١٦ ـ ٥١٧ ، المؤلف بالفارسية في حدود ٥٢٠هـ والمطبوع في طهران سنة ١٣١٨ شمسية بتحقيق ملك الشعراء بهار ، وهذا الكتاب مجهول المؤلف وانظر : معجم البلدان ٣/١٧٣ ، ورحلة ابن جبير ص ١٤٠ •

(٤) انظر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة لطه باقر ص ٦١ ، وسامراء لمديرية الآثار القديمة ص٧٧ •

(٥) أنظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص٥٧ •

وقيل : انها وردت في الكتابات البابلية باسم « سيمورم »[٦] • وقيل : ان هذا الاسم يعود الى أصل آشوزي وهو « سرمارتا Su - urmarta » فحرفه العرب الى « سر من رأى »[٧] • وذهب بعض المؤرخين الى أن اسمها بالآرامية « سامرا »[٨] • وذكر أنها تسمى في كتب النصارى المتقدمة « سر من رأى »[٩] وقيل : انها كانت مدينة عتيقة من مدن الفرس تحمل اليها الاتاوة التي كانت لملك الفرس على ملك الروم ، وتسمى بالفارسية « سامرّه » أي مكان قبض عدد جزية الروس ، ذلك ان « سا » تعني الاتاوة و « مرّه » تعنى العدد[١٠] • وقد انشأ الفرس عندها حصنا سمي بـ « حصن سومير Sumere » وهو الحصن الذي شهد تقهقر الجيوش الرومانية بعد مقتل قائدها الامبراطور جوفيان عام ٣٦٣م[١١] • ثم انتقلت المدينة الى أيدي الروم ، بعد ان دحروا الفرس وطردوهم منها في عهد « خسرو برويز » فأنشأوا الكنائس ، وأقاموا الأديرة[١٢] ، ومنها الدير الذي اشتراه المعتصم حيث بنى مدينته الجديدة في موضعه • ويرى آخرون

(٦) أنظر : موجز دليل سامراء ص٥ لسالم الآلوسي •

(٧) أنظر : تأريخ العرب لفيليب حتى ٢/٥٦٠ •

(٨) أنظر : بلدان الخلافة الشرقية تأليف : ليسترنج ، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس هامش ص٧٧ •

(٩) أنظر : كتاب البلدان ص٢٣ ، والتنبيه والاشراف ص٣٠٩ ، ومعجم البلدان ٣/١٤٧ •

(١٠) أنظر : معجم البلدان ٣/١٧٣ـ١٧٤ ، ودائر المعارف الاسلامية ١١/٨٢ وأنظر كتاب مجمل التواريخ والقصص بالفارسية ص٥١٦ ـ ٥١٧ ، حيث نقل مؤلفه رأى حمزة الاصفهاني كما فعل ياقوت • أفادني بذلك الدكتور حسين علي محفوظ ، أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بجامعة بغداد •

(١١) أنظر ري سامراء للدكتور أحمد سوسه ١/٥٦ •

(١٢) أنظر : مآثر الكبراء في تأريخ سامراء للشيخ ذبيح الله ١/١٢ طبعة النجف •

انها مدينة اسلامية بناها المعتصم بن هارون الرشيد وأطلق عليها أسم « سرّ مَنْ رأى »[١٣] ثم تممها ابنه المتوكل من بعده[١٤]. وكانت سامراء ـ كما تشير بعض المصادر ـ مدينة عامرة آهلة ، ثم أخذت تتناقص وتضمحل حتى كان آخر خرابها واندثارها في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون[١٥] .

ويخيل الينا ان بعضا من هذه الروايات التي جاءت لتأييد اعراق المدينة ، وايغالها في احشاء الزمن ، لا تخلو من الغلو والتكلف والخيال الاسطوري وقد يكون من الاسراف ان ينسب بناء هذه المدينة الى سام بن نوح ، كما لا يخلومن الغلو القول بان العرب حرفوا كلمة « سرمارتا » الآشورية الى « سر من رأى » الاسلامية، لأن هذا يعنى ان الاسم الآشوري كان شائعا معروفا لديهم ، وهذا ما نشك فيه . كما ان الزعم بانها كانت تسمى في كتب النصرى المتقدمة « سر من رأى » يفتقر الى ما يؤيد ذلك . ونحن كذلك لا نميل الى الأخذ بالرواية التي تشير الى ان هذه المدينة كانت عامرة بالسكان ، ثم أخذت بالتناقص والاضمحلال حتى خربت واندثرت في أيام الفتنة بين الامين وأخيه المأمون .

وكل ما يمكن ان يستخلص من هذه الروايات العديدة ، ان هذه المدينة أو بالاصح ان موضع هذه المدينة كان معروفا ومأهولا في فترة من الزمن ، سبقت الحقبة التي ابتنيت فيها المدينة الجديدة ، وان الموضع كان معروفا باسماء ترجع في اشتقاتها أو في مادتها الى شيء غير قليل من التشابه !

---

(١٣) أنظر : معجم البلدان ٣/٢١٥ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص٣٦٤ ، ومآثر الانافة للقلقشندى ١/٢٢٠ .

(١٤) أنظر : التنبيه والاشراف ص٣٠٩ ، ومسالك الممالك للاصطخرى ص٨٦ .

(١٥) أنظر : التنبيه والاشراف ص ٣٠٩ والعيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ٣/٣٨١ .

وحاول بعضهم ـ وان كانت تلك المحاولات لا تخلو من التكلف ـ أن يتلمس تعليلا لتسمية المدينة بـ « سر من رأى » مستندا على ما وصلت اليه من الازدهار والحضارة ، وما اتصفت به من لطافة المناخ وكثرة المياه ، وجودة التربة وطيب الهواء . فجاء في القاموس المحيط : « وسر من رأى : بلد لما شرع في بنائه المعتصم ثقل ذلك على عسكره ، فلما انتقل بهم اليها سر كل منهم برؤيتها ، فلزمها هذا الاسم »[١٦] . وجاء في كتاب تاريخ العرب وقيل في ذلك الزمن ان معنى هذه التسمية « سر من رأى » ان من رآها وقد نزلها الترك سر بنجاة بغداد منهم[١٧] . وقال القلقشندي : « سر من رأى » من السرور والرؤية، ثم خففها الناس فقالوا « سامرا »[١٨]. وقال المستوفي : ان مدينة سامراء أنشأها في الأصل سابور ذو الاكتاف (٣٠٩ ـ ٣٧٩م) ولما كان اقليمها طيبا عرفت بـ « سرمن رأى »[١٩] . وعلى الرغم من هذه التخريجات لتسمية المدينة ، فاننا ما نزال نجهل حقيقة هذه التسمية ، والاصل الذي انحدر منه هذا الاسم !

سبب بائها :

يذكر المؤرخون أسبابا عديدة لبناء هذه المدينة : فمنهم من يرى انها ابتنيت لتكون متنزها للخليفة ، يلجأ اليه ويبتعد به عن الغوغاء[٢٠] . وليس من العسير تفنيد هذا الرأي اذ ان المدينة ـ كما سنرى ـ لم تبن لمثل هذا الغرض البتة ، وانما ابتنيت لتكون حاضرة جديدة لأكبر امبراطورية في

---

(١٦) القاموس المحيط ٢/٥٦٣ .

(١٧) تأريخ العرب لحتي ٢/٥٦٠ .

(١٨) صبح الاعشى ٤/٣٣٢ .

(١٩) ري سامراء ١/٤٨ .

(٢٠) أنظر : الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٢/٢٦٧ ، والتمدن الاسلامي لجرجي زيدان ٢/١٧٦ .

العالم ، حتى ان بناءها قد آثر على بغداد تأثيرا عظيما من حيث الحضارة والتجارة[٢١] . ومنهم من يرجع ذلك الى سبب ديني ، اذ ان الخليفة المعتصم كان يناصر أهل مذهب الاعتزال ، مما حدا بمسلمي بغداد الى التذمر وعدم الارتياح منه[٢٢] .

ويذكر الطبري سببا آخر لعزم المعتصم على الابتعاد عن بغداد ذلك ان الجند شغبوا حين بويع له بالخلافة ، فطلبوا العباس بن المأمون ونادوه بالخلافة ، فأرسل المعتصم الى العباس فبايعه هذا وأسكت الجند[٢٣] ، وعند ذلك طلب المعتصم الى وزيره أحمد بن خالد ان يشتري له بناحية سامراء موضعا ليبنى فيه مدينة ، لأنه يتخوف أن يصيح الحربية[٢٤] صيحة فيقتلون غلمانه ، ولكي يكون فوقهم فان رابه منهم ريب ، اتاهم في البر والبحر حتى يأتي عليهم[٢٥] . واما السبب الذي يكاد يتفق فيه المؤرخون ـ ونحن نرجح ذلك فيرجع الى كثرة جيوش المعتصم من الأتراك ، وان اختلفوا في عِدّة أفراد هذه الجيوش ، فمنهم من أوصلها الى سبعين ألفا[٢٦] ، ومنهم من جعلها ثمانين الفا[٢٧] ، وذهب آخرون في تعدادها الى (٢٥٠) مائتين وخمسين الفا[٢٨] ، وكان أولئك الاتراك عجما جفاة يركبون الدواب

---

(٢١) أنظر : ظهر الاسلام لاحمد أمين ١/٨ ، ومروج الذهب ٤/٥٣ .

(٢٢) أنظر : العراق قديما وحديثا لعبدالرزاق الحسني ص١١١ .

(٢٣) أنظر : تاريخ الطبري ١٠/٣٠٤ .

(٢٤) المقصود بالحربية (جند العرب) ، أنظر : تأريخ التمدن الاسلامي ١/١٧١ ، والحربية أيضا حي من أحياء بغداد ، أنظر : الاغاني ١٨/١٠٠ ، ومعجم الأدباء ١/١١٣ هامش (٢) .

(٢٥) أنظر : تاريخ الطبري ١١/٣١١ ـ ٣١٢ .

(٢٦) أنظر : آثار البلاد واخبار العباد للقزويني ص٣٨٥ .

(٢٧) أنظر : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٢/٢٣٣ ، وظهر الاسلام لأحمد أمين ١/٦ .

(٢٨) أنظر : مختصر تأريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد أمير علي ص ٢٤٣ .

فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ويطئون الصبي[٢٩] . فكرههم أهل بغداد وضاقوا بهم[٣٠] ، فكانوا يقتلون بعضا ويضربون بعضا وتذهب دماؤهم هدرا ، فشكت الاتراك ذاك الى المعتصم من جهة ، كما شكا اليه أهل بغداد ما كانوا يلاقونه من أذى الاتراك من جهة أخرى ، حتى بلغ بهم الامر ان طلبوا من الخليفة أن يخرج عنهم بجنده والا حاربوه « بسهام الاسحار »[٣١] فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد[٣٢] .

وقد يكون من الاسباب التي أدت بالمعتصم الى اتخاذ سامراء مقرا له ، أنه كان رجلا يميل الى الروح العسكرية ، وقد اتخذ له جيشا كثيفا اغلبه من الاتراك ، كما تجمع لديه عدد كبير من الخيول ، وهذه الجيوش اللجبة ، والخيول الكثيرة بحاجة الى مدينة جديدة ذات فضاء واسع يستطيع الخليفة ان يهيء فيها الثكنات لجيوشه والاصطبلات وملحقاتها لخيول تلك الجيوش، وان بغداد أصبحت لا طاقة لها باستيعاب هذه الجيوش وخيولها ، الى جانب ما كانت عليه من كثافة السكان .

ولعل من الاسباب ايضا ما كان يدور في خلد المعتصم من تكوين طبقة خاصة نقية من الاتراك ، لتكون له سندا وعونا في توطيد الحكم والقضاء على من تسول له نفسه الخروج على سياسته واتجاهاته ! فوجد ان لا مناص له من اتخاذ مدينة جديدة تمكنه من تطبيق ما كان يعتزم القيام به ... وهذا ما حصل فعلا فقد افرد ـ عند تخطيط المدينة الجديدة ـ قطائع الاتراك عن

---

(٢٩) أنظر : تأريخ الطبري ٢٢١/١٠ ، ومروج الذهب ٥٣/٤ .
(٣٠) أنظر : معجم البلدان ١٧٤/٣ .
(٣١) أنظر : تأريخ الطبري ٢٢١/١١ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٣٦ .
(٣٢) أنظر : كتاب البلدان لليعقوبي ص٢٢ ، وتأريخ الطبري ٢٢١/١٠ .

قطائع الناس جميعا ، وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ، ولا يجاورهم الا الفراغنة ... ثم اشترى لهم الجواري فزوجهم منهن ، ومنعهم ان يتزوجوا ويصاهروا الى أحد من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض ، واجرى لجوارى الاتراك ارزاقا قائمة ، واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر احد منهم يطلق امرأته أو يفارقها ... »(٣٣) .

سبب اختيار موقعها :

لم يكن اختيار المعتصم لموضع سامراء اعتباطا ، وانما كانت هناك

---

(٣٣) كتاب البلدان ص٢٤ ـ ٢٥ . وعلى الرغم من احتفال المعتصم بالاتراك وقوادهم واسناد المناصب الكبيرة اليهم ، فانه لم ينجح فيما كان يرمي اليه من ذلك ، وجاء هذا فيما رواه الطبري على لسان المعتصم حيث أشار الى انه أنفرد يوما باسحاق بن ابراهيم ابن عم طاهر بن الحسين وقال له : « يا اسحاق ، في قلبي إمرانا مفكر فيه منذ مدة طويلة ، وانما بسطتك في هذا الوقت لافشيه اليك ، فقلت : قل يا سيدي يا أمير المؤمنين ، فانما انا عبدك وابن عبدك ، قال : نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع اربعة أنجبوا ، وإصطنعت انا أربعة لم يفلح احد منهم ، قلت : ومن الذين إصطنعهم اخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدالله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم يُر مثله ، وانت ، فأنت والله لا يعتاض السلطان منك ابدا ، وأخوك محمد بن ابراهيم ، واين مثل محمد ! وإنا فاصطنعت الافشين فقد رأيت الى ما صار أمره ، واشناس ففشل ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه ، فقلت ، يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، أجيب على أمان من غضبك ، قال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين ـ أعزك الله ـ نظر اخوك الى الاصول ، فاستعملها . فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب إذ لا أصول لها ، قال : يا اسحاق لمقاساة ما مرّ بي في طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب . « تاريخ الطبري ١٢٢/٩ طبعة دار المعارف » . على ان ما قام به الاتراك بعد وفاة المعتصم من التدخل في شؤون الخلافة ـ اعظم كثيرا من الامر الذي كان يفكر به الخليفة (انظر ص١٦٧ وما بعدها من هذا البحث) .

عوامل كثيرة حببت اليه هـــذا الموضع ، ودعته الى تفضيله على غيره من الاماكن : فمن هذه العوامل ، ان الموضع لم يكن غريبا عنه ، اذ كان متنزها ومتصيدا له ولوالده الرشيد ، يقول الطبري : « ان المعتصم سأل مسـروررا الخادم الكبير ، أين كان الرشيد يتنزه ، اذا ضجر من المقام ببغداد ؟ فأجابه بالقاطول ، وقد كان بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم ... تسمى مدينة القاطول لم تستتم »(٣٤) . ويقول ياقوت : « وكان الرشيد حفر نهرا عندها ـ اي سامراء ـ سماه القاطول ـ وأتى الجند وبنوا عنده قصرا ثم بنـى المعتصم ايضا هناك قصرا .. فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة ، كان هذا الموضع على خاطره، فجاءه وبنى عنده سر من رأى »(٣٥) . ومنها لطافة هوائه ، وغزارة مائه ، وصلاح تربته ، جاء في النجوم الزاهرة ان المعتصم « خرج من بغداد ، وتنقل على دجلة والقاطول ، وهو نهر منها ، فانتهى الى موضع فيه دير لرهبان ، فرأى فضاء واسعا جدا ، والهواء طيبـا فاستمرأه وتصيد ثلاثاً ، فوجد نفسه يطلب أكثر من أكله ، فعلم ان ذلك لتأثير الهواء والتربة والماء ، فاشترى من أهل الدير أرضهم بأربعة آلاف دينار »(٣٦) . ومنها عامل جغرافي ، وقد مر بنا ان من أسباب بناء المدينــة اتخاذها مركزا يمكن المعتصم من القضاء على الفتن التي كان يتخوف وقوعها من أهل بغداد بســبب عنجهيــة الاتــراك . وذهب بعض الدارسين الى ان الحزام المائي الذي كان يحيط بالمدينة قد أكسبها مركزا ستراتيجيا مهمـا لم يتوفر لغيرها من المدن ولا سيما بغداد وكان هذا الحزام يتألف من نهر دجلة الذي يسير بمحاذاة المدينة من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها من جهة الغرب ، ومن مجرى النهروان (مجرى الرصاصي أو القاطول الكسروى)

---

(٣٤) أنظر : تاريخ الطبري ١١/٣١١ .

(٣٥) معجم البلدان ٣/١٧٤ .

(٣٦) النجوم الزاهرة ٢/٢٣٤ ، وانظر : مروج الذهب ٤/٥ .

الذي يتفرع من نهر دجلة من شمال المدينة متجها نحو نهر العظيم ، فيحيط بها من الجهتين الشمالية والشرقية ، ومن مجرى نهر القائم الذي يتفرع من نهر دجلة من جنوب سامراء ، ثم يلتقي بمجرى الرصاصي قبل وصوله الى العُظيم بقليل ، فيحيط بالمدينة من الجهة الجنوبية[37] .

وحاول المعتصم أن يتخذ مواضع لمدينته الجديدة ، غير سامراء ، بيد أنه وجد أن تلك المواضع غير صالحة لما كان يبغيه اما لقربها من بغداد واما لصلادة ارضها وعدم صلاحها لحفر الانهار ، واما لضيقها وصعوبة التوسع فيها[38] ولا شك ان اختيار المعتصم لموضع سامراء كان على جانب من الصواب فبالاضافة الى العوامل المتقدمة فان موقع المدينة مرتفع عن الضفة الاخرى من النهر ، فهى لاتتعرض الى خطر الغرق فى اشد حالات الفيضان ، والطبقة الترابية تكون قشرة قليلة الثخن تستر طبقة صخرية فتبقى مصونة من الرطوبة على الدوام ، علاوة على المناطق الطينية الواسعة التى تساعد على صنع اللبن والاتربة الكلسية الكثيرة التى تصلح لتحضير الجص القوى للبناء[39] .

بناؤها :

سنة بنائها : لم يتفق المؤرخون في السنة التي ابتنيت فيها هذه المدينة ، فذهب بعضهم الى أن ذلك كان في سنة (٢٢٠هـ) . يقول صاحب كتاب تجارب الامم : (وفي هذه السنة (اى ٢٢٠هـ) خرج المعتصم الى القاطول وابتدأ ببناء سر من رأى وذلك في ذي القعدة منها)[40] . ويرى

(٣٧) أنظر : ري سامراء للدكتور أحمد سوسه ١/٥٤ ـ ٥٥ .
(٣٨) انظر : كتاب البلدان لليعقوبي ص٢٢ ـ ٢٣ ، ومروج الذهب ٤/٥٣ .
(٣٩) أنظر : سامراء لمديرية الآثار القديمة ص٣٩ ـ ٤٠ .
(٤٠) تجارب الامم لمسكويه ٦/٤٧٨ .

مثل هذا الرأى صاحب كتاب وفيات الاعيان حيث يقول : « وسامرا ... مدينة بناها المعتصم في سنة عشرين ومائتين »[٤١] . ويذهب الى مثل هذا القلقشندي اذ يقول : « وفي سنة عشرين ومائتين خرج (اي المعتصم) من بغداد لبناء سامرا »[٤٢] . ويشايع هذا الرأي ايضا جلال الدين السيوطي ، فيقول : « وضرب الامام أحمد بن حنبل ، وكان ضربه في سنة عشرين ، وفيها تحول المعتصم من بغداد الى سر من رأى »[٤٣] .

وذهب آخرون الى ان بناء المدينة كان في سنة (٢٢١هـ) ، يقول اليعقوبي ـ وهو أول من فصّل القول في سامراء ـ في معرض كلامه على ابتداء البناء فيها « ثم ارتحل (اي المعتصم) من الفاطول الى سر من رأى فوقف في الموضع الذي فيه دار العامة وهناك دير للنصارى فاشترى من أهل الدير الارض ، واختط فيه وصار الى موضع القصر المعروف بـ « الجوسق » ثم يقول : وكان ابتداء ذلك في سنة ٢٢١ »[٤٤] . كما أشار الى هذا التأريخ في كتابه البلدان ايضا[٤٥] . وذهب الى مثل هذا المسعودي فقال : « ولم يزل ينتقل (اي المعتصم) في تلك النواحي حتى وقع اختياره على موضع سامرا ... فابتدأ ببنائها في سنة ٢٢١ »[٤٦] وأشار الى مثل هذا في كتابة مروج الذهب أيضا[٤٧] . وشارك في هذا الرأى ابن الاثير فقال : « وكان ابتداء العمارة بسامرا سنة أحدى وعشرين ومائتين »[٤٨] . كما ذهب الى

---

(٤١) وفيات الاعيان ١٥٦/١ ـ ١٥٧ .
(٤٢) مآثر الانافة في إمعالم الخلافة ٢٢١/١ .
(٤٣) تأريخ الخلفاء ص٣٣٥ .
(٤٤) تاريخ اليعقوبي ٢٠٦/٣ طبعة النجف .
(٤٥) انظر : البلدان ص٢٢ .
(٤٦) التنبيه والاشراف ص٣٠٩ .
(٤٧) أنظر : مروج الذهب ٥٥/٤ .
(٤٨) الكامل في التأريخ ١٧٤/٣ .

مثل هذا ياقوت الحموي حيث يقول : « فخرج (اى المعتصم) في آخر سنة (٢٢٠) ونزل القاطول في المضارب ، ثم جعل يتقدم قليلا قليلا وينتقل من موضع الى موضع، حتى نزل الموضع وبدأ بالبناء فيه سنة ٢٢١هـ »[٤٩] . وأيد ذلك القزويني في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد[٥٠] . وأنفرد ابن دحية الكلبي بالقول بأن سامراء بنيت واتخذت دار ملك وسدة خلافة في سنة اثنتين وعشرين ومائتين[٥١] .

اما المصادر الحديثة فتشير الى أن بناء المدينة كان في سنة ٢٢١هـ[٥٢] . والمظنون أن من أشار الى أن ابتداء بنائها كان سنة « ٢٢٠ » قد التبس عليه التفريق بين موضع القاطول وموضع سامراء ، فقد أشارت كثير من المصادر الى أن المعتصم خرج الى القاطول في سنة (٢٢٠) وقد بنى هناك بعض الابنية ، ثم رأى أن الموضع غير صالح ، فأنتقل منه الى موضع سامراء[٥٣] .

عمارتها واتساعها :

بعد أن قرّ رأى المعتصم على الموضع النهائي لمدينته ، أمر باحضار المهندسين فاختاروا عدة مواضع للقصور ، وصير الى كل رجل من أصحابه بناء قصر واقطع القواد والكتاب والناس ، واعطاهم النفقات لبنائها ، حتى لنجد الحسين بن الضحاك يلتمس من الخليفة ان يقطعه كما اقطع غيره فيقول :

---

(٤٩) معجم البلدان ٣/١٧٤ .

(٥٠) أنظر : آثار البلاد ص٣٨٥ .

(٥١) انظر : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس لابن دحيه ص٦٤ ــ ٦٥ .

(٥٢) أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ١١/١٢ وغيرها .

(٥٣) أنظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢٠٦ ، والتنبيه والاشراف ص ٣٠٩ وكلام ياقوت المتقدم .

يا أمين الله لا خطة لي ولقد أفردت صحبي بخطط
أنا في دهياء من مظلمة تحمل الشيخ على كل غلط
صعبة المسلك يرتاع لها كل من أصعد فيها وهبط
بونـي منك كما بوأتهم عرصة تبسط طرفي ما انبسط
أبتني فيها لنفسي موطنا ولعقبي فرطا بعد فرط
لم يزل منك قريبا مسكني فأعد لي عادة القرب فقط
كل من قربته مغتبط ولمن أبعدت خزي وسخط(٥٤)

ثم خط المسجد الجامع واشخص الفعلة والبنائين وارباب الفنون ، وكتب في حمل سائر ما يحتاجه البناء من خشب ورخام وزجاج • وشقت الشوارع ، واختطت الاسواق ، وبنيت الدور ، وشيدت القصور ، وانشئت الحمامات والمرافق الاخرى ، وحفرت الانهار ، ونصبت الدواليب والدوالي عليها ، وحملت الغروس والنخيل من سائر البلدان(٥٥) • « وتسامع الناس ان دار ملك قد أتخذت فقصدوها وأجهزوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان ، وكثر العيش واتسع الرزق »(٥٦) • ثم تتابع الخلفاء بعد المعتصم يبذلون جهودا عظيمة في توسيعها وازدهارها ، ولا سيما المتوكل ، الذي كان مشغوفا بالبناء ، محبا للعمارة ، سخيا بالمال ، فلا غرابة اذا ما رأينا عهده يتسم بطابع خاص به ، نستطيع ان نطلق عليه عصر العمارة وتشييد القصور • وبلغ من ولعه بالعمارة وحب البناء انه كان

(٥٤) أنظر : الاغاني ٧/٢١٠ طبعة دار الكتب• الخطة : المكان المختط لعمارة وغيرها • وهي أيضا أرض يختطها الرجل لم تكن لاحد قبله • الفرط : ما لم يدرك من الولد •

(٥٥) انظر : البلدان لليعقوبي ص٢٢ ـ ٣٢ ، وتاريخ اليعقوبي ٣/٢٠٦ •

(٥٦) مروج الذهب ٤/٥٥ •

يدور بنفسه على العمال ، فمن رآه قد جدّ في البناء ، أجازه وأعطاه[٥٧] حتى قيل : انه شيّد أو وسع أربعة وعشرين قصرا[٥٨] • فاتسع البناء وازدهر ، واندفع الناس يشيدون البيوت والقصور حتى اتسعوا في ذلك أكثر من أتساعهم ببغداد[٥٩] وكان ذلك مدعاة لارتفاع ثمن الارض ارتفاعا عالياً حتى « بلغ الجريب من الارض مالا كبيرا »[٦٠] •

وكان الخلفاء اذا بنى أحدهم قصرا أو غيره ، أمر الشعراء أن يعملوا فيه شعرا[٦١] ، فاندفع الشعراء يتسابقون في اطراء هذه المدينة وتفضيلها على بغداد ، وعلى غيرها من المدن[٦٢] وأمتد البناء الى كرخ فيروز « كرخ سامراء » الواقع على عشرة أميال شمال سامراء • والى الدور الواقعة الى شمالها ايضا ، والى المطيرة الواقعة في جنوبها[٦٣] ، كما أمتد البناء الى الجهة الغربية ، فانشئت هناك البساتين والجنائن[٦٤] وأصبح طول المدينة يمتد قرابة أربعة وثلاثين كيلو مترا[٦٥] • وقد دل تخطيط المدينة على براعة فائقة في هندسة تخطيط المدن ، يتجلى ذلك في تنظيم الشوارع والمساكن ، وتنسيق الابنية العامة والاسواق والمتاجر والمساجد والارصفة وغيرها[٦٦] •

والواقع ان هذا الازدهار العجيب في البناء وسرعته وفخامته يرجع الى عوامل عديدة ، كان من حسن حظ المدينة أن تتظافر وتتوفر في تلك

---

(٥٧) أنظر : البلدان ص٣١ •
(٥٨) أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٤ •
(٥٩) أنظر : البلدان ص٢٨ •
(٦٠) المصدر السابق ص٢٩ •
(٦١) أنظر : معجم البلدان ٣/١٧٥ •
(٦٢) سنذكر ما قاله الشعراء بهذا الشأن في فصل قادم •
(٦٣) أنظر : بلدان الخلافة الشرقية ص٧٤ •
(٦٤) أنظر : المصدر السابق ص٧٨ •
(٦٥) أنظر : ريّ سامراء للدكتور أحمد سوسه ١/٤٦ •
(٦٦) أنظر : ري سامراء للدكتور أحمد سوسه ١/٥٧ •

الآونة ، منها : حب الخلفاء للمعارة وتنشيطهم لها[٦٧] ، ومنها سخاؤهم وبذلهم الاموال الطائلة في سبيلها ، ومنها صلاحية الارض وتيسر مواد البناء فيها كالطين والكلس[٦٨] ، ومنها كثرة الايدي الفنية العاملة ، يعضد كل ذلك ازدهار الحالة الاقتصادية ووفرة الاموال في خزانة الدولة[٦٩] .

ويجدر بنا بعد هذه اللمحة الخاطفة ، أن نشير بشيء من الاقتضاب الى بعض الامور المتعلقة بهذه المدينة ، مرجئين الكلام على قصورها وبركها ومساجدها ومآذنها ورياضها وساحات الفروسية فيها ، وما قام به الادب ولا سيما الشعر من تسجيل دقيق لتلك الاعمال الجليلة الخالدة الى فصل تـال .

شـوارعها :

اشتهرت سامراء بكثرة شوارعها واستقامتها واتساعها ، ومن أهم هذه الشوارع : شارع السريجة : ويسمى الشارع الاعظم ، وما يزال يعرف بهذا الاسم بين الناس الى اليوم[٧٠] ، ويمتد من المطيرة الى الوادي المعروف بوادي اسحاق بن ابراهيم[٧١] ويبلغ عرض هذا الشارع مائة متر ، كما يبلغ عرض بعض الشوارع المتفرعة منه خمسين مترا[٧٢] . ومن أهم ما يمر به دار الشرطة والحبس الكبير[٧٣] . وهناك شوارع أخرى كبيرة منها : شارع أبي أحمد بن الرشيد ، وشارع الحير الاول ، وشارع برغامش التركي ، وشارع صالح العباسي ـ ويسمى شارع الاسكر

(٦٧) أنظر : مروج الذهب ٤٧/٤ ، وتاريخ التمدن الاسلامي ١٠٩/٥
(٦٨) أنظر : سامراء لمديرية الآثار القديمة ص٣٩ .
(٦٩) أنظر : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ص٦٤ .
(٧٠) أنظر : سامراء لمديرية الآثار ص١١ .
(٧١) أنظر : البلدان لليعقوبي ص٢٥ .
(٧٢) أنظر : سامراء لمديرية الآثار ص ١١ .
(٧٣) أنظر : كتاب البلدان ص٢٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٨٣/١١ .

(العسكر)[٧٤] ـ وشارع الخليج ، وهو على دجلة ، وفيه الفرض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط ، وسائر السواد ، وشارع الحير الجديد ، وهو خلف شارع الاسكر • وذكر اليعقوبي القطائع والاسواق والمساجد والدور الواقعة على هذه الشوارع بصورة مفصلة[٧٥] • وهذه الشوارع كلها موازية لنهر دجلة ، وتمتد على طول مدينة سامراء ، أولها من جهة الغرب « شارع الخليج » وآخرها من جهة الشرق « شارع الحير الجديد[٧٦] » •

أقسامها وضواحيها :

كانت المدينة تنقسم الى جانبين : جانب سامراء ، ويقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة ، وفي هذا الجانب أكثر القصور والبرك والمساجد التي انشأها خلفاء بني العباس والتي ما تزال آثار بعض منها شاخصة الى اليوم • كما يقع فيه « الكرخ » الذي يبعد حوالي عشرة أميال شمال سامراء ويسمى كرخ فيروز وكرخ سامراء • ونسب اليه عدد من المحدثين والفقهاء[٧٧] وهو أقدم من سامراء نفسها • ذكره اليعقوبي في تاريخه فقال : « ولما كثرت الاضطرابات تأخرت أموال البلدان ونفد ما في بيوت الاموال ، فوثب الاتراك » بكرخ سر من رأى « فخرج اليهم وصيف ليسكنهم فرموه فقتلوه وحزوا رأسه في سنة ٢٥٣[٧٨] » • كما ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان فقال : كرخ سامرا : وكان يقال له كرخ فيروز ، منسوب الى فيروز بن بلاش بن قباذ الملك ، وهو أقدم من سامرا ، فلما بنيت سامراء

---

(٧٤) أنظر : ري سامراء ١٠٦/١ •

(٧٥) أنظر : كتاب البلدان ص٢٥ ـ ٢٨ •

(٧٦) أنظر : ري سامراء ١٠٦/١ •

(٧٧) أنظر : أحسن التقاسيم للمقدسي ص١٢٣ •

(٧٨) تاريخ اليعقوبي ٢٣٣/٣ •

أصل بها »[79] وجاء ذكر الكرخ في شعر ابن المعتز وذلك حيث يقول :

وكل يوم عسكرا فعسكرا ... «بالكرخ» والدور مواتا احمرا[80]

وحيث يقول :

سقى الله نهر الكرخ ما شاء جوده ... فاني بـه حتى الممات مكلف

ولا حرم القصر الخليج وجسره ... وقصر لا شناس عليه مشرّف[81]

واما الجانب الآخر فيقع على الضفة الغربية من نهر دجلة . وكانت بساتين المدينة وجنائنها ومجالسها في هذا الجانب ، كما كان الجانبان مرتبطين بوساطة جسر . وقد أشار اليه اليعقوبي فقال : « ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الاساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة ، وهو جانب سر من رأى ، عقد جسرا الى الجانب الغربي من دجلة ، فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة »[82] وجاء ذكر جانبي المدينة في الشعر أيضا ، فقد روى أبو الفرج الاصفهاني ان عبدالله بن العباس مرض بسر من رأى ، فتأخر عنه من كان يثق به فكتب اليهم :

الا قل لمن بالجانبين بانني ... مريض عداني عن زيارتهم ما بي

فلو بهم بعض الذي بي لزرتهم ... وحاش لهم من طول سقمي وأوصابي

وان قشعت عني سحابة علتي ... تطاول عتبي ان تاخر اعتابي

فلم يبق احد من اخوانه الا جاءه عائدا معتذرا[83] .

كما جاء ذكر الكرخ والجسر في قول السلولي الشاعر :

---

(٧٩) معجم البلدان ٤/٤٤٩ .

(٨٠) أنظر : ديوان ابن المعتز ص١٥٣ شرح محيي الدين الخياط .

(٨١) أنظر : المصدر السابق ص٢٣٧

(٨٢) كتاب البلدان ص٢٨ .

(٨٣) الاغاني ١٧/ ١٤٠ . ساسي : عتب عليه : وجد . واعتبه : سرّه بعد ما ساءه .

ونلت وترك من فرعون حين طغى ... وجئت اذ جئت يا موسى على قدر
ثلاثة كلهم باغ أخو حسد ... يرميك بالظلم والعدوان عن وتر
وصيف « بالكرخ » ممثول به وبغا ... «بالجسر» محترق بالجمر والشرر
وصالح بن وصيف بعد منعفر ... في الحير جيفته والروح في سقر(٨٤)

واما ضواحي سامراء فأهمها : القاطول والقادسية والمطيرة •

فالقاطول : كما مرّ بنا هو الموضع الذي أختاره المعتصم قبل ان ينتقل الى موضع سامراء ، وبنى فيه بعض الابنية ، ثم تركه وانتقل الى الموضع الجديد • وجاء ذكره في قول الشاعر :

قالوا لنا ان في القاطول مشتانا ... ونحن نأمل صنع الله مولانا
والناس يأتمرون الرأى بينهم ... والله في كل يوم محدث شانا(٨٥)

وفي قول الحسين بن الضحاك من قصيدة يمدح بها الواثق ويصف السفينة التي أقلته الى سامراء :

ركبنا غرابيب زفافة ... بدجلة في موجها الملتطم
اذا ما قصدنا « لقاطولها » ... ودهم قراقيرها تصطدم(٨٦)

وفي قول البحتري من قصيدة يمدح بها محمد بن حميد الطوسي :

والتفاني اليك من جبل القا ... طول والدمع ساكب ذو اندفاق(٨٧)

وفي قول علي بن الجهم من قصيدة يمدح بها المعتصم :

---

(٨٤) أنظر : تاريخ الطبري ٢٠٢/١١ •
(٨٥) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء للصابي ص٢٥٢ •
(٨٦) أنظر : معجم الادباء لياقوت ١٩/١٠ • الزفافة : السريعة • القراقير : السفن الطويلة العظيمة جمع : قرقور •
(٨٧) أنظر : ديوان البحترى ٤٨/٢ طبعة بيروت • ولعله يريد القاطول الكسروي •

جزعن قناطـــر القـــاطول ليـــلا   وأعـــراض المطيرة للمقـــام[٨٨]

والقادسية : كما يقول ياقوت الحموي : « قرية كبيرة من نواحـــي دجيل بين حربى وسامرا يعمل بها الزجاج ، وقد نسب اليها قوم من الرواة، وذكرها جحظة البرمكي في قوله :

الى شـــاطيء القاطـــول بالجـــانب الـــذي
به القصـــر بين (القادســـية) والنخل[٨٩]

كما ذكرها عبدالله بن المعتز في قوله :

يا رب يـــوم قد مضـــى   (بالقادسية) لو يدوم[٩٠]

والمطيرة : كما يقول ياقوت أيضا : « قرية من نواحي سامراء كـــانت من متنزهات بغداد وسامراء » وقد « بنيت في خلافة المأمون »[٩١] • وجاء ذكرها كثيرا في شعر الشعراء وسنذكر أبيات جحظة السابقة وما قيل في المطيرة عند الكلام على رياض سامراء ومجالس الأنس والمتنزهات فيها في فصل قادم •

أسمها واللغات فيه :ـ

لهذه المدينة ـ بعد ان اتخذت عاصمة للعباســـيين ـ أســـماء عديدة ، ذكرتها ونوهت بها كثير من المصادر • فمن هذه الاسماء :ـ

الناحيـــة : جاء في كتاب مآثر الكبراء في تاريخ سامراء ما نصه « وقد تكرر في الحديث ذكر الناحية وقد يعبر بها عن القائم عجّل الله فرجـــه ، وفي بعض الاحاديث دخلت الناحية ، أي سر من رأى وذهبت الى الناحيـــة أي سر من رأى »[٩٢] واكبر الظن ان هذا الاسم لم يكن شائعا معروفا ،

(٨٨) ديوان علي بن الجهم ص٧ تحقيق خليل مردم •
(٨٩) معجم البلدان ٤/٢٩٣ •
(٩٠) ديوان ابن المعتز ص٢٤٦ •
(٩١) معجم البلدان ٥/١٥١ •
(٩٢) مآثر الكبراء في تاريخ سامراء ١/٧ •

وانما كانت تطلقه ـ في احاديثها ـ طائفة معينة لغرض معين • وآية ذلك انه لم يرد في أي مصدر آخر •

زوراء بني العباس : وقد أشار الى ذلك اليعقوبي في كتاب البلدان فقال : « واسمها في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس ، ويصدق ذلك ان قبل مساجدها كلها مزورة فيها ازورار ، ليس فيها قبلة مستوية ، الا انها لم تخرب ولم يذهب اسمها »(٩٣) •

العسكر : ولعل أقدم من ذكر ذلك اليعقوبي في كتابه البلدان قال : وجدد الناس البناء وأحكموه واتقنوه لما علموا أنها صارت مدينة عامرة ، وكانوا قبل ذلك يسمونها العسكر(٩٤) • اى ان هذا الاسم كان يطلق ـ كما يفهم من كلام اليعقوبي ـ على الموقع الذي كان الجند معسكرين فيه ، قبل ان تعمر المدينة ••• ويبدو انه بقي معروفا بذلك حتى بعد انشاء المدينة، بدليل انتساب بعض الاجلة اليه(*) •

كما اشار اليه كثير من المصادر الاخرى ، ويظهر انها اعتمدت في رواياتها على ما حكاه اليعقوبي في كتابه آنف الذكر(**) •

سُرَّ مَنْ رأى : وهو الاسم الذي أطلقه ـ كما يقال ـ المعتصم على مدينته الجديدة • وذكره الجوهري في الصحاح(٩٥) وابن خلكان في الوفيات(٩٦) كما ذكره ياقوت في معجم البلدان فقال : « وسر من رأى : مهموز الآخر »(٩٧) • وأشار أيضا الى ان هذا الاسم قد اختصر من اسم

---

(٩٣) كتاب البلدان ص٣٣ وانظر مآثر الكبراء ١/٧ •
(٩٤) كتاب البلدان ص٣٠ •
(٩٥) انظر : الصحاح ٦/٢٣٤٩ •
(٩٦) انظر : وفيا الاعيان ١/٢٣ •
(*) انظر ص٤٦ من هذا البحث •
(**) انظر : الانساب للسمعاني الورقة ٣٩٠ ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ١/٣٧٣ ، ٢/٤٣٥ ، ومراصد الاطلاع لابن عبدالحق ص٢٠٩ والاعلام للزركلي ٢/٢١٥ ، ٥/١٤٠ •
(٩٧) معجم البلدان ٣/١٧٣ •

آخر لسامراء عرفت به عند اكتمال عمرانها وازدهارها وهو « سرور من رأى »[٩٨] .

والغالب على الظن أن هذا الاسم محرف عن الاسم الاصلي المجهول للمدينـة[*] .

اذ ليس من المألوف ان تسـمى المـدن بجمل كاملـة . والحق ان هذا الاسم ورد كثيرا في الشعر والنثر منذ تأسيس المدينة ، ولكنا لا نعرف على وجه التحقيق الاصل الذي انحدر منه ، على الرغم من اشارات بعضهم الى ذلك . وانه لمن الغريب حقا ان يسكت اللغويون ـ على كثرتهم في تلك الحقبة ـ عن هذا الاسم الغريب في وضعه ، اذ لم نعثر على اي شاهد يشير الى استغرابهم من هذا الاسم ، أو الخوض في اشتقاقه واستعماله ، بل ان سـكوت اللغويين عن ذلك وكثـرة اسـتعمال الشعراء والادباء والمؤرخين والبلدانيين له يحملنا على الظن بانه كان معروفا شائعا لديهم .

وبالامكان عده الاسم الرسمي الذي أطلقته الدولة على المدينة ، حيث ضربت المسكوكات العباسية التي عثر عليها بهذا الاسم[٩٩] ، كما يمكن عده الاسم الصحيح لها ، يؤيد ذلك استعمال المؤلفين له في ثنايا كتبهم دون غيره من الاسماء ، ويعضد ذلك ايضا ما ذهب اليه بعض اللغويين وأصـحاب

---

(٩٨) معجم البلدان ٣/١٧٣ .

(*) يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن « ويظهر ان لهذه التسمية الطويلة أي (سرّ من رأى) التي اطلقت على مدينة المعتصم صلة اشتقاقية بهذا الاسم « اي سومير » القديم) تاريخ الاسلام ص٣٨٢ . ومعنى هـذا ان الاسم القديم كان شائعا معروفا لدى الناس فاشتقوا منه أو حرفوه الى هذا الاسم الجديد ، وهو ما نشك فيه .

(٩٩) أنظر : دائرة المعارف ١١/٨٢ ، وتاريخ العرب لحتى ٢/٥٦٠ .

المعاجم في هذا الشأن ، قال شارح ديوان المتنبي في معرض كلامه على قول الشاعر :

أسامرّيٌّ ضُحكة كل راءٍ فطنت وأنت أغبى الاغبياء

سامرى : منسوب الى « سر من رأى » وانما « العامة » تقول سامرا ، والبلد اسمها : « سر من رأى »[100] وقال الفيروزا بادى في كلامه على ابراهيم بن العباس السامري : « وابراهيم بن العباس السامرى ـ بفتح الميم : محدث وليس من سامرا التي هي « سر من رأى »[101] .

وقال الالوسي : « ويقولون للبلدة التي استحدثها في المشهور المعتصم بالله ... سامرا فيوهمون فيه كما وهم أبو عبادة البحترى ... اذ قال :

أخليت منه البذ وهي قراره ونصبته علما بسامراء

والصواب فيها « سر من رأى » لأن المعتصم بعد أن أتمها نقل عسكره اليها فلما رأوها سر كل منهم برؤيتها فقيل « سر من رأى » ولزمها هذا الاسم »[102] .

وجاء هذا الاسم في أغلب المصادر التي ألفت في غضون القرنين الثالث والرابع الهجريين . اذ دأبت تلك المؤلفات على استعمال اسم « سر من رأى » دون غيره من الاسماء أو اللغات التي سنشير اليها بعد قليل . يتجلى ذلك في كتاب البلدان لليعقوبي وتأريخه[103] وكتاب الاغاني[104] ، ومعجم

(١٠٠) ديوان المتنبي ١/٤٥ شرح العكبرى .
(١٠١) القاموس المحيط ٢/٥٦٣ .
(١٠٢) كشف الطره عن الغره ص٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
(١٠٣) أنظر : كتاب البلدان ص٢١ ـ ٣٣ ، وتاريخ اليعقوبي ٣/٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ .
(١٠٤) أنظر : الاغاني في مواطن مختلفة .

الشعراء للمرزباني[١٠٥] ، والفرج بعد الشدة للتنوخي[١٠٦] وغير ذلك من المصادر الاخرى[١٠٧] • ومما تجدر الاشارة اليه ، ان اسم « سر من رأى » بهذه الصورة أو اللغة لم يرد فيما نظنه ـ الا في النثر • اما في الشعر فلم نعثر الا على شاهد واحد جاءت فيه لفظة «سر من رأى» مهموزة الآخر، وذلك في قول المنتصر بن المتوكل :

الى الله أشكو عبـــرة تتحـــير ولو قد حدا الحادي لظلت تحـدر
فياحسرتا أن كنت في سر من رأى مقيمـا وبالشام الخليفة جعفر[١٠٨]

وقد لا نعدو الصواب اذا ما زعمنا ان ليس ثم مدينة أخرى كـــان لاسمها من اللغات العديدة ، ما كان لمدينة سامراء هذه ، اللهم الا اذا استثنينا مدينة بغداد ، وان كانت اللغات الواردة فيها دون ما جاء في هذه المدينـة ايضـــا[١٠٩] •

أما اللغات الواردة في أسم هذه المدينة فكثيرة متعددة ، وســـنحاول الآن ـ جاهدين ـ ذكر ما تيسر لنا التوصل اليه من هـذه اللغـــات خلال تتبعنا وتصفحنا كتب التاريخ والجغرافية والشعر والادب، فمن هذه اللغات :
سُرُّ من رأى : بضم السين والراء ، ذكرها الفيروز ابادي في القاموس

---

(١٠٥) أنظر : معجم الشعراء ص١٥٠ ، ١٨٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤١٦ •

(١٠٦) أنظر : الفرج بعد الشدة ص٥١ ، ٦٦ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٣ •

(١٠٧) أنظر : مثلا فتوح البلدان للبلاذرى ، والاعلاق النفسية لابن رُستة ، والخراج لقدامة بن جعفر ، والمسالك والممـالك لابن خرداذبه في مواطن مختلفة •

(١٠٨) معجم البلدان ٣/١٧٣ • جعفر : أسم المتوكل •

(١٠٩) أشار ياقوت إلى في معجم البلدان الى ان في بغداد سبع لغـات • ١/٤٥٦ •

المحيط[١١٠] .

سَرّ من رأى : بفتح السين والراء ، ذكرها الجوهري[١١١] وابن خلكان في الوفيـــات فقال : « وســـر من رأى ـ بضـــم الســـين المهملـــة وفتحها »[١١٢] . وذكرها الفيروزا بادي ايضا في القاموس فقال : « وسر من رأى ـ بضم السين والراء ـ : أي سرور . وبفتحهما »[١١٣] .

سُرَّ مَنْ رُئِيء : ببنـــاء الفعلين للمجهول ، حكاهـــا الألوســـي في الطـــرة[١١٤] .

(سُرَّ مَنْ را) أو **(سُرَّ مَنْ رَى)** : هذه اللغة ذكرها ياقوت في معجم البلدان فقال :ــ « وسر من را مقصور الآخر »[١١٥] . وتكتب هذه الكلمة أحيانا « سر من رى » « بالياء » ولم ترد هذه اللغة في النثر الا في كلام ياقوت الآنف الذكر وابن عبدالحق في المراصد ، بيد ان صـــاحب الاعلام ذكر في ترجمة يوسف بن محمد السُّرَّمَرّي بأنه « ولد بســـر من را »[١١٦] .

ويغلب على الظن ان هذه اللغة وليدة الضرورة الشعرية التـــي تبيح للشاعر ان يقصر المهموز ، اى انها وليدة قصـــر لفظة « سر من رأى » . والدليل على ذلك انها لم ترد ــ كما اسلفنا ــ في كتابات احد من المؤرخين أو البلدانيين أو الادباء في غضون القرن الذي نحن في صدد الكتابة عنه !

أما في الشعر فقد وردت هذه اللغة بهذين الخطين في مواضع عـــدة فمن ذلك قول خالد الكاتب ــ وهو على ما يبـــدو أول من قال في بنـــاء سـامراء :

(١١٠) القاموس المحيط ٢/٥٠٧ .
(١١١) الصحاح ٦/٢٣٤٩ .
(١١٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ١/٢٣ .
(١١٣) القاموس المحيط ٢/٥٠٧ .
(١١٤) كشف الطره عن الغره ص٢٨٩ .
(١١٥) معجم البلدان ٣/٢١٧٣ ، وانظر : مراصد الاطلاع ص٢٠٩ .
(١١٦) الاعلام للزركلي ٩/٣٣١ .

عـــزم الســـرور على المقـــا م « بســـر مـــن را » للامـــام
بلـــد المســـرة والفتـــو ح المســـتنيرات العظـام[117]

وقوله أيضـا :

« ياسـر من را » بوركت من بلد بورك في نبتـه وفي شـجره[118]

ومنه قول دعبل :

ما « سـر من را بسـر من را » بل هي بوسـى لمن يراهـا[119]

وقولـــه :

خرجت مبكـرا من « سر من را » أبادر حاجـــة ، فـاذا عمير[120]

وقول الحسين بن الضحاك :

« سر من را » أســر من بغـــداد فآله عن بعض ذكرها المعتاد[121]

وقول البحتري :

زهت « سر من را » بالخليفة جعفر وعاد اليها حسنها وجمالهـا[122]

وقوله أيضـا :

« بســـر من را » لنـا امـــام تغـرف من بحـره البحـار[123]

---

(١١٧)و(١١٨) الاغاني ٢١/٣١ المسَّرة : السرور .

(١١٩) ديوان دعبل ص٢٠٥ وانظر : النبراس في تاريخ بني العباس لابن دحية ص٦٥ .

(١٢٠) ديوان دعبل ص١٠٧ ، والاغاني ١٨/٣٥ .

(١٢١) معجم البلدان ٣/١٧٣ .

(١٢٢) ديوان البحتري ١/٣٠١ .

(١٢٣) المصدر السابق ٢/٣٨٧ ، وروى هذا البيت مع أبيات أخـرى لعلي بن الجهم في مدح المتوكل ، أنظر : تاريخ الخلفاء للسـيوطي ص٣٤٩ والعقد الفريد لابن عبد ربه ١/٣٢١ .

وقولــــه :

قالت أراك « بسر من را » ثاويـا   في مرتع جشب وعيش منصب[١٢٤]

وقولــــه :

قلت : اربعى في « سر من را » سيد   كرمت ضرائبه عظيم المنصب[١٢٥]

وقولــــه :

ولمــا قصــدنا (ســر من را) تضــاءلا   ولا خضر يقرى فيهما البدو والحضر[١٢٦]

ومنه قول سكن الشاعرة جارية محمود الوراق :

فأصــبحت « ســر من را » دار مملكـة   مختطـــة بين أنهـــار وأغـــراس

وقولهـــا :

فــذاك بالجســر نصــب للعيــون وذا   « بسر من را » على سامي الذرا راسى[١٢٧]

ومنه قول محمود الوراق :

كل من حـل « ســر من رى » من النـــا   س ومن قـد يداخــل الا ملاكـــا

---

(١٢٤) ديوان البحتري ١/٣٤٠ طبعة الصيرفي • الجشب : الغليظ الخشـن •

(١٢٥) ديوان البحتري ص٣٤١ طبعة الصيرفي • اربعى : توقفي وانتظري • الضرائب : الطبائع والسجايا •

(١٢٦) ديوان البحري ٢/١١٠٠ طبعة الصيرفي •

(١٢٧) طبقات الشـعراء لابن المعتـز ص٤٢٣ • النصـب : العلم المنصوب •

لــو رأى الــكلب مــائلا بطــريق
قــال للــكلب يا جعلــت فداكــا[١٢٨]

وقول عبيدالله بن عبدالله بن طاهر :

أقــول لمـا هــاج قلبــي الذكــرى
واعترضــت وســط الســماء الشــعرى
كأنهــا ياقوتــة فــي مــدْرى
ما أَطــول الليــل « بســر من را »[١٢٩]

وقول يعقوب بن يزيد التمار :

يــا رب لا (فــرجٌ) ممــا أكابــده
« بسر من را » على عسري واقتاري[١٣٠]

ومنه قول ابن المعتز :

سـقى الالــه « ســر من را » القطــرا
والكرخ والخمس القرى والجسـرا[١٣١]

وقوله يصف سامراء بعد خرابها :

قـد اقفـرت « ســر من را » ومــا لشــيء دوام[١٣٢]

(١٢٨) أنظر : العقد الفريد ١٨١/٤ ، وانظر : رسائل البلغاء لمحمد كرد على ص٢٣١ .

(١٢٩) أنظر : كشف الطرة عن الغرة ص٢٨٩، والديارات للشابشتي ص١٣٢ الطبعة الثانية . الشعرى : كوكب نير وطلوعه في شدة الحر . المدرى : المشط .

(١٣٠) الوافي بالوفيات للصفدى ج٧ م٣ ص٤٢٩ ، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٢١٩ تاريخ .

(١٣١) ديوان ابن المعتز ص٤٦ .

(١٣٢) معجم البلدان ١٧٧/٣ .

وقولـــه :

غـــدت « سر من را » في العفـاء فيالهـــا

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)[١٣٣]

وقولـــه :

ســـقيا لارض القيصـــوم والغـــرب

« وسر من را » والجوســق الخرب[١٣٤]

وقولـــه :

« بســر من را » ســقاها الغيث ما شـــربت

من رائح ضـاحك بالمـزن أو غـادِ[١٣٥]

وقول أحمد بن ابي طاهر :

ســـقى « ســـــر مـــن را » وســـــكانها

وديـــــراً لســـــوسنها الـــــــراهب

ســـحابٌ تدّفـقَ عـــن رعـــــده الــــ

صـــفوق وبارقـــه الواصــــب[١٣٦]

وقول ابن الرومي :

وواجهنـــا لغـــرة « سُـــرَّ مَنْ را »

وجوهـــا أكذبت ظنَّ الكـــذوبِ[١٣٧]

---

(١٣٣) المصدر نفسه ٣٨/١٧٧ ٠

(١٣٤) اشعار أولاد الخلفاء للصولى ص١٧٧ القيصوم : نبت زهره مرّ جدا ٠ الغَرَب : نوع من الشجر ٠

(١٣٥) أشعار اولاد الخلفاء للصولى ص٢٢٦ ٠

(١٣٦) معجم الادباء ٣/٩٧ الواصب : الشديد ، الدائم ٠

(١٣٧) ديوان أبن الرومي ١/٥٤٨ شرح محمد شريف سليم ٠

وقول بديع الزمان الهمذاني :

لولا عجوزٌ لي « بسُرَّ مَنْ را »
وأفرخٌ دونَ جبالِ بُصْرى

قد جلب الدهر عليهم ضُرّا
قتلت يا سادةُ نفسي صبرا[(١٣٨)]

وقول الخليفة الراضي :

« بسُرَّ من را « بلاد الملك طابَ لنا
مُعَرَّسٌ عيشه باللهو منظوم[(١٣٩)]

ومنه قول الشاعر :

لعمركَ ما سررت « بسر من را »
ولكني عدمت بها السرورا[(١٤٠)]

(سُرَّ مَرّى) أو **(سُرَّ مَرّا)** : ذكرها السمعاني في كتاب الانساب فقال « السامري : بفتح السين المشددة والميم المشددة أيضا ، هذه النسبة الى بلدة على دجلة ... يقال لها سرّ مرى »[(١٤٠)] . وذكرها الخطيب في تاريخ بغداد فقال : « حدثنا محمد بن عبدالله بن شهريار الاصبهاني ، حدثنا سليمان بن احمد بن أيوب الطبراني ، حدثنا محمد بن يحى بن ناصح « بسرّ مرّى »[(١٤١)] . وقال ابن النديم في ترجمة المصري : « أبو

---

(١٣٨) مقامات البديع الهمذاني المقامة القريضية ص١٦ وانظر : زهر الآداب للحصرى ص٦٥٥ بُصرى : من مدن سوريا في الجنوب الشرقي من حوران .

(١٣٩) الاوراق للصولى ١٨١/٢ التعريس : نزول القوم في السفر للاستراحة . والمعرس : موضع التعريس .

(١٤٠) أنظر : ديوان المتنبي ٤٥/١ حاشية رقم (١) شرح العكبرى .

(١٤١) الانساب الورقة ٢٨٦ .

(١٤٢) تاريخ بغداد ٤٢٢/٣ .

الحسن علي بن محمد بن احمد واصله من سرّ مرّى »[١٤٣] وقال المقدسي يصف سامراء :« وكانت عجيبة حسنة حتى سميت سرور من رأى » ثم اختصرت فقيل « سرّ مرّى »[١٤٤] وجاءت هذه اللغة في الشعر ، في قول مروان بن ابي الجنوب :

ألمْ ترني مرضت « بسُرَّ مَرَّى »
علمّ يغنِ الأطبّةُ والدواء
فلما عادني ابن أبي دؤادٍ
بَرَأتُ وفي عيادتِه الشِّفاءُ[١٤٥]

وفي قول البحتري :

« بسُرّ مَرّا » سرى همي وسامرني
لهو نفى الهم عن قلبي باخراج[١٤٦]

سُرَّ مَنْ راء : ذكر هذه اللغة ياقوت في المعجم فقال : وسرّ من راء : ممدود الآخر »[١٤٧] . وذكرها ابن خلكان في الوفيات فقال : « وسرّ من راء ـ بضم السين وفتحها وتقديم الألف على الهمزة في اللغتين »[١٤٨] .

وجاءت هذه اللغة في الشعر . فقال أبو تمام في بابك :

---

(١٤٣) الفهرست ص٢٧٧ ، ٣٣٦ .
(١٤٤) أحسن التقاسيم ص١٢٢ .
(١٤٥) تاريخ بغداد ٢٣/١٥٥ . بريء من المرض ـ بالكسر ـ برأ ـ بالضم .
(١٤٦) ديوان البحتري ١/٤٣١ طبعة الصيرفي .
(١٤٧) معجم البلدان ٣/١٧٣ .
(١٤٨) وفيات الاعيان ١/٢٣ .

لاقى الحمـــام « بسُــرَّ مَـنْ راءَ » التي
شـــهدت لمصــرعه بصــدق الفـال(١٤٩)

كما جاءت في مواطن عديدة من شعر البحتري ، منها قوله :

دعاهُ الهوى مِـن « سُـرَّ مَـنْ راءَ » فانكفا
اليهـــا انكفـاء الليث تلقـــاء غيلـــه(١٥٠)

وقولـــه :

ولو انصــفتني « سُـرَّ مَـنْ راءَ » لم أكُـنْ
الى العيس ، مـن ايطانهـــا أتظلـم(١٥١)

وقولـــه :

أيُّ شـــيءٍ ألهـاكَ عن « سُــرَّ مَـنْ را
ءَ » وظِـلٍّ للعيشِ فيهـــا ظَليل(١٥٢)

وقولـــه :

ما بعـــدَ جُــودِكَ ، لولا ما يُجـــاوره
«بسُـرَّ مَـنْ راءَ» من جهل ومن بخل(١٥٣)

وقولـــه :

لأَرحلَـــنَّ ، وآمالـــى مُطَـرَّحَـــةٌ
«بسُـرَّ مَـنْ راءَ» مستبطىً لها القدر(١٥٤)

---

(١٤٩) ديوان ابن تمام ٣/١٤٤ شرح التبريزي .
(١٥٠) ديوان البحترى ٣/١٦٣٥ طبعة الصيرفي . الغيل : الاجمة ، موضع الاسد .
(١٥١) المصدر السابق ١/٧٩ طبعة بيروت. الايطان : الاقامة بالمكان،
(١٥٢) المصدر السابق ٢/٢٤٢ طبعة بيروت .
(١٥٣) المصدر السابق ١/٢٥٨ طبعة بيروت .
(١٥٤) المصدر السابق ٢/٣٠٨ طبعة بيروت .

وقولــــه :

« بســرَّ مَنْ راءَ » مَنْكُوسا تُجاذُبهُ
ايدي الشَّمالِ فُضولاً ، كلُها فضل[١٥٥]

سَرَّ مَنْ راء : أنظر « سر من راء » .

سُرورُ مَنْ رأى : ذكرها ياقوت في معجمه فقــال : « ولمـا عمُـرت سامراء وكملت واتسق خيرها واحتفلت سميت « سرور من رأى »[١٥٦]. وذكرها ايضاً المقدسي في معرض كلامه على سامراء[١٥٧] .

سُرَّاء : ذكرها « الفيروزابادي » . في القاموس فقــال : « ســرّاء ــ ممدودة مشددة مضمومة ، وتفتح ... اسم لسرّ من رأى »[١٥٨] .

سَرّاء : أنظر : « سُرّاء » .

ساءَ مَنْ رأى : ذكرها الجوهري[١٥٩] ، وابن خلكــان[١٦٠] ، كما ذكرها ياقوت في المعجم ، وأشار الى سبب هذه التسمية فقال : « فلمـا خربت « اى سامراء » وتشـوهت خلقتها واستوحشت سميت « سـاء من راى »[١٦١] . وأشار الى مثل هذا المقدسي فقال : « فلما خربت وصارت الى ما ذكرنا سميت « ساء من رأى »[١٦٢] . وجاءت هــذه التسمية في مراصد الاطلاع ايضـا[١٦٣] . أما سـبط بن الجوزي فذهب الى تغليط

---

(١٥٥) المصدر السابق ٢/٣٥٣ طبعة بيروت . الفضول : ما فضــل من الغنيمة فلم ينقسم .
(١٥٦) معجم البلدان ٣/١٧٤ .
(١٥٧) أنظر : الكلام على سر مرى .
(١٥٨) القاموس المحيط ٢/٥٠٧ ، وانظر : معجم البلدان ٣/١٧٣ .
(١٥٩) أنظر : الصحاح ٦/٢٣٤٩ .
(١٦٠) أنظر : وفيات الاعيان ١/٢٣ .
(١٦١) معجم البلدان ٣/١٧٤ .
(١٦٢) أحسن التقاسيم ص١٢٢ .
(١٦٣) أنظر : مراصد الاطلاع لابن عبدالحق ص٢٠٩ .

أولئك الذين يرون أن هذا الاسم كان قد أطلق على المدينة بعد أن مشى فيها الخراب والاندراس فقال : « قلت : قولهم « ساء من رأى » من السوء غلط ظاهر منهم بعكس اللفظ والمعنى ، فان هشام بن الكلبي روى عن ابيه قال : لما خرج نوح من السفينة وتفرق أولاده جاء سام الى هذه البقعة فاعجبته فبنى بها مدينة وقال : هذا وسط الدنيا ، فقيل : سام راء : اي رآها فاختارها »(١٦٤) .

وعلى الرغم مما ذهبت اليه المصادر السابقة من محاولات التعليل لتبرير هذه التسمية ، فالذي يظن ان بعض من كان يناصب أهل سامراء العداء ، قد أطلق هذا الاسم على المدينة ، على سبيل السخرية أو التشفي ، أو على سبيل ضرب العبرة ، اذ ليس من المألوف أن يوضع للمدن أسم بعد خرابها يغاير الاسم الذي أطلق عليها عند انشائها .

سامرّه : ذكرها السمعاني في الانساب فقال : « السامريّ : بفتح السين المشددة والميم المشددة أيضا ، هذه النسبة الى بلدة على دجلة فوق بغداد ... يقال لها سرّ مرّى ، فخففها الناس وقالوا : سامرّه »(١٦٥) . كما جاء ذكرها في مراصد الاطلاع . قال ابن عبدالحق : « وسامره بالهاء »(١٦٦) . والظاهر أن هذه اللغة كانت تدور على ألسنة العامة لخفتها . ومما تجدر الاشارة اليه أن العامة ما تزال ـ الى الآن ـ تستعمل هذه اللغة أكثر من استعمالها لاسم المدينة الاصلي وهو سامراء .

سامَرّا : ذكرها كثير من أصحاب المعاجم والبلدان والتراجم ، فقال الجوهري : « وسامرا » : التي بناها المعتصم وفيها لغات : سُرَّ من رأى ، وسَرَّ من رأى ، وساء من رأى و « سامرا »(١٦٧) . وقال ابن خلكان :

---

(١٦٤) مرآة الزمان ٦/٣٢٠ ـ ٣٢١ ، مخطوط بدار الكتب .
(١٦٥) الانساب الورقة ٢٨٦ .
(١٦٦) مراصد الاطلاع ص٢٠٩ .
(١٦٧) الصحاح ٦/٢٣٤٩ .

وسامرا : بفتح السين المهملة ، وبعد الألف ميم مفتوحة ثم راء مشددة وبعدها ألف ـ مدينة كبيرة بناها المعتصم في سنة عشرين ومائتين بالعراق فوق بغداد »(١٦٨) . وقال ياقوت : « وسامرا مقصور »(١٦٩) . وقال ابن عبدالحق : « سامرا لغة في سر من رأى » ؟ وهي المدينة التي أنشاها المعتصم بين بغداد وتكريت وتقرأ على عدة وجوه : سامَرًّا بالقصر »(١٧٠).

واختلف في اللغة التي أنحدرت منها هذه التسمية ، أهي « سر من رأى » أم « ساء من رأى » ؟ فبعضهم يرى أنها وليدة تخفيف الناس وتساهلهم في كلمة « سر من رأى »(١٧١) في حين يرى آخرون انها اختصار لكلمة « ساء من رأى » ويعللون ذلك ان الناس ضاقوا بطول كلمة « ساء من رأى »(١٧٢) فحذفوا همزة « ساء » وهمزة « رأى » فنشأ من ذلك هذه الكلمة الجديدة « سامرا »(١٧٣) . ومما يضعف الرأى الاخير وجود شاهدين يؤيدان أن هذه التسمية « سامرا » كانت معروفة حين كانت سامراء في أوج عظمتها ، وأنضر أيامها في عهد الخليفة المتوكل . يقول الاصفهاني في كتابه الاغاني ، وفي معرض ترجمته لمحمد بن صالح العلوي الذي خرج في أيام المتوكل ، فحبُس في سامراء ، وأقام بها الى ان مات ما نصه : « اخبرني الحسين بن القاسم الكوكبي قال : حدثني احمد بن ابي طاهر قال : مرّ محمد بن صالح بقبر لبعض ولد المتوكل ، فرأى الجواري يلطمن عنده فأنشدني لنفسه :

---

(١٦٨) وفيات الاعيان ١/١٥٦ ، وانظر المصدر نفسه ١/٢٣ .
(١٦٩) معجم البلدان ٣/١٧٣ .
(١٧٠) مراصد الاطلاع ص٢٠٩ .
(١٧١) أنظر : تقويم البلدان لابن أيوب ص٣٠١ ، ومآثر الانافة للقلقشندى ١/٢٢٠ .
(١٧٢) أنظر : أحسن التقاسيم للمقدسي ص١٢٢ .
(١٧٣) أنظر : كشف الطرة ص٢٨٩ .

رأيت « بسامرّا » صبيحة جمعة   عيوناً يروق الناظرين فُتورها[174]

ويَنسب الاصفهاني كذلك الى محمد بن صالح هذا قوله من قصيدة له يتغزل فيها بزوجته حمدونة :

تلك التي لولا غرامي بها   كنت « بسامرّا » قليل المقام[175]

ويروى القالي في ذيل الامالي أن المبرد قال : « كنت بسرّ من رأى في أيام المتوكل وكانت الجيوش متكاثفة فما كان أحد من مرّار الطريق يعدم حصاة تتلقاه من حذف حوافر الخيل ، فأنشدني بعضهم :

لا تَقعُدَنَّ « بسامرّا » على الطُرُقِ
ان كنت يوماً على عينيك ذا شَفَقِ
حوافِرُ الخيل اقواسٌ وأسهمُها
صُم الحجارة والأغراضُ في الحدق[176]

وجاءت هذه اللغة في قول ابن الرومي ايضاً الذي كان يتردد على سامراء أيام كانت عاصمة للخلافة العباسية :

أَحبايَ كم لي نحوكم من تحيةٍ
أحملها هبات كل جنوب
فلا تتركوا ردّ السلام اذا جرتْ
شمال على نائي المحلّ غريب
غريبٌ له نفسانِ : نفسٌ بواسطٍ
ونفسٌ « بسامرّا » بكفِ حبيبِ[177]

---

(١٧٤) الاغاني ١٦/٣٦٢ طبعة دار الكتب ، وانظر : مقاتل الطالبين لابي الفرج ايضا ص٦٠٢ ، تحقيق : أحمد خضر .
(١٧٥) الاغاني ١٦/٣٦٤ .
(١٧٦) ذيل الامالي والنوادر ص١٠٥ .
(١٧٧) ديوان ابن الرومي ١/٥٥٩ شرح محمد شريف سليم .

ويرى بعضهم أن هذه اللغة لحن ، أو أنها من الفاظ العامة • يقول الفيروزا بادى : « وسرّ من رأى ـ بضم السين والراء ـ : أي سرور • وبفتحها ، وبفتح الاول وضم الثاني • و « سامرا » ومده البحترى في الشعر ، أو كلاهما لحن »[١٧٨] • ويقول شارح ديوان المتنبي في تفسيره لقول الشاعر :

أسامريّ ضحكة كل راء فطنت وأنت أغبى الأغبياء

سامرّيّ : منسوب الى « سرّ من رأى » وانما العامة تقول « سامرّا »[١٧٩] • وجاءت هذه اللغة في تاريخ الامم والملوك للطبري[١٨٠] ، والعقد الفريد لابن عبد ربه[١٨١] ، ومروج الذهب للمسعودي[١٨٢] • وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي[١٨٣] وغيرها من المراجع[١٨٤] •

سامرّاء :

ذكرها ياقوت في معجمه ، وجعلها عنوانا للمادة التي تتكلم عليها[١٨٥] كما ذكرها ابن خلكان في الوفيات[١٨٦] وابن دحية في النبراس[١٨٧]

---

(١٧٨) القاموس المحيط ٢/٥٠٧ •

(١٧٩) ديوان المتنبي ١/٤٥ هامش (١) وانظر : كشف الطره ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ •

(١٨٠) انظر : تاريخ الطبري الجزء الحادي عشر في مواطن متعددة •

(١٨١) أنظر : العقد الفريد ٦/٢٥٣ •

(١٨٢) أنظر : مروج الذهب ٤/٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ •

(١٨٣) أنظر : تاريخ بغداد ٢/٤٨ ، ٨/٣٦٩ ، ٩/٣١٧ •

(١٨٤) أنظر ذ آثار البلاد للقزويني ص٣٨٥ ، ومعجم الادباء في مواطن متفرقة ، وبغية الوعاة ١/٤٤٥ وتاريخ الخلفاء ص٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ •

(١٨٥) أنظر : معجم البلدان ٣/١٧٣ •

(١٨٦) أنظر : وفيات الاعيان ١/٢٣ •

(١٨٧) أنظر : النبراس في تاريخ بني العباس ص٦٥ •

وابن عبدالحق في المراصد[١٨٨] والآلوسي في الطرة[١٨٩] وأشار ياقوت الى ان هذه اللغة مختصرة من كلمة « ساء من رأى » قال ••• فلما خربت (اي سامراء) وتشوهت خلقتها واستوحشت سميت « ساء من رأى » ثم اختصرت فقيل سامراء[١٩٠] ويرى بعضهم ان هذه اللغة لحن[١٩١] كما ساورت آخرين الشكوك فيما اذا كانت هذه التسمية لغة شائعة أو أنها جاءت في الشعر بمقتضى الضرورة • قال ابن خلكان : « وسر من رأى فيها ست لغات ••• وهي : سر من رأى ••• وسامرّا واستعمله البحتري ممدودا في قوله : ونصبته علما بسامراء • ولا أعلم هل هي لغة شائعة أو استعمله البحتري كذلك ضرورة »[١٩٢] •

وليس من الاجحاف اطراح الرأي القائل بأن هذه اللغة اختصار لكلمة « ساء من رأى » بدليل استعمال البحتري لها في مواطن مختلفة يوم كانت سامراء حاضرة الخلافة ، وسيدة المدن ، وكان البحتري آنذاك يعيش في اكناف خلفائها ويتردد على وزرائها واعيانها • فمن ذلك قوله يصف صلب بابك :

أخليت منه البذ وهي قراره ونصبته علما « بسامراء »[١٩٣]

وقوله :

فاقسم « لسامراء » قسمة منصف تجذل قلوب الاولياء وتسرز[١٩٤]

---

(١٨٨) أنظر : مراصد الاطلاع ص٢٠٩ •
(١٨٩) أنظر : كشف الطرة على الغرة ص٢٨٨ •
(١٩٠) معجم البلدان ٣/١٧٤ •
(١٩١) أنظر ما تقدم من هذا البحث وانظر النبراس ص٦٥ •
(١٩٢) وفيات الاعيان ١/٢٣ •
(١٩٣) ديوان البحترى ٢/٣٨٣ طبعة بيروت •
(١٩٤) ديوان البحترى ١/١٣٩ طبعة بيروت •

وقولـــه :

وأرى المطايـــا لا قصـــور بهـــا　　عن ليل «سامراء» تَدَّرِعُه (١٩٥)

ويخيل الينا ان استعمال البحتري لهذا الاسم في المواضـع الثلاثـة المتقدمة ، يدل على ان الاسم كان شائعا معروفا ، وان استعماله اياه لم يكن ضرورة شعرية كما يظن • والحق ان هذا الاسم وهو الذي عرفت بـه المدينة الحالية ، لم يرد كثيرا في المصادر القديمة التي رجعنا اليها في بحثنا هذا ، بالقياس الى الاسم الاصلي للمدينة وهو « سر من رأى » ومن المصادر التي ورد فيها هذا الاسم : كتاب الديارات للشابشتي (١٩٦) ونهاية الارب للنويري (١٩٧) وبغية الوعاة للسيوطي (١٩٨) •

النسب اليها وانواعه :

ان تعدد اللغات في هذه المدينة كان مدعاة لتعدد النسب اليها ايضا • فقد جاء من أنواع النسب اليها : سُرَّ مرِّيٌّ • وسامريٌّ • وسُرِّيٌّ (١٩٩) وسُرَّ من رائي (٢٠٠) واختلف في اللغة التي نسبت اليها بعض هذه الانواع من النسب ، وسكت ولم يشر اليها في بعضها الآخر • فقد اشار ياقوت الى ان ابا عثمان المازني قال :« قال لي الواثق: كيف ينسب رجل الى سرَّ من رأى فقلت : سرى ياأمير المؤمنين ، أنسب الى أول الحرفين كما قالوا في النسب

(١٩٥) ديوان البحترى ١/٢٦٩ طبعة بيروت •
(١٩٦) أنظر : الديارات ص١١٩ •
(١٩٧) أنظر : نهاية الارب ٤/٦٣ •
(١٩٨) أنظر : بغية الوعاة ١/٧٤ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم•
(١٩٩) أنظر : القاموس المحيط ٢/٥٠٧ •
(٢٠٠) جاءت هذه النسبة في الابيات التي هجا بها الشاعر أبا الفرج محمد بن علي السامري وزير المستكفي ، وذلك حيث يقول :

والسَّر مَنْ رائي في اصطبله　　مائتا عتيق فـاره مختـار

أنظر : الفخري في الآداب السلطانية ص٢٨٨ • ويبدو ان هذه النسبة اما الى سر من راء أو الى سر من رأى •

الى تأبط شرا : تأبطي »[٢٠١] وانكر آخرون صحة النسب الى « سر من رأى » بحجة ان الجمل اذا سمى بها لا ينسب اليها[٢٠٢] ويرى بعضهم ان النسبة الى سر من رأى « سامرى » جـاء في اللباب : « السامري : بفتح السين وسكون الالف وفتح الميم وفي آخرها راء مشددة ، هذه النسبة الى مدينة سر من رأى »[٢٠٣] ومن جهة أخرى نجد ان السـمعاني يذكر في الانساب ما يشير ا لىأن هذه النسبة ليست الى « سر من رأى » وانما هـي الى لفظة « سر مرى » فيقول : « السامرى : بفتح السـين المشـددة والميم المشددة ايضا هذه النسبة الى بلدة على دجلة فوق بغداد ثلاثين فرسخا يقال لها سرمرى »[٢٠٤] ويحمل هذه النسبة عدد منالعلماء والادباء والمحدثين ، منهم : هارون بنالحارث السامرى اللغوي،وكان اماما متصدرا بسامراء ،ويعد في مشايخ الكوفيين في الطبقة الثالثة من أهل اللغة الكوفيين[٢٠٥] ٠

واحمد بن عبدالله الهشيمي السامرى ، وكان مؤدباً ، محدثا توفي سنة أحدى وسبعين ومائتين[٢٠٦] ومحمد بن احمد بن ميمون السـامرى المؤدب[٢٠٧] ومحمد بن اسماعيل السامرى المعروف بخير النساج ، وكان من كبار الصوفية ، سكن بغداد ولـه كرامات[٢٠٨] واحمد بن الحسـن « السرمرى » وكان قـد صـحب ابا عبدالله أحمد بن حنبل وروى عنـه

---

(٢٠١) معجم البلدان ٣/٢١٥ ٠

(٢٠٢) أنظر : ديوان المتنبي ١/٤٥ شرح العكبرى ٠

(٢٠٣) اللباب ١/٥٢٤ ٠

(٢٠٤) الانسـاب : الورقة ٢٨٦ ٠

(٢٠٥) أنظر : أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص٢٢٤ ، وانبـاه الرواه للقفطي ٣/٣٦١ ٠

(٢٠٦) أنظر : تاريخ بغداد للخطيب ٤/٢٢٨ ـ ٢٢٠ ٠

(٢٠٧) أنظر : المصدر السابق ١/٢٨٨ ٠

(٢٠٨) أنظر : المصدر السابق ٢/٤٨ ٠

مسائل حفظت عنه ، قدم بغداد وحدث بها وكان ثقة مشهورا[٢٠٩] ومحمد ابن جعفر الحمراني السامرى وكان قدم بغداد وحدث بها[٢١٠] ومحمد ابن ادريس السامرى السرخي ، وكانت وفاته سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة[٢١١] ومحمد بن أحمد السامرى وكانت وفاته سنة أربع وعشرين وثلثمائة[٢١٢] واحمد بن الحسن الوراق السامرى ، وكان قد نزل بغداد وحدث بها[٢١٣] واحمد بن علي السامرى ، وكان قد حدث بسامراء وبغداد[٢١٤] ومحمد بن عبدالله بن احمد السامرى الحافظ ، سكن بلاد الشام وحدث بها[٢١٥] وعمر بن عبدالله البزاز السامري ، الذي سكن بغداد وحدث بها ، توفى سنة ثلاث وستين وثلمائة[٢١٦] . وعلي بن احمد المقرىء السامرى المعروف بابن نقيش وكانت وفاته بسامراء سنة احدى وعشرين وثلاثمائة[٢١٨] ومحمد بن احمد الدقاق السامرى[٢١٩]. ومحمد ابن ابراهيم الدقاق السامرى[٢٢٠] ومحمد بن الحسن السامرى[٢٢١] .

---

(٢٠٩) أنظر : المصدر السابق ٤/٨٠ .

(٢١٠) أنظر : المصدر السابق ٢/١٣٦ .

(٢١١) أنظر : الوافي بالوفيات للصفدى ٢/١٨١ .

(٢١٢) أنظر : تاريخ بغداد ١/٣٠٨ .

(٢١٣) أنظر : تاريخ بغداد ٤/٩١ .

(٢١٤) أنظر : تاريخ بغداد ٤/٣١٠ .

(٢١٥) أنظر : تاريخ بغداد ٥/٤٦٠ .

(٢١٦) أنظر : تاريخ بغداد ١١/٢٥٢ .

(٢١٧) أنظر : تاريخ بغداد ١١/٣١٩ .

(٢١٨) أنظر : تاريخ بغداد ١/٣٦٩ . واللباب لابن الاثير ١/٥٤٢ .

(٢١٩) أنظر : تاريخ بغداد ١/٤٠٢ .

(٢٢٠) أنظر : تاريخ بغداد ٢/١٩٩ .

(٢٢١) أنظر : تاريخ بغداد ٢/٢٣٥ .

ومحمد بن الحسين المطبخي الســـامرى[٢٢٢] وعلي بن أحمد بن محمد السامري[٢٢٣] واحمد بن جعفر السامرى اخو ابي بكر الخرايطى[٢٢٤]. واحمد بن الحسين المعدل السامرى[٢٢٥] ومحمد بن عبدالله السامرى[٢٢٦] وابراهيم بن ابي العباس السامرى[٢٢٧] وابراهيم بن محمد السامرى[٢٢٨] وابراهيم بن منصور السامرى[٢٢٩] وسليمان بن عبدالجبار السامرى[٢٣٠] وعمر بن يحيى البزاز السامرى المعروف بابن الفحام[٢٣١] وعلي بن الفضل المحدث السامرى[٢٣٢] ومسلم بن عيسى الصفار السامرى[٢٣٣] والحسن ابن علي بن زياد المحدث « السرى »[٢٣٤] وفاطمة بنت أحمد السامرية[٢٣٥] وتبين لنا مما تقــدم أن أكثــر هــذه الانواع من النســب استعمالا هــي « السامرى » .

---

(٢٢٢) أنظر : تاريخ بغداد ٣/١٦٠ ، ١٠/١٢٦ ، ١١/٢٣٣ .

(٢٢٣) أنظر : تاريخ بغداد ٤/٢٦ .

(٢٢٤) أنظر : تاريخ بغداد ٤/١٠١ .

(٢٢٥) أنظر : تاريخ بغداد ٤/١١٤ .

(٢٢٦) أنظر : تاريخ بغداد ٥/٤٣٨ .

(٢٢٧) أنظر : تاريخ بغداد ٦/١١٦ .

(٢٢٨) أنظر : تاريخ بغداد ٦/١٥٦ .

(٢٢٩) أنظر : تاريخ بغداد ٦/١٨١ .

(٢٣٠) أنظر : تاريخ بغداد ٩/٥٢ .

(٢٣١) أنظر : المصدر السابق ١١/٢٣٩ .

(٢٣٢) أنظر : المصدر نفسه ٣/٢٣١ ، ١٢/٤١ ، ٤٨ ، والقــاموس المحيط ٢/٤٤ .

(٢٣٣) أنظر : المصدر نفسه ١٣/١٠٤ .

(٢٣٤) أنظر : القاموس المحيط ٢/٤٧ .

(٢٣٥) أنظر : تاريخ بغداد ١٤/٤٣٩ ، ٤٤٤ .

وهناك نسبتان آخريان الى هذه المدينة وهما : العسكرى والكرخي •

فالعسكري : نسبة الى العسكر وهو كما مر بنا من اسماء سامراء التي عرفت بها في ابان بنائها من قبل المعتصم • جاء في الوفيات : « والعسكري ـ بفتح العين المهملة ، وسكون السين المهملة ، وفتح الكاف وبعدها راء ـ هذه النسبة الى سر من رأى »[٢٣٦] •

وقد حمل هذه النسبة جماعة من الاجلاء منهم : أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد العسكري[٢٣٧] وابنه الحسن بن علي[٢٣٨] وأبو القاسم محمد بن الحسن العسكري ، وهو المهدي المنتظر[٢٣٩] ، كما حمل هذه النسبة ايضا عدد من الفضلاء كانوا يتميزون برواياتهم في الحديث[٢٤٠] منهم : علي بن سعيد العسكرى ، وعمر بن محمد العطار العسكرى وكان مولده بسامراء وسكن بغداد[٢٤١] وأحمد بن الهيثم البزاز العسكرى ، وقد حدث ببغداد ، وتوفى في سامراء سنة ثمانين ومائتين[٢٤٢] ومحمد بن

---

(٢٣٦) وفيات الاعيان ٣٧٣/١ وأنظر الانساب الورقة ٣٩٠ واللباب لابن الاثير ١٣٦/٢ ـ ١٣٧ •

(٢٣٧) أنظر : وفيات الاعيان ٤٣٤/٢ •

(٢٣٨) أنظر : معجم البلدان ١٢٣/٤ •

(٢٣٩) أنظر : وفيات الاعيان ٣١٦/٣ • ومما تجدر الاشارة اليه ان هناك الآن في سامراء قبتين : احداهما ذهبية ، وتضم ضريحى الامامين : على الهادي والحسن العسكري ، وثانيتهما تقوم على مسجد سامراء الحالي الذي فيه سرداب الغيبة الذي يظن ان المهدي المنتظر قد غاب فيه واختلف في السنة التي اختفى فيها ، كما اختلف في عمره أيضا • أنظر : المصدر نفسه ٣١٦/٣ ويزور هذين الضريحين والسرداب كثير من المسلمين طوال أيام السنة •

(٢٤٠) أنظر الانساب للسمعاني الورقة ٣٩١ •

(٢٤١) أنظر : تاريخ بغداد ٢٣٣/١١ •

(٢٤٢) أنظر المصدر السابق ١٩٢/٥ ـ ١٩٣ •

سهيل بن هارون العسكرى ، وكان مولده في سنة سبع وثلاثين ومائتين ووفاته في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة[٢٤٣] وسليمان بن معروف العسكرى[٢٤٤] وأحمد بن حمدان العسكرى[٢٤٥] .

وأما الكرخي : فهذه النسبة الى الكرخ ، وقد مر بنا انه كان يقع على بعد عشرة أميال شمال سامراء ويسمى كرخ فيروز وكرخ سامراء . وقد نسب اليه طائفة من المحدثين والفقهاء منهم : أحمد بن هارون الكرخي الضرير[٢٤٦] وأحمد بن الوليد الكرخي[٢٤٧] وعباد بن الوليد الغبرى الكرخي[٢٤٨] والشيخ معروف بن الفيرزان الزاهد الكرخي[٢٤٩] وأبو حسن الكرخي[٢٥٠] وأحمد بن الحسين العطار الكرخي[٢٥١] .

أقوال القدامى والمحدثين فيها :

أطرى كثير من المؤرخين والبلدانيين والادباء مدينة سامراء وأشادوا بعظمتها وما كانت عليه من تقدم وازدهار . فقال اليعقوبي في كتاب البلدان : لنذكر الآن « سر من رأى » وأنها المدينة الثانية من مدن خلفاء بنى هاشم[٢٥٢] .

---

(٢٤٣) أنظر الانساب الورقة ٣٩١ .
(٢٤٤) أنظر تاريخ بغداد ٦/٦٠ .
(٢٤٥) أنظر المصدر السابق ٤/١١٥ .
(٢٤٦) أنظر المصدر السابق ٥/١٩٤ ومعجم البلدان ٤/٤٤٩ .
(٢٤٧) أنظر لسان الميزان ١/٣٢٠ ، والانساب للسمعاني الورقة ٤٧٨ واللباب ٣/٣٥ .
(٢٤٨) أنظر معجم البلدان ٤/٤٤٩ .
(٢٤٩) أنظر المصدر السابق ٤/٤٤٩ .
(٢٥٠) أنظر أحسن التقاسيم للمقدسي ص١٢٣ .
(٢٥١) أنظر تاريخ بغداد ٤/١٠٠ .
(٢٥٢) كتاب البلدان ص١٢ .

وقال أيضا : قد ذكرنا بغداد وسر من رأى لانهما مدينتا الملك ودار الخلافة »[٢٥٣] . وقال المسعودي « وسر من رأى آخر المدن العظيمة التي أحدثت في الاسلام[٢٥٤] . وقال الاصطخرى : وسامرا : مدينة اسلامية أبتدأها المعتصم ، وتممها المتوكل ومكثت برهة دار خلافة ، وهواؤها وثمارها أصح من بغداد[٢٥٥] وقال القزويني « سامرا : مدينة عظيمة كانت على طرف شرقي دجلة بين بغداد وتكريت » وقال « وساق (اى المعتصم) من فوره حتى نزل سامرا وبنى بها دارا وأمر بمثل ذلك حتى صارت أعظم بلاد الله بناء وأهلا[٢٥٦] . وقال المقدسي هذا أقليم العراق أقليم الظرفا ومنبع العلما لطيف الماعجيب الهوا .. وقال : أليس به البصره التي قوبلت بالدنيا وبغداد الممدوحة في الورى والكوفة الجليلة وسامرا »[٢٥٧] وقال أيضا « سامراء كانت مقرا عظيما ومستقرا للخلفاء في القديم اختطها المعتصم وزاد فيها بعده المتوكل وصارت مرحلة وكانت عجيبة حسنة حتى سميت سرور من رأى ... »[٢٥٨] وقال الدكتور مصطفى جواد عند الكلام على قبيحة أم المعتز : « ولها في تاريخ الادب العربي أخبار جميلة وفي تاريخ العراق السياسي انباء خطيرة وفي تاريخ سامرا خاصة ذكر مستفيض لانها كانت سيدة من سيدات البلاط العباسي ايام كان البلاط في سامرا فهي في تلكم الايام عاصمة الدولة العباسية وحضرة العالم الاسلامي

(٢٥٣) كتاب البلدان ص٣٣ .
(٢٥٤) التنبيه والاشراف ص٣٠٩ .
(٢٥٥) مسالك الممالك ص٨٥ ـ ٨٦ .
(٢٥٦) آثار البلاد واخبار العباد ص٣٨٥ .
(٢٥٧) أحسن التقاسيم ص١١٣ .
(٢٥٨) المصدر نفسه ص١٢٢ .

وملتقى عظماء الدنيا ومباءة الخلفاء والوزراء والكبراء ، وغاية التجـار والسياح والعلماء والادباء ، ومقر الاحزاب السياسية والقواد والجيوش ومجمع اصناف الناس وسيدة المدن الحديثة(٢٥٩) • وجاء في دائرة المعارف الاسلامية : « وسامراء : اليوم منطقة من الاطلال مترامية الاطراف تقع على الضفة اليسرى لدجلة ••• وتقوم هذه الاطلال على أنقاض كانت من اغنى وأزهر مدائن العصر العباسي انفق على تشييدها أموال طائلة(٢٦٠) •

تأثير بنائها على بغداد :

حين كثرت جيوش المعتصم في بغـداد وكان أغلبهـا من الاتراك ، اخذت تتعرض للاهلين من الضعفاء والمرضى والشيوخ فسقط من جـراء ذلك العديد من القتلى حتى ضاق أهل بغداد بهم ذرعا ، وبلغ بهم الامر ان طلبوا الى الخليفة مغادرة المدينة بعسكره والا حاربوه بسهام الاسحار(٢٦١) ولم يكن يدور في خلدهم ان انتقال الخليفة بعسكره ودواوين دولته الى مدينة أخرى سيؤثر في مدينتهم تأثيرا سيئا ويفقدها الكثير من المميزات الحيوية المهمة • فما كاد المعتصم يتجه الى موضع سامراء ويبنى هنـاك مدينته الجديدة حتى تبعه الناس وأنتقلوا من مدينة السلام ، فكادت ان تخلو من السكان الا اليسير(٢٦٢) فأثر انتقال الخليفة الى سامراء « تأثيرا سيئا في بغداد من حيث التجارة والحضارة »(٢٦٣) • فعظم وقع ذلك على أهل بغداد واندفع الشعراء يؤنبون الخليفة ويعيرونه لفعلته هذه ، فقال أحدهـم :

---

(٢٥٩) سيدات البلاط العباسي ص٧٠ •

(٢٦٠) دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٤ •

(٢٦١) أنظر ص ١٠ ــ ١١ من هذا البحث •

(٢٦٢) أنظر كتاب البلدان لليعقوبي ص٢١ ومروج الذهب ٤/٥٣ •

(٢٦٣) ظهر الاسلام لاحمد أمين ١/٧ •

ايا ساكن القاطول بين الجرامقـه تركت ببغداد الكباش البطارقه[(٢٦٤)]

لقد شعر أهل بغداد بالخطب الفادح الذي حل بمدينتهم حتى لنجد دعبلا الشاعر يرى ان بغداد اصيبت بداهية فغاب عنها سرور الملك وأبهة الخلافة فصب جام غضبه على سامراء ، وهجاها وتمنى لها الخراب والزوال، فقـال :

بغـداد دار الملـوك كـانت حتـى دهاهـا الـذي دهاهـا
ما غـاب عنهـا سـرور ملك عـاد الى بلـدة سـواها
ما سـرّ من را بسـر من را بـل هـي بُوْسـى لمن يراهـا
عجـل ربـي لهـا خرابـاً برغم أنف الـذي بناهـا[(٢٦٥)]

مدحها وذم بغـداد :

وكان من الطبيعي ان تظهر حركة معاكسة ، تناهض شعراء بغـداد وتذب عن هذه المدينة الجديدة فانبرى لذلك عدد من الشعراء ينظمون في محاسن سامراء وبهائها ، ويسبغون عليها كل صفات الجمال وآيات الكمال، فاذا بها كاعب حسناء ، وحرة زهراء ، واذا ببغداد عجوز شمطاء ، يدب الفناء في جسمها ، وتبدو الدمامة في شكلها ، وعلى حين نجد سامراء بلـد المسرة والفتوح ومقر الملك والعمران ، اذا ببغداد دار الهدم والخراب ، وموئل اليأس والقنوط ويخيل الينا ان هذا التنافس بين المدينتين نسـيج وحده ، فليس هناك صراع بين مدينتين ـ فيما نظن ـ بلـغ من الشـدة والعنف ما بلغه الصراع بين بغداد وسامراء • وهذا التناحر بين المدينتين

---

(٢٦٤) مروج الذهب ٤/٥٣ • الجرامقة : جيل من الناس • الكباش: جمع كبش وهو رئيس القوم وسيدهم • البطارقة : جمـع بطريق وهـو القائد والحاذق بالحرب وأمورها •

(٢٦٥) ديوان دعبل ص٢٠٥ ــ وانظر النبراس في تاريخ بنى العباس ص٦٥ •

ـ فيما نحسب ـ يمثل ضربا من ضروب الصراع السياسي القائم آنذاك • وقد لا نخطىء اذا ما زعمنا ، انه صراع بين العنصر العربي ـ الذي أبعده المعتصم ـ من جهة ، وبين العنصر التركي الجديد ـ الذي قربه الخليفة ، من جهة أخرى ! •

ويقال ان أول شعر قيل في مدحها قول خالد الكاتب :

عـزم السـرور عـلى المقـا م بســر من را للامــام
بلــد المســرّة والفتــو ح المســتنيرات العظــام
وتــراه أشــبه منــزل في الارض بالبيت الحــرام
فــالله يعمــره بمــن أضـحى بـه عز الانام(٢٦٦)

وقولــه :

بين صـفو الزمــان عن كـدره في ضـحكات الربيع عن زهــره
يا ســر من را بوركت من بلــد بـورك في نبتــه وفي شــجره
غـرس جـدود الانام نكبتهــا بابـك والمازيــار من ثمــره
فالفتــح والنصـر ينزلان بـــه والخصب فيتربه وفي شجره(٢٦٧)

---

(٢٦٦) الاغاني ٢١/٣١ •

(٢٦٧) المصدر نفسه ٢١/٣١ •ومن الجدير بالذكر ان الاصفهاني يقول في معرض ترجمته لخالد الكاتب : « ثم صحب الفضل بن مروان فذكره للمعتصموهو بالماحوزة قبل ان يبني سر من رأى ، فقال خالد (عــزم السرور ••• الابيات) فاستحسنها الفضل بن مروان واوصلها الى المعتصم قبل ان يقال في بناء سر من رأى شيء فكانت أول ما أنشد في هذا المعنى من الشعر فتبرك بها وامر لخالد بخمسة آلاف درهم » • فالنص المتقــدم يشير الى ان خالدا قال الابيات قبل ان تبنى سامراء • بيد ان الابيات تشير بوضوح الى ان المدينة كانت قائمة حتى ان الشــاعر جعلها بلد المســرّة والفتوح العظام ، بل وشبهها ، بالبلد الحرام ، ولا يمكن ان يفسر قولــه هذا لمدينة غير قائمة ! ولعل ما يؤيد هذا ما قاله ابو الفرج نفسه في اعقاب

ومن ذلك قول محمد بن عبدالملك الزيات :

الآن قـام عـلى بغـداد ناعيهـا
فليبكهـا لخـراب الدهـر باكيهـا

كـانت عـلى ما بهـا والحرب باركـة
والهـدم يغـدو عليهـا فـي نواحيهـا

ترجـى لها عودة في الدهـر صـالحة
فالآن أضـمر منهـا اليأس راجيهـا

مثـل العجـوز التـي ولت شـبيبتها
وبـان منهـا جمـال كـان يحظيهـا

لـزت بهـا حـرة زهـراء واضـحة
كالشـمس مكسـوة درا تراقيهـا(*)

الخبر السابق من ان اليوسفي صاحب الرسائل ذكر ان خالدا قال ايضا في ذلك :

بين صفو الزمان عن كدره (الابيات) » • وابياته هذه تشير بوضوح ايضا الى ان نكبة بابك والمازيار كانت في هذه المدينة بعد تشييدها • وانظر ص٦١ – ٦٢ من هذا البحث •

(*) ديوان ابن الزيات ص٩٦ • ومما تنبغي الاشارة اليه ان هـذه الابيات رويت لابي تمام مع اختلاف في بعض الالفاظ • انظر ديوان أبي تمام ص٤٦٢ • والمصدر نفسه ٤/٤٣٨ شرح التبريزي• الباركة : الثابتة، القائمة • أضمر : اخفى • لزه : شده والصـقه ، اي ان سـامراء غـدت ملاصقة لها لا تدعها • ويخيل الينا انها – في نظمها واسلوبها – اقرب الى شعر ابن الزيات من شعر الطائي •

ومنه قول الحسين بن الضحاك :

علـى سـر من را والمصـيف تحيـة
مجللـة مـن مغـرم بهواهمـا

الاهـل لمشـتاق ببغـداد رجعـة
تقـرب من ظليهمـا وذراهمـا

محـلان لقّـى الله خـير عبـاده
عزيمـة رشـد فيهمـا فاصطفاهمـا

وقـولا لبغـداد اذا مـا تنسـمت
علـى اهـل بغـداد جعلت فداهمـا

أفـي بعض يوم شـف عينـي بالقـذى
حرورك حتـى رابنـي ناظراهمـا ؟(٢٦٨)

وقوله ايضـا :

سـر من را أسـر من بغـداد
فآلـه عن بعض ذكرهـا المعتـاد

حبـذا مسـرح لهـا ليس يخلـو
أبـداً من طريـدة وطـراد(**)

ومنه ايضا قول فضل الشاعرة من قصيدة تمدح بها المعتصم :

ان الامـام اذا أرفـا الى بلـد ... أرفا اليـه بعمـران وايـناس
اما ترى الغرس قد جاءت اوائلـه ... والعود نضر الذرا مستورق كاسي

---

(٢٦٨) معجم البلدان ٣/١٧٦ .
(**) معجم البلدان ٣/١٧٦ .

فاصبحت سر من را دار مملكة مختلطة بين أنهار وأغراس(٢٦٩)

واستمر التنافس بين سامراء وبغداد على أشده حتى بعد ان مضى على انشاء الاولى عشرات السنين ، وحتى بعد ان دب فيها الخراب • وكان عبدالله بن المعتز السامرائي المولد والمنشأ حامل هذا اللواء والمتحمس له ، فلم يأل جهدا في الذب عن مدينته واظهار محاسنها وجمالها ، وما كانت عليه من الابهة والسلطان ، وصب جام غضبه على بغداد ، ونعته لها ولاهلها بكل ما هو قبيح ومذموم ، قال يمدح مدينته سامراء ويذم بغداد :

هانيك دار الملك مقفرة ما ان بها من أهلها شخص
عهدي بها والخيل جائلة لا يستبين لشمسها قرص
واذا علت صخراً حوافرها غادرنه وكأنها دعص(٢٧٠)
والملك منشور الجناح ولم يهتك قوادم ريشه القص
ينشق منه الجمع عن قمر ما في تكامل حسنه نقص
أخذت يداه الملك ممتلياً حزماً وعود شبابه رخص
ومعاشر وجدوا مشيئتهم وبما تحب نفوسهم خصوا
طيب التحية حيث قمت لهم فهم الألى حيوك واختصوا
فمضى بذاك العيش آخره والهم مما سر مقتص
والدهر يخبط اهله بيد في كل جارحة له قرص
أفما ترى بلداً أقمت به أعلى مساكن أهله خص(٢٧١)

---

(٢٦٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢٣ • ارفا : ادنا •

(٢٧٠) في ديوان ابن المعتز طبع القاهرة سنة ١٨٩١ وكأنه وهو الصواب •

(٢٧١) الخص : بالضم : البيت من القصب أو البيت يسقف بخشبة •

وولاتـــــه نبـــط زنادقــــــة ملأى البطون واهلها خمص[٢٧٢]
ولهـم مســـالح يسـلحون بهـــا لا يتقـي ســـطواتها اللص[٢٧٣]
اســــيافها خشـــب معلقـــة مصـــنوعة وقرابهـــا جـــص
وجنودهـــم تحمـــي رعيتهـــم ولهـــم عـــلى أكبادهـــم رقص
غلبـــت خيـــانتهم امانتهـــم وطغـــى عـلى تقواهـم الحرص
نشــــباكهم في كـــل رابيــــة ولهم بكل قـــرارة شـــخص[٢٧٤]
وأمـــيرهم متقـــدم بهـــــم نحـــو الحـــرام وسـيره نص[٢٧٥]
واذا بـــدا أفـدى الزمـان بـــه وســـط الخميس كأنـــه دلـص
وكأن خل الخمـر يعصـــر من وجناتـــه أو يجتنـــى العفص[٢٧٦]

ولم يكتف ابن المعتز بالشعر في مهاجمة بغداد وتفضيل مدينته عليها ، بل لجأ كذلك الى النثر فكتب رسالة بعث بها الى احد اصدقائه ، صور فيها حالة سامراء بعد ان مشى فيها الخراب ، كما صور حالتها في ايام عزهـا ، وما كانت تزخر به من جيوش عظيمة والمع الى من كان يصرف أمر المملكة، ولعله كان يقصد اباه المعتز الذي قتله الاتراك في عز شـبابه ، ولم ينس ان

---

(٢٧٢) خمص : الاصل خمص ، بضـم الخاء والميم وسـكن الميم للضـرورة •

(٢٧٣) المسالح : جمع مسلحة وهـي كالثغر والمرقب يكون فيـه اقوام يرقبون العـدو لئلا يطرقهم على غفلـة فاذا رأوه اعلموا أصحابهم ليتأهبوا له •

لا يتقى سطواتها : يقال اتق سطوته : اى أخذته •

(٢٧٤) القرارة : المطمئن من الارض •

(٢٧٥) النص : السير الشديد •

(٢٧٦) انظر ديوان المعتز ص١٩٢ وانظر : اشـعار اولاد الخلفـاء للصولى ص١٣٧ •

يذم بغداد وأهلها ، بكل ما أوتي من الفاظ الهجاء قال : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها •• بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرار الملك تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم أردية السيوف وغلائل[277] الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول على خيل تأكل الارض بحوافرها وتمد بالنقع سائرها قد نشرت في وجوهها غررا[278] كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة المجين • ونوّطت عذرا كالشنوف[279] ، في جيش يتلقف الاعداء اوائله ولم ينهض آخره • وقد صب عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب جلالا ، لا تخلف مخيلته ولا تنقض مريرته[280] ، ولا يخطى بسهم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب قابضا بيد السياسة على أقطار ملك لا ينتشر حبله ولا يتشظّى عصاه ولا تطفى جمرته في سن شباب لم يجن مأثما وشيب لم يراهق هرما[281] • قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته راجما بالعواقب الظنون ، ولا يطيش عن قلب • فاضل الحزم بعد العزم ، ساعيا على الحق يعمل به ، عارفا بالله يقصد اليه ، مقرا للحلم ويبذله ، قادرا على العقاب ويعدل فيه اذ الناس في دهر غافل قد اطمأنت بهم سيرة لينة الحواشي خشنة المرام ، تطير بها اجنحة السرور ، ويهب فيها نسيم الحبور • فالاطراف على مسرة ، والنظر الى مبرة • قبل ان تخب

---

(٢٧٧) الغلائل : الدروع أو بطائن اتلبس تحتها •

(٢٧٨) الغرر : جمع غرة : وهي بياض في الجبهة •

(٢٧٩) نوطت : علقت ، عذر : جمع عذار وهو ما سال من اللجام على خد الفرس • الشنوف : جمع شنف : وهو القرط الاعلى •

(٢٨٠) المخيلة : السحابة والظن • النقض ضد الابرام • المريرة : الحبل الشديد الفتل •

(٢٨١) يراهق : يقارب •

مطايا الغير وتسفر وجوه الحذر[٢٨٢] • وما زال الدهر مليئا بالنوائب ، طارقا بالعجائب ، يؤمن يومه ويغدر غده • على انها وان جفيت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر[٢٨٣] ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنيء وشرابها مريء وتاجرها مالك ، وفقيرها فاتك ، لا كبغدادكم الوسخة السماء ، الومدة الهـــواء[٢٨٤] ، جوها نار وارضـها خبار[٢٨٥] وماؤها حميم ، وترابها سرجين[٢٨٦] وحيطانها نزوز وتشرينها تموز[٢٨٧] ، فكم من شمسها من محترق ، وفي ظلها من غرق ، ضيقة الديار قاسـية الجوار ، ساطعة الدخان قليلة الضيفان ، اهلها ذئاب ، وكلامهم سـباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم ، لا يجوز انفاقـه ولا يحل خناقـه ، حشوشهم مسايل[٢٨٨] ، وطرقهم مزابل ، وحيطانهم اخصاص ، وبيوتهم اقفاص[٢٨٩] •

---

(٢٨٢) الخبب : نوع من السير •

(٢٨٣) مسك اذفر : جيد الى الغاية •

(٢٨٤) الومدة : الحرارة الشديدة •

(٢٨٥) الخبار : ما استرخى من الارض وتحفر •

(٢٨٦) الحميم : الماء الحار • السـرجين والسـرقين : بكسـرهما : الزبل • معرّبا سركين بالفتح •

(٢٨٧) النزوز : جمع نز : وهو ما يتحلب من الارض من الماء •

(٢٨٨) الحشوش : جمع حش ، وهو البستان حيث تقضى الحاجات فيه •

(٢٨٩) معجم البلدان ٣/٧٧ ـ ١٨٧ الاخصاص : جمع خص : وهو البيت من شجر أو قصب يسقف عليه بخشب •

الفصل الاول

أهميتهــــا :

بنيت سامراء كما قدمنا لاسباب خاصة واختير موضعها لاسباب خاصة كذلك ونزيد هنا فنقول : ان سامراء لم تبن لتكون متنزها أو مقرا خاصا للخليفة كما يظن بعضهم[1] وانما ابتنيت لتكون حاضرة لاكبر امبراطورية في عصرها • حاضرة لها من المقومات ما يجعلها في مصاف أكبر المدن واعظمها في الوقت الذي انشئت فيه • بل تهيأ لها من العوامل الطبيعية والمناخية والجغرافية ما فضلها على غيرها من المدن الاسلامية الكبرى ولا سيما بغداد[2] •

والواقع ان سامراء استطاعت في غضون الحقبة التي مكثت فيها عاصمة للخلافة ان تحتل مركز بغداد في كل شيء : في السياسة والتاريخ والعمران والفن والعلم والادب واستطاعت ان توقف حركة بغداد بل وتشلها في جميع هذه المجالات • كما تهيأ لها أن تمد بعض المدن الاسلامية ـ ومنها بغداد بما اشتهرت به من ـ نماذج رائعة في البناء وعناصر خلابة من الفنون وحرى بنا الآن ان نشير ـ موجزين ـ الى أهمية سامراء العمرانية والفنية والسياسة والتأريخية ، على ان نرجىء الكلام على أهميتها العلمية والادبية وما زخرت به من قصور فخمة وما قام به الادب من تسجيل لهذه المباني الى فصول قادمة :

أهميتها العمرانية والفنية :

اشتهرت سامراء على الرغم من عمرها القصير بعماراتها الضخمة ،

---

(١) انظر ص٩ من هذا البحث •

(٢) انظر ص ١٢ ـ ١٤ من هذا البحث •

وقصورها الفخمة ، ومساجدها الفسيحة ومآذنها الشاهقة ، وقد وصفت لنا كثير من المصادر عظمة قصور هذه المدينة وروعة عمائرها[٣] كما وصفت لنا المراجع الحديثة طريقة بناء قصورها وبيوتها وما كانت تشتمل عليه من باحات وصحون ، وأروقة وحمامات ، ومجارٍ وسراديب • وما كانت تزين به هذه الدور من الزخارف والنقوش وما تتحلى به شبابيكها من الزجاج المتنوع الالوان[٤] •

ولا شك في ان العوامل التي تهيأت لهذه المدينة كان لها أكبر الاثر في ازدهارها عمرانيا وفنيا[٥] : وان توافد الفنانين المهرة من مختلف البلدان اليها ، وما كانوا يلقونه من تشجيع الخلفاء واكرامهم من أهم العوامل في روعة عمرانها وتقدمها الفني اذ التقى فيها الفن اليوناني والفن السرياني القبطي والفن الهندي الفارسي وكانت سامراء البوتقة التي انصهرت فيها هذه الفنون جميعها وبزغ من ذلك فن جديد هو الفن الاسلامي[٦] وتعد سامراء المدينة العباسية الاولى في كثرة الآثار من قصور ومساجد ، كما تعد مصدرا مهما لتاريخ الفنون الاسلامية ولا تكاد تضاهيها في هذا مدينة اخرى حتى بغداد نفسها[٧] • ويحق لنا ان نتساءل هنا اذا كانت سامراء بوتقة

---

(٣) سنشير الى هذه المراجع عند الكلام على قصور سامراء في فصل قادم •

(٤) انظر الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٢/٢٠٣ ـ ٢٠٤ ، ودائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٥ ـ ٨٧ •

(٥) أنظر ص ١٨ ـ ١٩ من هذا البحث •

(٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٧ وتاريخ اليعقوبي ٣/٢٠٦ وفنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن ص١٣ •

(٧) انظر : مجلة سومر ١/١١ مقالة للمستر سيتون لويد المشاور الفني لمديرية الآثار القديمة في العراق ، عدد كانون الثاني ١٩٤٥ ، وفنون الاسلام ص٥٩ •

التقت فيها فنون مختلفة لامم متعددة ، فهل كان لهذه المدينة أثر في غيرها من المدن الاسلامية ؟ تحدثنا المراجع ان لهذه المدينة أثرا لا ينكر في غيرها من المدن فيما يخص ناحيتي العمارة والفنون • فمما يروى ان المتوكل قد أحدث بناء لم يكن الناس يعرفونه يسمى « الحيرى » وصار متبعا في القصور الكبيرة ، فصار يبنى لها مقدم أو ثلاثة اجزاء أوسطها الباب الاكبر ، والى جانبيه البابان الصغيران ويسميان « الكمين » وقد اتبع الناس المتوكل ائتماماً بفعله ، حتى أشتهر هذا البناء[٨] فانتقل هذا الطراز الى قصر التاج الذي بنى في بغداد بعد ذلك باربعين سنة ، كما نقل ابن طولون هذا الطراز الى قصره في مصر ايضا[٩] وبنى ابن طولون مسجده في مصر على غرار ونمط المسجد الجامع في سامراء ، كما نقل صورة مئذنته عن مئذنة المسجد الجامع فيها[١٠] وجاء في كتاب تراث الاسلام عند الكلام على جامع ابي دلف ما نصه • وفي مسجد ابي دلف على مقربة من سامرا يظهر في القوس ذلك الانحناء الذي أصبح ميزة للعمارة الاسلامية فيما بعد »[١١] • وكان طبيعيا ان يرافق هذا الازدهار العمراني فن الزخرفة والتصوير ، وكشفت لنا الحفريات التي أجريت في سامراء ، الكثير من الزخارف والصور التي تحلت بها قصور الناس ومنازلهم والتي تدل على عظم تقدم الفن في هذا العهد • ومما هو جدير بالملاحظة ان الفنانين في سامراء كانوا يستوحون في نقوشهم وصورهم ما يرونه في بيئتهم من صور الحيوان والنبات

---

(٨) أنظر : الحضارة الاسلامية ٢/٢٠٧ •

(٩) أنظر : المصدر السابق ٢/٢٠٨ •

(١٠) أنظر : الخطط للمقريزي ٤/٣٦ ، وحسن المحاضرة للسيوطي ٢/١٨١ •

(١١) تراث الاسلام : ترجمة الدكتور زكي محمد حسن ٢/١٣٣ •

والراقصات وما الى ذلك[١٢] ومما برع فيه فنانو سامراء في تلك الحقبة صناعة الخزف ذي البريق المعدني المزين بالزخارف المتنوعة • ويرى بعض الدارسين ان هذا النوع من الخزف كان منشأه في سامراء • وكشفت التنقيبات في هذه المدينة عن قطع كثيرة من هذا النوع وكان على بعضها اسماء الاشخاص الذين صنعوها[١٣] • وكان طبيعيا ان تنتقل هذه الفنون الى البلدان الاخرى وخاصة مصر ، ويتجلى ذلك في الزخارف التي زين بها جامع احمد بن طولون بصورة خاصة[١٤] •

أهميتها السياسية والتاريخية :

عرفنا فيما مضى ان من أسباب اتخاذ الخليفة المعتصم سامراء عاصمة لملكه الواسع كثرة جيوشه من الاتراك حتى ضاقت بهم بغداد على رحبها • وقد اختلف المؤرخون في عدد افراد هذه الجيوش ، حتى قيل ان عددها بلغ مائتين وخمسين الف جندي ، وعدد الخيول (١٦٠) مائة وستين الف حصان بين ابلق وادهم[١٥] وانتقال هذا الجيش الضخم الى المدينة الجديدة ، يعني ــ بطبيعة الحال ــ انتقال المركز السياسي للدولة اليها كليا ، وهذا ما حدث بالفعل ، فبعد ان كانت بغداد المركز الرئيس الذي تدار

---

(١٢) أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ٥/٣٠٠ ، ١١/٨٦ ــ ٨٧ ، ١٤/٣٧٦ •

(١٣) أنظر : دائرة المعارف ٨/٣١٦ ، وتراث الاسلام ٢/٤٠ ، ٤٥ ، وفنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن ص٢٦٠ ومجلة سومر ٢٠/١٠٧ مقالة للدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق استاذ الفنون الاسلامية بجامعة بغداد •

(١٤) انظر : سامراء لمديرية الآثار القديمة ص٤١ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٨/٣٢٣ •

(١٥) أنظر : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد أمير علي ص٢٤٣ ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي مخطوط بدار الكتب ٦/٣٣٢ •

منه الحركات العسكرية والحربية ، انتقل هذا الامر الى سامراء فاصبحت مركزا لجميع العمليات الحربية ومنطلقا للجحافل الاسلامية ، لاخماد الاضطرابات الداخلية[١٦] أو فتح الحصون والقلاع الرومانية ، واليها كان يرسل الخارجون على القانون[١٧] وتفد الوفود من الروم ، وفيها كان يلقى المتمردون والثائرون مصيرهم المحتوم من قتل وصلب وتشهير[١٨] ..
ومن الحوادث المشهورة والوقائع المعروفة في التاريخ خروج بابك الخرمي على الدولة العباسية ، وقتله في غضون عشرين سنة أكثر من ربع مليون شخص[١٩] واستطاع المعتصم بعد حروب طاحنة ومعارك دامية ، ان يظفر به ، فحمل الى سامراء وقتل بها . ووصف لنا الطبري كيفية قدوم بابك بمعية الافشين قائد المعتصم المشهور ، وما أعد لاستقبال هذا الثائر المتمرد فقال : « ذكر ان قدومه عليه به كان ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر بسامرا ... فلما كان من غد قعد له المعتصم يوم اثنين أو خميس ، واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة ، واراد المعتصم ان يشهره ويريه الناس فقال : على اى شيء يحمل هذا وكيف يشهر ؟ فقال حزام : يا امير المؤمنين لا شيء أشهر من الفيل فقال : صدقت فأمر بتهيئة الفيل وأمر به فجعل في قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة وهو وحده فاستشرفه الناس من المطيرة الى باب العامة ... ثم قتل[٢٠] وقال « ... ووجه برأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرا عند العقبة فموضع خشبته مشهور... »[٢١].

---

(١٦) أنظر مثلا : تاريخ الطبري ٢١٤/١١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(١٧) أنظر : المرجع السابق ٢٢٣/١١ ، ٢٢٤ .
(١٨) أنظر : المصدر السابق ٢٢٧/١١ .
(١٩) أنظر : المصدر نفسه ٣٣٣/١٠ .
(٢٠) أنظر : تاريخ الطبري ٣٣٢/١٠ .
(٢١) أنظر : المصدر نفسه ٣٣٣/١٠ .

ومن الثائرين الخارجين على الخلافة العباسية المازيار بن قارن ، حيث تمرد في طبرستان على المعتصم في سنة اربع وعشرين ومائتين ، وبعد حروب ومعارك تمكن المعتصم من الظفر به ، فحمل الى سامراء وصلب الى جوار بابك[٢٢] .

ويعد أشهر عمل حربي قام به المعتصم بعد قضائه على بابك هو غزوه عمورية وفتحها واحراقها وأسر « باطس » أحد كبار الروم وصلبه في سامراء . ويحدثنا المؤرخون عن هذه الغزوة وما هيء لها من العدة والعدد ، فيقول الطبري :

« وفي هذه السنة اي (٢٢٣) شخص المعتصم غازيا الى بلاد الروم ، وقيل كان شخوصه اليها من سامرا في سنة (٢٢٤) وقيل في سنة (٢٢٢) بعد قتله بابك »[٢٣] ويقول : « فذكر انه تجهز جهازا لم يتجهزه مثله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ... »[٢٤] وقيل : « انه توجه الى عمورية في سبعين الف ابلق »[٢٥] واكثر من ثلثمائة الف رجل[٢٦] ومن المتمردين المشهورين علي بن محمد صاحب ثورة الزنج الذي ظهر في منطقة البصرة سنة (٢٥٥هـ) في خلافة المعتمد فقتل ودمر وخرب زهاء اربع عشرة سنة

---

(٢٢) أنظر : المصدر نفسه ١٠/٣٤٨ .

(٢٣) أنظر : المصدر نفسه ١٠/٣٣٤ .

(٢٤) أنظر : المصدر نفسه ١٠/٣٣٥ .

(٢٥) أنظر : مختصر اخبار الخلفاء ص٣٠ مخطوط بمكتبة المتحف العراقي رقم ١٦٤٧ تأليف ابن الساعي البغدادي . وانظر : مآثر الانافة للقلقشندى ١/٢٢١ ، ومحاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لابن العربي حيث اشار الى ان المعتصم تجهز الى عمورية في اثنى عشر الف فرس ابلق ٢/٤٨ .

(٢٦) أنظر : النبراس في تاريخ بنى العباس ص٦٣ .

فأرسل اليه المعتمد أخاه ابا احمد الموفق من سامراء بجيش لجب كثيف ، لم ير احسن منه عدة ، ولا اكمل سلاحا ، ولا أكثر عددا وجمعا ، وبعد حروب طاحنة ، ومعارك رهيبة ، تمكن الموفق منه ، ففل جمعه وقضى على تمرده[٢٧] وشارك الادب ـ كعادته في تسجيل هذه الحوادث ـ ولا سيما الشعر • فقال محمد بن عبدالملك الزيات يصف بابك وهو محمول على الفيل :

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب اعضاؤه ... الا لذى شأن من الشان[٢٨]

وقال ابو تمام حين جاء الافشين ببابك الى سامراء :

بذ الجلاد البذ فهو دفين ... ما ان به الا الوحوش قطين
لم يقر هذا السيف هذا الصبر في ... هيجاء ، الا عز هذا الدين
قد كان عذرة سؤدد فافتضها ... بالسيف فحل المشرق الافشين[٢٩]

وقال ايضا يصف صلب بابك ومازيار وباطس « بطريق عمورية » :

ولقد شفى الاحشاء من برحائها ... أن صار بابك جار مازيار
ثانيه في كبد السماء ولم يكن ... لاثنين ثان اذ هما في الغار
فكأنما انحنيا لكيما يطويا ... عن (باطس) خبرا من الاخبار[٣٠]

وقال البحتري من قصيدة يصف بها صلب بابك :

---

(٢٧) أنظر : تاريخ الطبري ١١/١٧٤ ـ ٣٢٨ •

(٢٨) أنظر : المصدر السابق ١٠/٢٣٢ •

(٢٩) أنظر : المصدر نفسه ١٠/٣٣٤ وانظر ديوان ابي تمام شرح التبريزي ٣/٣١٦ والافشين من أكبر قواد المعتصم • بذّ : سبق وغلب •

(٣٠) أنظر : مروج الذهب ٤/٦١ •

ما زلت تقرع بـاب بابك بالقنـا وتـزوره فـي غـارة شـعواء
حتـى أخذت بنصل سـيفك عنوة منـه الذي اعيـا على الامـراء
أخليت منـه البـذ وهـي قـراره ونصـبته علمـاً بسـامراء
لم يبق فيـه خوف بأسـك مطمعاً للطير فـي عـود ولا ابـداء
فتـراه مطـردا عـلى أعـواده مثـل اطـراد كواكب الجـوزاء
مستشـرفاً للشـمس منتصـباً لهـا في أخريات الجذع كالحرباء(٣١)

وقال علي بن الجهم مشيرا الى صلب بابك والمازيار وفتح عمورية :

نصـبت المازيار عـلى سـحوق وبابك والنصـارى فـي نظـام
وعموريـة ابتـدرت اليهـا بوادر من عزيـز ذي انتقـام(٣٢)

كما اشار ابن الزيات الى مثل هذا في قصيدة طويلة له نجتزيء منها بقولـه :

وسـقيت بابك كأس حتف مـرة بفوارس سـحبوا القنـا يتلونـه
والى عموريـة سـما في جحفـل ملأ الفجـاج سـهوله وحزونـه
فأبـاد سـاكنها وحجل باطسـاً حلقـاً ، اذل الله من يحوينـه
والمازيـار ، وقـد تقلد غـدرة قطعت نيـاط فؤاده ووتينـه(٣٣)

وكثيرا ما كان الشعراء يصفون مواكب خلفاء بني العباس في سامراء ، وما كانت تموج به من الفرسان والاسـلحة ، وما كـان يرافق ذلك من خروج الناس لاستشراف تلك المواكب والتطلع الى رؤية الخليفة • من ذلك قول البحتري في وصف موكب الخليفة المتوكل في عيد الفطر :

---

(٣١) ديوان البحتري ٢/٣٨٣ •
(٣٢) ديوان ابن الجهم ص٩ـ١٠ • السحوق من النخل : الطويلة •
(٣٣) أنظر : ديوان ابن الزيات ص٩٠ ـ ٩٣ وانظر ص٤٧ ، ٦١ من المصدر نفسه •

بالبرصـمت وانت أفضـل صائم ... وبسـنة الله الرضـية تفطـر

فانعم بيـوم الفطر عينـاً ، انـه ... يـوم أغـر من الزمان مشـهر

أظهرت عـز الملك فيـه بجحفل ... لجب يحـاط الدين فيـه وينصـر

خلنا الجبال تسير فيه ، وقد غدت ... عـددا يسـير بها العديد الأكثـر

فالخيل تصـهل ، والفوارس تدعى ... والبيض تلمـع ، والأسنة تزهـر

والارض خاشـعة تميد بثقلهـا ... والجـو معتكرا لجوانب ، أغبـر

والشـمس ماتعة ، توقد بالضـحى ... طـورا ، ويطفئها العجـاج الأكدر

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجـى وانجـاب ذاك العثير

ورنا اليـك الناظرون ، فاصبع ... يومـا اليك بهـا ، وعين تنظـر

يجـدون رؤيتك التـي فازوا بهـا ... من انعـم الله التي لا تكفـر(٣٤)

وقال ايضا يصف احد مواكب الخليفة المهتدى ، وفيه تصوير كذلك لما كان عليه ذلك الموكب من العدة والسلاح ، ولما كان يظهر على وجـوه الناس من الغبطة بالخليفة والهيبة له :

زين الـدار مشـهد منك كـانت ... قبـل ترضـاه من ابيك الـدار

وانـارت لمـا ركبـت اليهـا ... والموالى الحمـاة ، والانصـار

فـي جبـال مـاج الحديد عليـ ... ـهن ضحى ، مثلمـا تموج البحار

وغـدا الناس ينظـرون ، وفيهـم ... فـرح ان يـروك واستبشـار

وعليهـم سـكنية لـك الا ... مـد ايـد يومـا بها ويشـار(٣٥)

كما كان الكثير من وفود الروم وغيرهم يفد الى هذه المدينة للمثول بين ايدى خلفائها للتفاوض معهم أو تقديم الولاء والطاعة لهم • وقد وصف

---

(٣٤) ديوان البحتري ٢٤/١ • ماتعة : مرتفعة • العثير : الغبار •
(٣٥) ديوان البحتري ١٢٣/١ •

لنا البحتري وفدا من وفود الروم قدم الى سامراء في عهد الخليفة المتوكل ، فقـــال :

ورأيت وفـد الـروم بعد عنادهـم ... عرفـوا فضـائلك التـي لا تجهل
لحظوك أول لحظـة ، فأستصفروا ... من كـــان يعظم فيهـم ويبجـــل
احضـرتهم حججاً لو اجتليت بها ... عصـم الجبـال ، لا قبلت تتنـزل
ورأوك وضـــاح الجبين كما يرى ... قمـــر السماء السـعد ، ليلة يكمل
نظروا اليك ، فقد سوا ، ولو انهم ... نطقـوا انفصـيح لكبرّوا ولهللوا
حضروا السماط،فكلما راموا القرى ... مالت بأيديهم عقـول ذهـــل[٣٦]
تهـوي أكفهـم الى افواههـــم ... فتحيـد عن قصـد السبيل وتعدل
متحـــيرون فبـــاهت متعجـــب ... ممـــا رأى ، أو ناظـر متأمـــل
ويـود قومهـم الالى بعثـوا بهـــم ... لو ضـمهم بالامس ذاك المحفـــل
قد نافس الغيب الحضور على الذي ... شهدوا،وقد حسد الرسول المرسل
عجلت رفدهـم ، وأفضـل نائـل ... حبى الوفود به الهنيء الاعجل[٣٧]

كما وصف وفود بني تغلب الذين حضروا الى سامراء ليقدموا فروض الولاء والطاعة للخليفة المتوكل الذي صفح عنهم بعد ان خرجوا عليـــه وحاربوا جيوشـه فقال :

أتوك وفود الشـكر يثنون بالـذي ... تقـــدم من نعماك عندهـم قبـــل
فلم أر يومـا كـان أكثر سـؤددا ... من اليوم ضـمتهم الى بابك السبل
تراءوك من اقصى السماط فقصروا ... خطاهم،وقد جازوا الستور،وهم عجل
فلما قضوا صـدر السماط تهافتوا ... على يـــد بســـام سجيته البـذل

---

(٣٦) السماط : صف الجنود بين يـدي الملك ٠ وسـماط الطعام : ما يبسط ليوضع عليه والثاني هو المراد في هذا الموضع ٠

(٣٧) ديوان البحتري ١/٣١ وانظر ص١٦٠١ ـ ١٦٠٢ من طبعـة الصيرفي ٠

اذا شـــرعوا في خطبـــة قطعتهـــم
جلالـة طلق الوجــه جانبـه سـهل

اذا نكسـوا أبصـــارهم من مهابـة
ومالـوا بلحظ ، خلت أنهـم قبـــل

نصـبت لهم طرفـاً حديـداً ومنطقـاً
سـديداً ، ورأياً مثل ما انتضى النصل

وسـل سخيمات الصدور فعالك الـ
ـجميل ، وأبرا غلهـا قولك الفصـــل

فمـا برحوا حتـى تعـاطت اكفهـم
قراك ، فلا ضغن لديهم ولا ذحـــل

وجروا برود العصب تضفو ذيولهـا
عطاء جـــواد ما تكـاءده البخل(٣٨)

والبحتري في وصفه لهذه الوفود كان بارعا في تصوير ما كان يجري في تلك المناسبات • ففي المثال الاول صور لنا الوفد الرومي الذي قـدم الى حاضرة الخلافة ، وبيّن ما اعدّ له من أبهة واحتفاء ، حتى بان ذلك على وجوه اعضاء الوفد ، وتملكتهم الدهشـــة والحيرة ـ اكبارا واعظاما ـ لما رأوه ، وأشطّ الخيال بالشاعر أو قل المبالغة فادعى بان الغيب من الروم حسدوا الحضر منهم في هذا الاحتفال ، وودوا لو شاركوهم فيما هم فيه • ويبدو ان امثال هذه الوفود ، كانت تحصل ـ كما في ايامنا هذه ـ عـــلى الهدايا من لدن الخليفة ايضا •

وقد وفق البحتري في تصوير الحيرة التي رانت على وجوه اعضـاء

(٣٨) ديوان البحترى ٧٣/١ طبعة بيروت وانظر ص ١٦١٩ ـ ١٦٢٠ من طبعة الصيرفى

الوفد ، كما وفق في تصوير حركات الايدي التي كانت تخطيء ـ كما يزعم طريقها ـ دهشة وذهلاً لما هيء من طعام ـ الى الافواه !

اما في المثال الثاني ، نصور لنا وفودا اخرى ولكنها لم تكن في هذه المرة أجنبية ، وانما هي وفود جاءت ـ كما اسلفنا ـ تلتمس الصفح والغفران ، نيابة عن قبيلتها التي شقت عصا الطاعة على الخلافة • فبين الشاعر ما كانت عليه تلك الوفود من الخشوع والاخبات ، وما كان يفعله اعضاؤها من تقديم فروض الطاعة • بتقبيل يد الخليفة ، الذي كان يظهر لهم البشاشة والانشراح ، ولم يغفل البحتري تصوير نظرات اعضاء هذه الوفود التي كانت موزعة بين الكسر والمخالسة ، حتى ليخيل الى الناظرين ان القوم كانوا حولا • وأشار كذلك الى ما اعدّ لهم من قرى ، وما اسبغ عليهم بعد ذلك من هدايا •

ويخيل الينا ان البحتري في تسجيله لهذه الامور يعد في مقدمة شعرائنا ، ان لم يكن اولهم في هذا الباب !

وفي سامراء ولد عدد من خلفاء بني العباس ، منهم : المنتصر[٣٩] والمعتز[٤٠] والمهتدى وكان مولده في القاطول[٤١] والمعتمد[٤٢] كما فيها قبور الخلفاء الذين اتخذوها عاصمة لهم، ففيها قبر المعتصم[٤٣] والواثق[٤٤]

---

(٣٩) انظر : تاريخ بغداد ١١٩/٢ ، والاعلام المزركلى ٢٩٥/٦ الطبعة الثانية تاريخ الطبرى ٣٩٠/٩ طبعة دار المعارف •

(٤٠) انظر تاريخ بغداد ١٢١/٢ ، والوافي بالوفيات للصفدى ٢٩١/٢

(٤١) انظر : تاريخ الطبرى ٢١٣/١١ وتاريخ بغداد ٣٤٧/٣ والعقد الفريد لابن عبد ربه ١٢٤/٥ •

(٤٢) انظر : الاعلام ١٠٢/١

(٤٣) انظر : مروج الذهب ٤٦/٤ والعقد الفريد ١٢١/٥ ومآثر الانافة ٢١٩/١ •

(٤٤) انظر : العقد الفريد ١٢٢/٥ ومعجم الادباء ١٧٨/٣ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٤٤ ومآثر الإنافة ٢٢٩/١ •

والمتوكل[٤٥] والمنتصر[٤٦] والمستعين[٤٧] والمعتز[٤٨] والمهتدى[٤٩] والمعتمد[٥٠] كما توفى فيها ودفن عدد غير قليل من الافاضل والعلماء والمحدثين والقضاة واللغويين والنحاة والشعراء والمغنيين ، منهم : أبو الحسن علي بن محمد العسكري[٥١] وابنه أبو محمد الحسن بن علي العسكري والد المنتظر[٥٢] ومحمد بن القاسم بن علي[٥٣] وعبدالله بن الحسين[٥٤] ومحمد بن صالح بن عبدالله[٥٥] وعلي بن ابراهيم[٥٦] وقاضي القضاة علي بن محمد بن ابي الشوارب[٥٧] وجعفر بن محمد البرجمي[٥٨]

---

(٤٥) انظر : تاريخ اليعقوبى ٣/٢٢٥ والعقد الفريد ٥/١٢٢ ، ومعجم البلدان ٣/١٧٨

(٤٦) انظر : مروج الذهب ٤/١٣٤ وتاريخ بغداد ٢/١٢١ ومعجم البلدان ٣/١٧٨ ومآثر الانافة ١/٢٣٧ ، والاعلام ٦/٢٩٥ .

(٤٧) انظر مآثر الكبراء في تاريخ سامراء ٢/٥ طبعة النجف

(٤٨) انظر : مروج الذهب ٤/١٦٦ ، واتاريخ بغداد ٢/١٢٥ ،ومعجم البلدان ٣/١٧٨ ومآثر الانافة ١/٢٤٥ ، ومحاضرة الابرار لابن العربي ١/٣١

(٤٩) انظر : مروج الذهب ٤/١٨٢ ومعجم البلدان ٣/١٧٨ ، ومآثر الاناقة ١/٢٤٩

(٥٠)انظر:مروج الذهب ٤/٢٣٠ والنجوم الزاهرة ٣/٨٢ ومعجم البلدان ٣/١٧٨ والاعلام١/١٠٢

(٥١) انظر تاريخ اليعقوبى ٣/٢٤٣ طبعة النجف ومروج الذهب ٤/١٦٩

(٥٢) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ١/٣٧٢

(٥٣) انظر مقاتل الطالبيين لابي الفرج الاصفهاني ص٤١٨ .

(٥٤) انظر المصدر السابق ص ٤١٩

(٥٥) انظر المصدر نفسه ص ٤٢٦

(٥٦) انظر المصدر نفسه ص ٤٨٧

(٥٧) انظر تاريخ الطبرى ١١/٣٥٢

(٥٨) انظر تاريخ بغداد ٧/١٦٧

وعلـــي بن جعفـــر المدينـــي المحـــدث[٥٩] ومحمـــد بن الحســـين بن البستنبان[٦٠] واحمد بن موسـى الشطوى[٦١] وعمـــرو بن ابراهيم أبـــو الاذان[٦٢] وعمرو بن علي السـقاء الفلاس[٦٣] وأبـو الهذيل العلاف المعتزلي[٦٤] وعبدالوهاب بن علي بن المهدي احد وجوه بني هاشـم[٦٥] وسليمان بن خلاد المؤدب[٦٦] واحمد بن اسحاق الوزان[٦٧] وطاهر بن خالد الغساني الايلي[٦٨] وابراهيم بن عبدالله الهروي[٦٩] وعمرو بن علي الصيرفي الحافظ[٧٠] ويحي بن عبدالحميد الكوفي الحافظ[٧١] والحسـن ابن عليل العنزي[٧٢] وابراهيم بن العباس الصولي الشـاعر الكاتب[٧٣] وأبو علي البصير الشاعر[٧٤] وابراهيم بن المهدي المغنى المشهور[٧٥] وأبو

---

(٥٩) انظر مروج الذهب ٤/١٢٧ والفهرست لابن النديم ص ٣٣٦

(٦٠) انظر تاريخ بغداد ٢/٢٢٦

(٦١) انظر المصدر السابق ٥/١٤١

(٦٢) انظر الاعلام ٥/٢٠١

(٦٣) انظر الاعلام ٥/٢٥٤

(٦٤) انظر وفيات الاعيان ٣/٣٩٧

(٦٥) انظر تاريخ بغداد ١١/٢٥

(٦٦) المصدر السابق ٩/٥٤

(٦٧) المصدر السابق ٤/٢٨

(٦٨) المصدر نفسه ٩/٣٥٥

(٦٩) المصدر نفسه ٦/١١٨

(٧٠) المصدر نفسه ١٣/٥٦

(٧١) انظر النجوم الزاهرة ٢/٢٤٥ ومآثر الكبراء ٢/٣٠٣

(٧٢) انظر تاريخ بغداد ٧/٣٩٨ والاعلام ٢/٢١٦

(٧٣) انظر وفيات الاعيان ١/٢٩

(٧٤) انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٨٥

(٧٥) انظر وفيات الاعيان ١/١٩ ودائرة المعارف الاسلامية ١/٤١

المهنا مخارق[٧٦] وعمرو بن بانه[٧٧] المغنيان وعريب المأمونية المغنية[٧٨] ومحمد بن حبيب اللغوي الاخباري[٧٩] وابو عبدالله محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي[٨٠] وأبو يوسف يعقوب بن السكيت[٨١] وعمر ابن شبة[٨٢] وعلي بن احمد المقرىء السامري[٨٣] وعلي بن يحيى المنجم[٨٤] وحمدون بن اسماعيل النديم[٨٥] وغيرهم • وممن توفى بسامراء ايضا الحسن بن سهل والد بوران زوجة المأمون[٨٦] • ومن النساء المشهورات : شجاع ام المتوكل[٨٧] وقبيحة زوجته وام المعتز[٨٨] •

---

(٧٦) انظر النجوم الزهراء ٢/٢٦٠

(٧٧) انظر الاغانى ١٤/٥٣ ووفيات الاعيان ٣/١٤٩

(٧٨) انظر الاعلام ٥/١٩

(٧٩) انظر تاريخ بغداد ٢/٢٧٧ وبغية الوعاة للسيوطى ١/٧٤

(٨٠) انظر الفهرست ص ١٠٨ ووفيات الاعيان ٣/٤٧٥ •

(٨١) انظر اخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٢٢١ والفهرست ص١١٤

(٨٢) انظر الفهرست ص ١٦٩ ومعجم الادباء ١٦/٦٠ ووفيات الاعيان ٣/١١٤

(٨٣) انظر تاريخ بغداد ١١/٣١٩

(٨٤) انظر الفهرست ص ٢١١ ووفيات الاعيان ٣/٥٦

(٨٤) انظر الفهرست ص ٢١١ ووفيات الاعيان ٣/٥٦

(٨٥) انظر الاعلام ٢/٣٠٥

(٨٦) انظر معجم الادباء ١٥/٢٦٧ انظر : تاريخ الطبرى ٩/٢٣٤ دار المعارف

(٨٧) انظر مروج الذهب ٤/٣٦ طبعة دار الاندلس والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٣ وسيدات البلاط العباسى للدكتور مصطفى جواد ص ٦٠

(٨٨) انظر النجوم ٣/٣٨

وممن دفيها فيها من القواد مفلح[٨٩] وموسى بن بغا[٩٠] .

وفي سامراء اقيمت « دعوة الاسلام الثانية » وهي الدعوة التي اقامها المتوكل في قصره المعروف « بلكوارا » بمناسبة اعذار ابنه المعتز وانفق عليها اموالا طائلة . ووصف لنا الشابشتي هذه الدعوة وصفا دقيقا شاملا ، وذكر ما جرى فيها من الابهة ومن احضر من المغنين والمغنيات ، ومن دعي اليهـا من كبار رجال الدولة والشعراء والادباء[٩١] حتى قيل : ان ما انفق على تلك الدعـوة قد بلـغ « سـتة وثمـانين الف الف درهم »[٩٢] وقـال الشابشتي : « وكان الناس يستكثرون ما انفقه الحسن بن سهل في عرس ابنته بوران حتى أرخ ذلك في الكتب وسميت دعوة الاسلام ، ثم أتى من دعوة المتوكل ما انسى ذلك »[٩٣] .

واذا علمنا ان ما حصل عليـه « المزّين » ـ الى ان وضـع الطعام ـ « نيّف وثمانون الف دينار ، سـوى الصـياغات والخواتيـم والجواهر والعتيدات »[٩٤] ، تبيّن لنا مقـدار البذخ والاسـراف في هذه الدعـوة المشـهورة .

وهكذا يتبين لنا ان لا معدى لمن يتصدى لدراسة القرن الثالث الهجري من الوقوف طويلا عند هذه المدينة ، لما لها من أثر واضح قوي في المجالات السياسية والاجتماعية والعمرانية والفنية في ذلكم القرن .

---

(٨٩) انظر تاريخ الطبرى ١١/٢٢٤
(٩٠) انظر المصدر نفسه ١١/٢٤٧
(٩١) انظر الديارات ص ٩٦ ـ ٩٨
(٩٢) المصدر نفسه ص ١٠٠
(٩٣) المصدر نفسه ص ١٠٠
(٩٤) المصدر نفسه ١٥٥ ـ ١٥٦ الطبعة الثانية

الفصل الثاني

أهميتها العلمية والادبيـة :

أشرنا في الفصل الاول الى ان « سامراء » بعد ان ابتنيت واتخـذت عاصمة للخلافة العباسية ، تهيأ لها ان تحتل المركز الاول بين المدن الاسلامية الكبرى حتى بغداد نفسها ، فأصبح لها شأن واضح في المجالات السياسـية والتأريخية والعمرانية والفنية ، بل كان لها تأثير مباشر على بغداد من حيث الحضارة والتجارة(١) .

والواقع ان سامراء خطت خطوات واسعة وحثيثة في مسارب الحضارة حتى غدت املاً يراود اذهان الكثيرين ، ومبتغى لذوى المطامح والمناصب . ومما لا شك فيه ان الاعمال فيها كانت كثيرة ومتيسرة ، بحكم ما كـــان يجرى فيها من البناء والتشييد ، والتنظيم والتوسيع وكثيرا ما كان النـاس يبرحون مدنهم ويشدون اليها الرحال ، اذا ما اصيبوا بضائقة أو عســـر عليهم الحصول على عمل من الاعمال. ومما يحكى في هذا الصدد ان جمّالا حبس ظلما في عهد المعتمد فاستدعاه الخليفة وسأله عن أمره فقال : « انـا رجل من أهل الموصل كان لي جمل اعمل عليه وأعود بكرائه على أهلي ، فضاق الكسب عليّ بالموصل فقلت اخرج الى سر من رأى فان العمل ثم أكثر ... »(٢) كما كانت مؤئلاً وغاية لذوى المواهب الادارية واصحاب الحنكة السياسة ، ممن يسعون لطلب الولاية وينشـدون تقلد الاعمـــال ولبعضهم في ذلك قول مشهور وهو « لو دخلت الى سر من رأى لما اقمت

---

(١) انظر ص٤٩ من هذا البحث .

(٢) الفرج بعد الشدة للتونخى ص ١٦٦

بها الا شهرا واحدا حتى تتقلد احد لاعمال ... »[٣] ولم يقتصر أثر المدينة على هذا الامر وحسب، بل تعداه الى الناحيتين العلمية والادبية ايضا .

ومما لا مراء فيه ان العلم والادب كانا في تلك الحقبة يعيشان ويترعرعان في اكناف الخلفاء والوزراء والامراء ، وان اولئك الخلفاء والوزراء كانوا يعضدون العلماء والادباء ويمدونهم بالجزيل من العطايا والمنح ، مما كان له أكبر الاثر في الحث على العمل الدؤوب والحض على الخلق والابداع ، واللُّهى تفتح اللَّها كما يقال . فما كادت سامراء تبنى وتعمر حتى اقبل عليها الناس من كل حدب وصوب ولا سيما اهل بغداد ، حتى أوشكت ان تخلو من سكانها ، وفي ذلك يقول اليعقوبي : « وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة عشرين ومائتين ، ثم اتصل بهم المقام في ايام الواثق والمتوكل »[٤] .

اصبحت سامراء اذاً المدينة الاولى التي احتضنت العلماء والادباء والشعراء والفنيين وارباب الفنون الاخرى في ذلك العصر ، ومنارا يشع منه العلم والادب فيضيء اقطار الامبراطورية الاسلامية جميعا . وكان من مظاهر حب الخلفاء والوزراء للعلم والادب وتشجيعهم للمشتغلين بهما ، ان اقدم الكثير منهم على التأليف والتصنيف ، وكتابة الرسائل في المجالات المختلفة واهدائها للخلفاء واتباعهم . من ذلك اهداء الكندي كتابه في الفلسفة الاولى للمعتصم[٥] وكتابيه : « مختصر الموسيقى في النغم » و « استعمال الحساب الهندي » وعددا من الرسائل لاحمد بن المعتصم

---

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦

(٤) البلدان ص ٢١ تقدم ان بناء سامراء كان في سنة ٢٢١ كما أشار الى ذلك اليعقوبي نفسه ، وعلى هذا فمن المحتمل ان تكون كلمة(احدى) قد سقطت سهوا من هذا النص .

(٥) انظر : من حياة الكندي للدكتور عمر فروخ ص ٦٧ ، ٧٧

« المستعين »[٦] واهداء الجاحظ كتابه الحيوان للوزير محمد بن عبدالملك الزيات[٧] وكتابه « البيان والتبين » لاحمد بن ابي دؤاد[٨] • وكتابه « الزرع والنخل » لابراهيم بن العباس الصولي[٩] واهداء البحتري كتابه « الحماسة » للفتح بن خاقان[١٠] واهداء حبيش بن موسى الضبي كتابه « الاغاني » للمتوكل[١١] وفي سامراء عمل ابن السكيت كتابه « اصلاح المنطق »[١٢] وعلي بن ربَّن كتابه « فردوس الحكمة »[١٣] وصنع ابن خرداذ به كتابه « المسالك والممالك »[١٤] • ومنها انطلقت بعثة الواثق الاستكشافية برئاسة سلام الترجمان الذي كان يحسن كما يقال « ثلاثين لساناً » الى سد باجوج ومأجوج[١٥] •

وكان من جراء هذا الميل الى العلم والادب ان اقدم بعضهم على اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات • من ذلك خزانة الفتح بن خاقان التي جمعها له

---

(٦) انظر : المصدر السابق ص ٤٥

(٧) انظر : معجم الادباء ١٠٦/١٦

(٨) انظر : المصدر نفسه ١٠٦/١٦

(٩) المصدر نفسه ١٠٦/١٦

(١٠) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ٣١٦/٣

(١١) انظر : معجم الادباء ٢٢٠/٧

(١٢) انظر : معجم الادباء ٢٨٤/٢

(١٣) انظر الاعلام ٩٩/٥ ومما تجدر الاشارة اليه ان كلمة (ربّن) وردت في المصادر على عدة وجوه فجاءت في الفهرست ريل ص ٤٢٦ وفي معجم الادباء زين ٤٨/١٨ ، ٩٢ وفي الاعلام زبن وفي تاريخ الطبرى ربن ٣٥٣/١٠ ولعل الوجه ما ذكره الطبري وانظر ايضاً العقد الفريد ١٧٢/٤ •

(١٤) انظر الجغرافيون العرب سلسلة اقرأ لمصطفى الشهابي العدد ٢٣٠ ص ٤٢ ــ ٤٣

(١٥) انظر المسالك والممالك لابن خرداذبه ص ١٦٢ ــ ١٦٣ وآثار البلاد للقزويني ص ٥٩٧ والحضارة الاسلامية ٨/٢

علي بن يحي المنجم وقد ذكرها ابن النديم في الفهرست فقال « ثم اتصل » اي ابن المنجم بالفتح بن خاقان ، وعمل له خزانة حكمة نقل اليها من كتبه ومما استكتبه للفتح أكثر ما اشتملت عليه خزانة حكمه قط[١٦] وذكرها ايضاً ياقوت في معجمه فقال : وكانت له (اي للفتح) خزانة كتب جمعها له علي بن يحي المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا[١٧] .

واستطاعت سامراء على الرغم من قصر عمرها ان تصبح حاضرة العالم الاسلامي خلال نصف قرن من الزمان وان تكون لها شخصية متميزة ظهرت ملامحها في اوصاف الشعراء لقصورها وبركها ورياضها ومساجدها ومتنزهاتها ومجالس الشرب فيها ، الى غير ذلك مما سنذكره في فصل قادم . كما استطاعت ان تخرج عددا من العلماء والادباء كانوا ينتمون اليها أو كانت السبب في الهامهم وشهرتهم . ومما يروى في هذا الصدد خبر حدث به المبرد قال « كان العطوى وهو عندنا بالبصرة لا ينطق بالشعر ثم ورد علينا شعره لما صار الى سُرَّ من رأى وكنا نتهاداه[١٨] .

ولا يسعنا بالطبع في بحثنا هذا ان نفيض في تراجم اولئك الاعلام . ولكننا سنلمح الى بعضهم وسنشير الى بعض آخر مكتفين بذلك ومشيرين الى المصادر التي ترجمت لهم أو تحدثت عنهم : فمن اولئك :

احمد بن عمر بن شبة النميري وكان شاعرا متفننا ، رقيقا لطيفا ، متقدما بين الشعراء مفضلا لدى الادباء توفى بعد سنة سبعين ومائتين وهو في سن مبكرة[١٩] ومحمد بن جعفر الخرايطي ، وكان حسن الاخبار مليح التصانيف

---

(١٦) الفهرست ص ٢١١

(١٧) معجم الادباء ١٦/١٧٤ وانظر : وفيات الاعيان ٣/٥٦

(١٨) الاغاني : ٢٠/٥٨ وانظر : تاريخ بغداد ٣/١٣٨

(١٩) انظر : شعراء بغداد لعلى الخاقانى ١/٣٦٨

رحل الى دمشق سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وتوفى بعسقلان سنة سبع وعشرين وثلاثمائة[٢٠] .

وابو المياس الراوية وكان صاحب آداب واخبار[٢١] .

وعامر بن عمران الضبي وكان نحويا لغويا اخباريا ومن اعلم الناس باشعار العرب ـ وارواهم لها ـ مات سنة خمسين ومائتين وله مصنفات[٢٢] .

واحمد بن كامل وكان احد المشهورين في علم القرآن كما كان متفننا في علوم كثيرة توفى وله تصانيف عديدة[٢٣] .

وعبدالله بن احمد الربعي وكان مولده في سامراء سنة خمس وخمسين ومائتين وكان قاضيا مؤرخا فقيها ولى القضاء بدمشق ثم عـزل فرحل الى مصـر ومـات بها قاضيا سنة تسـع وعشـرين وثلاثمائة ولـه عـدد من التصانيف[٢٤] .

كما انتمى الى هذه المدينة عدد من المحدثين والرواة والمتصوفة جـاء ذكر الكثير منهم في تاريخ بغداد وغيره من المراجع منهم[٢٥] :

محمد بن القاسم بن حمدون العطار الذي سكن بغداد وتوفى فيهـا سنة تسع وعشـرين وثلاثمائة[٢٦] ومحمد بن هبيرة الغاضـري وكان من المتصدرين للافادة وممن روى عنه الائمة الاثبات[٢٧] .

ومحمد بن محمد بن النفاخ الباهلي وكان قد سافر الى الشام وكتب

---

(٢٠) انظر تاريخ بغداد ٢/١٣٩ ومعجم الادباء ١٨/٩٨
(٢١) انظر تاريخ بغداد ١٤/٤٢٧
(٢٢) انظر معجم الادباء ١٢/٣٩ وبغية الوعاة ٢/٢٤
(٢٣) انظر الفهرست ص ٥٤
(٢٤) انظر الاعلام ٤/١٩٠
(٢٥) كان الخطيب يطلق على من يترجم له أنه من اهل سامرا
(٢٦) انظر تاريخ بغداد ٣/١٨٧
(٢٧) انظر اتريخ بغداد ٣/٣٧٠ وانباء الرواة ٣/٢٢٨

عن شيوخها ثم انتقل الى مصر فاستوطنها وحدث بها وتوفى سنة أربع عشرة وثلثمائة[٢٨] واحمد بن الحسين الحذاء وكان مولده في سنة ثمان ومائتين وسكن بغداد وتوفى بها سنة تسع وتسعين ومائتين[٢٩] .

واحمد بن محمد الايتاخي وكان قد قدم بغداد وحدث بها[٣٠] ، ومحمد بن زكريا الدقاق الفقيه ، وكان ممن سكنوا بغداد وحدثوا بها[٣١] وابراهيم بن عبدالصمد بن موسى وكان مولده في سامراء سنة اربع وعشرين ومائتين ، قدم بغداد وحدث بها ايضا ، واجتمع الناس اليه ، ثم ما لبثوا ان تفرقوا عنه، فرجع ادراجه الى سامراء[٣٢] واسحاق بن يعقوب المعروف بابن الجراب ، وكان مولده في سامراء ، وانتقل الى مصر فسكنها وحدث بها . توفى سنة خمس واربعين وثلاثمائة ، وكان ثقة[٣٣] . وممن كان ينتمي الى هذه المدينة ايضا من المحدثين :

محمد بن يحيى بن ناصح[٣٤] واحمد بن الحسن المعروف بابن الاخوة[٣٥] واحمد ابن السري الاطروشي[٣٦] واحمد بن هارون المعروف بشيطان الطاق[٣٧] ، وابراهيم بن اسحاق الصيدلاني[٣٨] وجعفر بن محمد

---

(٢٨) انظر تاريخ بغداد ٣/٢١٤

(٢٩) انظر : تاريخ بغداد ٤/٩٧ ـ ٩٨

(٣٠) انظر : المصدر السابق ٥/١١٩

(٣١) المصدر السابق ٥/٢٨٧

(٣٢) انظر : الاوراق للصولي ٢/٦٧

(٣٣) انظر : تاريخ بغداد ٦/٣٠٤

(٣٤) المصدر السابق ٣/٤٢٢

(٣٥) المصدر نفسه ٤/٨٨

(٣٦) المصدر نفسه ٤/١٨٩

(٣٧) المصدر نفسه ٥/١٩٦

(٣٨) المصدر نفسه ٦/٤١

البزاز[٣٩] والحسن بن افقي الصيرفي الفقيه[٤٠] والحسن بن علي المطلبي[٤١]، وعبدالله بن حفص الوكيل[٤٢] وعبدالله بن محمد الخطيب[٤٣] وعمر بن ابراهيم الشوكي[٤٤] ، وعلي بن الحسين البزاز[٤٥] والقاسم ابن نصر الطباخ[٤٦] ، وهرون بن مسلم الكاتب[٤٧] واحمد بن اسحاق السكري[٤٨] وممن انتمى اليها من الصوفية : ابراهيم بن احمد الخواص ، وكان احد شيوخ الصوفية ، توفى بالرى سنة احدى وتسعين ومائتين وله كتب مصنفة[٤٩] .

واسماعيل بن احمد الخواص ، وهو اخو ابراهيم الخواص ، وكان مذكورا بالخير والفضل ، وكثرة الحج[٥٠] ومحمد بن يعقوب الفرجي ، وكان صوفيا من علماء النساك ، أنفق كثيراً من الاموال على العلماء والفقراء . وله مصنفات . توفي بالرملة سنة احدى وسبعين ومائتين[٥١] .

---

(٣٩) المصدر نفسه ٧/١٨١

(٤٠) المصدر نفسه ٧/٢٨٨

(٤١) المصدر نفسه ٧/٣٨٤

(٤٢) المصدر نفسه ٩/٤٤٩

(٤٣) المصدر نفسه ١٠/١٢٦

(٤٤) المصدر نفسه ١١/٢٣٣

(٤٥) المصدر نفسه ١١/٣٩٤

(٤٦) المصدر نفسه ١٢/٤٤٨

(٤٧) المصدر نفسه ١٤/٢٣

(٤٨) انظر : لسان الميزان ١/١٣٧

(٤٩) انظر : تاريخ بغداد ٦/٧

(٥٠) أنظر : تاريخ بغداد ٦/٢٨٠ .

(٥١) أنظر : الوافي بالوفيات للصفوى قسم٢ ج١ ص١٦١ مخطوط بدار الكتب رقم ٢١٩ تاريخ . والاعلام ٨/١٦ .

وكان كثير من الاعراب وفصائحهم يختلفون الى سامراء ، حاضـرة الخلافة العباسية التماسا للرفد • فكانوا يترددون على الخلفاء ، ويحلون في قصور الوزراء ، حاملين معهم ما تجود به قرائحهم من شعر ، وما تزخر به صدورهم من لغة • يقول ياقوت في ترجمته للفتح بن خاقان : « وكان يحضـر داره فصحاء الاعراب وعلمـاء الكوفيين والبصريين »[٥٢] وكثيرا ما كان الشعراء والمتأدبون يتصلون باولئك الاعراب الفصحاء فيأخذون عنهم الغريب واللغة وممن اخذ عنهم ذلك الشاعر المعروف عبدالله بن المعتز فقد قيل : « انه سمع من صعودا صاحب الفراء ، وأخذ عنه اللغة والغريب ، وعن اعراب فصحاء كانوا يقدمون سر من رأى »[٥٣] كمـا كان اولئك الاعراب يشاركون الشعراء في مدح الخلفاء وتأييدهم فيما يذهبون اليـه ، من ذلك قول ابي الغصن الاعرابي حين عقد المتوكل لابنائه الثلاثة ولايـة العهـــد :

ان ولاة المســـــلمين الجلـــــه   محمـــــد ثـــمّ ابــو عبـداللـــه
ثمت ابراهيـــم آبـــى الذلـــه   بورك في بنـــي خليفة اللـــه[٥٤]

كما تهيأ لبعضهم ان ينافس من كان يحضر باب الخليفة من الشعراء فيبزهم وينفرد بالجائزة السنية دونهم • من ذلك ما حدث به أبو الفـرج الأصفهاني في كتاب الاغاني قال : « اخبرنا هاشم بن محمد الخزاعي ، قال : حدثني أبو زيد عمر بن شبة قال : حدثني اسحاق قال : دخل اعرابي من بني سليم سر من رأى ، وكان يكنى ابا القنافذ ، فحضر باب المعتصم مـع الشعراء ، فأذن له فلما مثل بين يديه انشده :

---

(٥٢) معجم الادباء ١٦/١٧٤ •
(٥٣) اشـعار اولاد الخلفـاء للصـولي ص١٠٧ وانظر الفهرسـت ص١٧٤ •
(٥٤) تاريخ الطبري ١١/٣٩ •

مراضى العيون خماص البطـون   طـوال المتـون قصـار الخطـا

.... الى ان قال :

الى النفـر البيض أهـل البطـاح .   واهل السـماح طلبنـا النـدى

لهـم سـطوات اذا هيّجـوا   وحلـم اذا الجهـل حـل الحبـا

الى آخر الأبيات ... قال : فاستحنها المعتصم وأمرني فغنيته فيها وأمـر للاعرابي بعشرين الف درهم ولي بثلاثين الف درهم ، وما خرج النـاس يومئذ الا بهذه الابيات »(٥٥) .

ويبدو ان بعضهم قد استهوته أخبار الاعـراب ، فأخذ يصنع عـلى السنتهم نصوصاً ويختلق اخبارا وقصصا يسندها اليهم ، تصـف ما كان يجرى في هذه المدينة من مظاهر الترف ومباهج الحياة ، وغضارة العيش وفخامة العمران ، أو تصور أحوال رجالات الدولـة وميولهم السياسية ، ونزعاتهم المذهبية . ومما يروى في هذا الصدد حكاية لاسحاق الموصلي قال فيها : « قلت لاعرابي كان يألفني : اين كنت بالامس ؟ قال : كنت عنـد بعض ملوك سر من رأى ، فأدخلني الى قبة كايوان كسرى ، واطمعني في قصاع تترى، وغنتني جارية سكرى تلعب بالمضراب كأنه مدرى، فيا ليتني لقيتها مرة اخرى »(٥٦) وظاهر ان هذا النص المسجوع بعيد عن الاعراب وعن المألوف من كلامهم . فالحكاية تصف ـ كما ترى ـ مجلساً لاحـد ملوك سامراء ، فيه غناء وشرب ، ومثل هذا المجلس كان يحضره ـ في العادة اسحاق وامثاله من المغنيين والندمـاء ، ويستبعد فيـه ـ في الغالب ـ الاعراب ومن لف لفهم هذا من جهة ومن جهة اخرى فان اسحاق كثيرا

---

(٥٥) الاغاني ٩٢/٥ . الحبا : جمع حبوة : وهي الثوب الذي يحتبى به . والاحتباء : ضم الانسان رجليه الى بطنه بثوب يجمعها .

(٥٦) المصدر نفسه ٦١/٢٠ .

ما كان يذكر الاعـراب في احاديثه واتصـاله بهم[٥٧] وربما نحلهم بعض شعره[٥٨]، فليس من المستبعد أن يكون هذا النص اذن احد تلك النصوص المنحولـة •

ومن ذلك ايضا ما رواه البيهقي عن الفتح بن خاقان انه قال : « ورد عليّ اعرابي من البادية نجدي فصيح ، فبات ليلة عندي على سطح مشرف على بستان فسمع فيه صوت الدواليب ، فقال : ما أشبه هذا الا بحنين الابل وأنشـــد :

باتت تحن وما بهـــا وجـــدي   وأحن من وجـدٍ الى نجـــد
فدموعهـا تحيـا الرياض بهـــا   ودموع عيني أحرقت خدي[٥٩]

والذي يبدو لنا ان هذا الشعر منحول ، وأكبر الظن أنه من نظم أحد الشعراء الذين كانوا يترددون على سامراء اذا صح أنـه قيل في أحـــد دواليبها واذا علمنا ان هناك رواية أخرى تقول : ان هـذه القصة وقعت لاسحاق الموصلي مع أحد الاعراب[٦٠] جاز لنا الشك في اسنادها للاعرابي، وترجيح نسبتها الى اسحاق[٦١] •

ومنه ايضاً ما رواه أبو تمام قال : خرجت يوماً الى سـر من رأى ،

---

(٥٧) انظر : الاغاني ٥/٥٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١١٣ •
(٥٨) المصدر نفسه : ٥/٧٢ ، ٧٣ •
(٥٩) سمط اللآلئ للبكري ٣/٤٢ •
(٦٠) أنظر : ذيل الامالي للقالي ص٨٦ وقد اضيف اليهمـا بيتان آخران •
(٦١) مما تجدر الاشارة اليـه ان هذين البيتين قد وردا في معجـم الادباء لياقوت ١٤/١٨٠ منسوبين الى علي بن محمد التنوخي المتوفى سنة ٣٤٢هـ في وصف الناعورة ونظن ان رواية القالي لهما في ذيل اماليه كافية لدحض هذه النسبة •

حين ولي الواثق ، فلقيني اعرابي وقد قربت منهـا ، فأردت أن أساله عن شيء من أخبار الناس بها • فخاطبته ، فاذا افصح الناس وأفطنهم فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بني عـامر ، قلت : كيف علمك بأمير المؤمنين ؟ قال : قتل أرضها عالمها ، قلت : فما تقول فيه قال : وثق بالله فكفاه ، اشجى العاصية ، وقمـع العاديـة وعـدل في الرعيـة ، ورغب عن كـل ذي جناية ...•(٦٢) • ويمضي أبو تمام يسـأل الاعرابي عن رجـال الدولـة وميولهم ونزعاتهم المختلفة ، فيجيب عن كل ذلك بكل دقة والمام ، مما يدل على كثرة تردده ، وطول اقامته في سامراء ولا ينسى أبو تمام ان يتحدث في هذا النص عن شـعره وشاعريته وتفضـيل الاعرابي له على سـائر شعراء زمانه • وموقفنا ازاء هذا النص لا يختلف عما ابداه بعضهم حيال ذلك من الشك والانتحال(٦٣) • فالمعروف عن الاعـراب انهم كانوا يترددون على المدينة للانتجاع ، وعرض ما لديهم من لغة وغريب اما أن يكونوا على هذه الدرجة من الالمام والمعرفة باتجاهات رجال الدولة من خلفاء ووزراء وقضاة وكتاب فأمر يلفت النظر • كما أن الحديث عن شعر ابي تمام وشاعريته ـ مع اعترافنا بسمو هذه الشاعرية ـ وتفضيله على بقية الشعراء أمر يدعو الى التحرج في قبول نسبة هذا النص وعلى هذا فليس من المستبعد ان يكون صانع هذا النص أبو تمام نفسه •

ومع كل ما تقدم من النصوص التي حامت حولها الشكوك ، فاننا من

---

(٦٢) للوقوف على النص كاملا ، يحسن الرجوع الى مروج الذهب ٦٦/٤ ـ ٦٧ واخبار ابي تمام ص٨٩ ـ ٩٣ •

(٦٣) عقب المسعودي على هذا النص بقوله « فهذا الخبر فمخرجه من ابي تمام ، فان كان صادقا فيما قال ـ ولا اراه ـ فقد احسن الاعرابي في الوصف ، وان كان أبو تمام هو الذي صنعه وعزاه الى هذا الاعرابي فقد قصـر في نظمه ، إذ كـانت منزلتـه أكبر من هـذا ٠٠ » انظر مروج الذهب ٦٨/٤ وأخبار ابي تمام ص ٩٣ ـ هامش (٣) •

جهة أخرى نستنتج أن المدينة كانت مرتادة من قبل كثير من الأعراب والفصحاء ولولا ذلك لما صنعت ـ كما نظن ـ هذه النصوص على السنتهم :

* * *

وكان منصب قاضي القضاة من المناصب المهمة في الدولة الاسلامية وكان يشغله في العادة شخص واحد يكون مقره في عاصمة الدولة ، ولهذا فقد كان قاضي القضاة في خلافة بني العباس يستقر دائماً في سامراء طيلة مكوثها حضرة لتلك الخلافة(٦٤) ومن القضاة المشهورين الذين تحدثنا عنهم المراجع :

احمد بن ابي دواد ، وكان كريماً فصيحا مقربا للعلماء والادباء وأحد زعماء مذهب الاعتزال • شغل منصب قاضي القضاة في عهد المعتصم والواثق ، كما شغل هذا المنصب مدة في عهد المتوكل • وكان على خلاف شديد مع الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، كما لعب دورا كبيرا في معاضدة الجانب العربي طوال أيام حكم المعتصم والواثق •

وقد مدحه عدد من شعراء العصر وادبائه ، ولعل أحسن ما قيل فيه قول ابي تمام الطائي من قصيدة له :

لقد أنست مساوىء كل دهر ــــ محاسن أحمد بن ابي دواد(٦٥)

وجعفر بن عبدالواحد العباسي(٦٦) وجعفر بن محمد البرجمي(٦٧)

---

(٦٤) أنظر معجم الادباء ١٣٤/٦ •

(٦٥) انظر اخبار ابي تمام للصولي ص١٤١ـ١٥٨ ، ومروج الذهب ١٤/٤ ــ ١٥ طبعة دار الاندلس ، وزهر الآداب للحصري في مواطن مختلفة، وغير ذلك من المصادر •

(٦٦) أنظر تاريخ بغداد ١٧٣/٧ ومعجم الادباء ١٣٤/٦ •

(٦٧) أنظر تاريخ بغداد ١٦٣/٧ •

وعلي بن محمد بن ابي الشوارب[٦٨] والحسن بن محمد بن ابي الشوارب[٦٩] وابراهيم بن الفضل الحلواني[٧٠] والصلت بن مسعود الجحدري[٧١] ويحيى بن أكثم الصيفي المشهور[٧٢] .

ومن القضاة الذين حملوا الى سامراء بغية تعيينهم في مناصب القضاء لبعض المدن الاسلامية الاخرى : الزبير بن بكار[٧٣] والعباس بن الفرج الرياشي[٧٤] . كما أمها الفقيه المشهور أحمد بن حنبل[٧٥] واحمد بن عمر الخصاف الفقيه الفارض الحاسب الذي عمل للمهتدى كتاباً في الخراج[٧٦] ونزلها شيخ المقرئين بالعراق حفص بن عمر الضرير النحوي[٧٧] وابراهيم بن عبدالله بن الجنيد الختلي صاحب كتب الزهد والرقائق[٧٨] . وعلي بن عبدالله المديني أحد العلماء بالحديث[٧٩] .

ومما يسترعى النظر حقاً في هذه المدينة كثرة الوافدين اليها من الحفاظ والمحدثين ، مما يدل دلالة واضحة على اقبال الناس على هذا النوع من العلم الى جانب اقبالهم على الملاهي والملذات ، فمن اولئك المحدثين

---

(٦٨) المصدر السابق ٥٩/١٢ .
(٦٩) نفسه ٤١٠/٧ .
(٧٠) نفسه ١٤٠/٦ .
(٧١) نفسه ٣٤١/٩ .
(٧٢) انظر : كتاب البلدان لليعقوبي ص٢٦ ومروج الذهب ١٤/٤ طبعة دار الاندلس .
(٧٣) انظر معجم الادباء ١٦١/١١ والوافي بالوفيات ٢٣٩/٢ .
(٧٤) انظر انباه الرواة للقفطي ٣٧٥/٢ .
(٧٥) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ٤٩٢/١ .
(٧٦) أنظر الفهرست ص٣٥٤ .
(٧٧) أنظر نكت الهميان للصفدي ص١٤٦ ومعجم الادباء ٢١٦/١٠ .
(٧٨) انظر تاريخ بغداد ١٢٠/٦ .
(٧٩) أنظر الفهرست ص ٣٦ .

الذين نكتفي بالاشارة اليهم : الامام الحافظ عمر بن محمد الصيرفي(٨٠) والامام الحافظ يحيى بن عبدالحميد الكوفي الذي كان يحفظ - كما يقال - عشرة الآف حديث يسردها سردا(٨١) وعلي بن حرب الطائي الموصلي وكان الى جانب ذلك عالماً بأخبار العرب ، أديباً شاعرا(٨٢) ومنهم أيضا : محمد بن عمران الانصاري(٨٣) ومحمد بن جعفر التميمي(٨٤) ومحمد ابن العباس النسائي(٨٥) ومحمد بن يزيد السلمي الواسطي(٨٦) ومحمد ابن يعقوب الدينوري(٨٧) واحمد بن علي البصري(٨٨) واحمد بن محمد ابن يزيد(٨٩) واحمد بن موسى الشطوى المقرىء(٩٠) واحمد بن مطرف البستي(٩١) واحمد بن يحيى الهمذاني السوسي(٩٢) ومحمد بن ديسم الدقاق(٩٣) وابراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة(٩٤) وجعفر بن محمد

---

(٨٠) أنظر النجوم الزاهرة ٢/٣٣٠ .

(٨١) المصدر نفسه ٢/٢٥٤ .

(٨٢) انظر الاعلام للزركلي ٥/٧٨ .

(٨٣) انظر تاريخ بغداد ٢/١٣٣ .

(٨٤) نفسه ٢/١٣٥ .

(٨٥) نفسه ٣/١١٠ .

(٨٦) نفسه ٣/٣٧٣ .

(٨٧) نفسه ٣/٣٩٠ .

(٨٨) نفسه ٤/٣٠٢ .

(٨٩) نفسه ٥/١١٩ .

(٩٠) نفسه ٥/١٤١ .

(٩١) نفسه ٥/١٧١ .

(١٩٢) نفسه ٥/٢٠٢ .

(٩٣) نفسه ٥/٢٦٩ .

(٩٤) نفسه ٦/١٥٠ .

الطباع[(٩٥)] وابراهيم بن مكتوم السلمي[(٩٦)] واسماعيل بن زياد الأيلي[(٩٧)] واسماعيل بن احمد الباهلي[(٩٨)] واسحاق بن موسى الانصاري الخطمي[(٩٩)] وبشر بن مطر الدقاق الواسطي[(١٠٠)] وجعفر بن احمد بن عوسجة[(١٠١)] • وجعفر بن محمد البغوي[(١٠٢)] وجابر بن كردي الواسطي[(١٠٣)] والحسن ابن ناصح المخزومي[(١٠٤)] والحسن بن يزيد الحنظلي الجصاص[(١٠٥)] والحسين بن احمد النسائي[(١٠٦)] والحسن بن بيان البغدادي[(١٠٧)] والحسين بن معاذ الاخفش الحجبي[(١٠٨)] والحكم بن عمرو الأنماطي[(١٠٩)] وداود بن سليمان الدقاق[(١١٠)] وسعدان بن يزيد البزاز[(١١١)] وصالح بن حكيم التمار[(١١٢)] وصالح بن عبدالله مولى المعتمد علي الله[(١١٣)] وعبدالله

---

(٩٥) انظر تاريخ بغداد ٦/١٧٩ •
(٩٦) نفسه ٦/١٨٣ •
(٩٧) نفسه ٦/٢٧٤ •
(٩٨) نفسه ٦/٢٨١ •
(٩٩) نفسه ٦/٣٥٥ •
(١٠٠) نفسه ٧/٨٤ •
(١٠١) نفسه ٧/١٧٧ •
(١٠٢) نفسه ٧/١٨٢ •
(١٠٣) نفسه ٧/٢٣٨ •
(١٠٤) نفسه ٧/٤٣٥ •
(١٠٥) نفسه ٧/٤٥٢ •
(١٠٦) نفسه ٨/٤ •
(١٠٧) نفسه ٨/٢٣ •
(١٠٨) نفسه ٨/١٤١ •
(١٠٩) نفسه ٨/٢٢٩ •
(١١٠) نفسه ٨/٣٦٩ •
(١١١) نفسه ٩/٢٥٤ •
(١١٢) نفسه ٩/٣١٧ •
(١١٣) نفسه ٩/٣٢٨ •

ابن خالد اللؤلؤى البصري[١١٤] وعبدالرحمن بن محمد الحارثى البصري[١١٥] وعبدالصمد بن موسى الهاشمي[١١٦] وعبيد بن محمد الجوهري البصري[١١٧] وعامر بن محمد الكواز[١١٨] وقسطنطين بن عبدالله مولى المعتمد على الله[١١٩] وليث بن الفرج بن راشد[١٢٠] وموسى بن هارون التوزي[١٢١] ومالك بن سليمان الالهاني[١٢٢] ويحيى بن شبيب اليماني[١٢٣] ويوسف بن جعفر بن علي الخوارزمي[١٢٤] ويحيى بن محمد بن عبدالملك بن قرعة[١٢٥] ويحيى بن حبيب الحمال الكوفي[١٢٦] ويحيى بن ابراهيم الخازن[١٢٧] وغيرهم .

. . .

وقصد هذه المدينة كثير من مؤدبي ذلك العصر ومعلميه فكانوا موضع رعاية واكرام من الخلفاء ووزرائهم ، وعهدوا اليهم بتعليم ابنائهم وتهذيبهم وتزويدهم بكل ما يحتاجونه من علم وأدب واخلاق . ولم يكن اختيار المؤدبين بالامر الهين ، فكثيرا ما كان يجرى لهم اختبار في المسائل اللغوية

---

(١١٤) انظر تاريخ بغداد ٤٥١/٩ .
(١١٥) نفسه ٢٧٣/١ .
(١١٦) نفسه ٤١/١١ .
(١١٧) نفسه ٩٩/١١ .
(١١٨) نفسه ٢٣٩/١٢ .
(١١٩) نفسه ٤٧٨/١٢ .
(١٢٠) نفسه ١٦/١٣ .
(١٢١) نفسه ٥٦/١٣ .
(١٢٢) نفسه ١٥٩/١٣ .
(١٢٣) نفسه ٢٠٦/١٤ .
(١٢٤) نفسه ٣١٣/١٤ .
(١٢٥) نفسه ٢١٣/١٤ .
(١٢٦) نفسه ٢١٣/١٤ .
(١٢٧) نفسه ٢٣١/١٤ .

والادبية فمن فاز به اختير ليكون مؤدباً ومعلماً[١٢٨] ومن اولئك المؤدبين :
أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، فيلسوف العرب المشهور ، ومؤدب المستعين أحمد بن المعتصم[١٢٩] .

واحمد بن عبيد بن ناصح المكنى بابي عصيدة مؤدب ولد المتوكل[١٣٠] ومحمد بن عبدالله بن قادم مؤدب المعتز[١٣١] والزبير بن بكار مؤدب المعتز ايضاً[١٣٢] وأبو يوسف يعقوب بن السكيت مؤدب ولد المتوكل[١٣٣] . وعبدالله بن عبدالعزيز الضرير النحوي مؤدب المهتدى[١٣٤] وابراهيم بن سعدان الشيباني مؤدب المؤيد[١٣٥]. ومحمد بن عمران الضبي مؤدب عبدالله ابن المعتز[١٣٦] واحمد بن سعيد الدمشقي مؤدب اولاد المعتز[١٣٧] وأحمد ابن يحيى البلاذري مؤدب عبدالله بن المعتز[١٣٨] . ومن المؤدبين ايضاً : أبو مسهر احمد بن مروان وكان في ايام المتوكل[١٣٩] واحمد بن عبدالله

---

(١٢٨) انظر معجم الادباء ٣/٢٢٩ ـ ٢٣٠ وانباه الرواة ١/٨٥ .
(١٢٩) انظر من حياة الكندي وفلسفته للدكتور عمر فروخ ص١٥ والكندي الرائد الاول للفلسفة لمحمد بحر العلوم ص٢٤ .
(١٣٠) انظر معجم الادباء ٣/٢٢٨ .
(١٣١) انظر المصدر نفسه ٣/٢٢٨ ، ١٨/٢٠٩ .
(١٣٢) انظر ذيل الامالي ص٩٩ .
(١٣٣) انظر نزهة الالباء لابن الانباري ص١٢٢ والفهرست ص ١١٤ .
(١٣٤) انظر نكت الهميان للصفدي ص١٨٢ .
(١٣٥) انظر معجم الادباء ١/١٥٢ وبغية الوعاة للسيوطي ١/٤١٣ .
(١٣٦) انظر تاريخ بغداد ٢/١٣٢ ونزهة الالباء ص١٤١ ومعجم الادباء ١٨/٢٧٢ .
(١٣٧) انظر انباه الرواة ١/٤٤ ومعجم الادباء ٣/٤٧ .
(٣٨) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص١٢ ودائرة المعارف الاسلامية ٤/٥١ وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٢/١٩١ .
(١٣٩) انظر معجم الادباء ٥/٦٢ .

ابن يزيد الهيتمي[١٤٠] وسليمان بن خلاد[١٤١] والحسن بن داود الازدي[١٤٢] والطوال المكني بابي عبدالله[١٤٣] والاحمر المؤدب[١٤٤] وغيرهم .

* * *

وكان الكثير من مشاهير علماء اللغة والنحو في ذلك العصر يتخذون سامراء منتجعاً لهم ومرتادا يختلفون اليه ، فيقربون من الخلفاء والوزراء ، وينالون من المنح والعطايا ما يعودون به الى امصارهم بجر الحقائب الاحمال وربما وظف لبعضهم مرتبات شهرية تدفع اليهم في بلدانهم بعد قفولهم اليها .

من ذلك ما كان يجريه الواثق على المازني في كل شهر ، قال المازني « ثم انصرفت الى البصرة ، فكان الوالي يجرى علىّ المائة دينار في كل شهر حتى مات الواثق فقطعت عني »[١٤٥] .

ولم تكن قصور الخلفاء ومنازل الوزراء والادباء ـ في أغلب الاحيان ـ تخلو من اولئك العلماء وبخاصة علماء الكوفة والبصرة[١٤٦] ومن العلماء المشهورين الذين انتجعوا هذه المدينة وأقاموا فيها فترات من الزمن :

محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي الذي كان من اكابر ائمة

---

(١٤٠) انظر لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ١/١٩٧ .
(١٤١) انظر تاريخ بغداد ٩/٥٣ .
(١٤٢) انظر المصدر نفسه ٧/٣٠٦ ومعجم الادباء ٨/١٠٨ وجاء فيه (الرقي) .
(١٤٣) انظر الفهرست ص١٠٧ ومعجم الادباء ٣/٢٢٩ .
(١٤٤) انظر معجم الادباء ٣/٢٢٩ .
(١٤٥) معجم الادباء ٧/١١٩ وانظر دائرة المعارف الاسلامية ٦/٢٣٥ . الصواب : مائة الدينار .
(١٤٦) انظر معجم الادباء ٧/١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦/١٧٤ .

اللغة ومن احفظ الناس للغات والايام والانساب[١٤٧] •

وعبدالله بن محمد التوزي الذي يعد من أكابر علماء اللغة ايضا[١٤٨] •

والمفضل بن سلمة العالم اللغوي الكوفي المذهب[١٤٩] وابراهيم بن غيث البغدادي النحوي اللغوي[١٥٠] ومحمد بن يزيد المبرد النحوي صاحب كتاب الكامل[١٥١] وبكر بن محمد بن بقية المازني[١٥٢] وأبو العباس ثعلب[١٥٣] وغيرهم •

• • •

وقد لا نعدو الصواب اذا ما زعمنا ان الغالبية العظمى من كبار ادباء العصر ورواته كانوا يختلفون الى مدينة سامراء ، طلباً للرفد ، ورغبة في الشهرة ، وكان لهم من كرم الخلفاء ورعاية الوزراء ما يدفعهم لمواصلة التردد اليها والمكوث في ربوعها فترات طويلة من الزمن • وكتب الادب والتاريخ مليئة بكثير من النوادر الطريفة والاخبار المستفيضة في هذا الشأن • فمن اولئك الادباء الذين ترددوا الى سامراء أو أقاموا فيها :

---

(١٤٧) انظر معجم الادباء ١٨/١٨٩ ـ ١٩١ والفهرست ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وانباه الرواة ٣/١٤٣ •

(١٤٨) انظر نزهة الالباء ص١١٩ وبغية الوعاة ٢/٦١ •

(١٤٩) انظر الفهرست ص١١٥ وبغية الوعاة ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧ •

(١٥٠) انظر معجم الادباء ٨/١٤٠ •

(١٥١) انظر معجم الشعراء للمرزباني ص٤٠٥ وإنباه الرواة ٣/٢٤٩ •

(١٥١) انظر معجم الشعراء للمرزباني ص٤٠٥ وانباه الرواة ٢٥٣ •

(١٥٣) انظر معجم الادباء ٢/٢٨٣ ـ ٢٨٤ •

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الاديب الفكه المشهور الذي كان كثير التردد والاقامة في هذه المدينة . وكان على صلة وثيقة بالوزير محمد ابن عبدالملك الزيات ، وقد ألف له كتاب (الحيوان) فأعطاه خمسة الآف دينار(١٥٤) . واتصل بعده بالفتح بن خاقان الذي أعجب به وبأدبه فقرّبه وحباه ، وخصص له راتباً شهريا ، فكتب له رسالة في (فضائل الاتراك) . ويقال ان المتوكل استدعاه لتأديب أولاده فلما رآه استبشع منظره فاعطاه عشرة الآف درهم وصرفه(١٥٥) .

ومحمد بن حبيب ، وكان من علماء بغداد باللغة والشعر والاخبار

---

(١٥٤) مما يجدر ذكره ان المصادر تشير الى ان ابن الزيات قد قتل بعد مضي اربعين يوما من استخلاف المتوكل ، في حادثة التنور المشهورة وذلك في سنة ٢٣٣هـ . وعلى هذا فينبغي ان يكون الجاحظ قد انتهى من تأليفه لحيوانه واهدائه لابن الزيات قبل هذا التاريخ . بيد ان هناك عبارة وردت في ثنايا « كتاب الحيوان » تلمح الى ان الكتاب المذكور لم يكن ـ حين أهدي لابن الزيات ـ كاملا . وهذه العبارة وردت في معرض كلام الجاحظ على امكان تثقيف الحيوانات الوحشية وتعليمها .

قال : « وزعم عبويه إن ... السوداني الجبلي ـ وهو رجل من العرب ... فزعم ان السوداني أشبه خلق الله بجارحة وأحكمهم بتدبير ذئب وكلب وأسد ونمر وتعليم وتثقيف ، وانه بلغ من حذقه ورفقه أنه ضرّى ذئباً وعلمه ، حتى اصطاد له الظباء والثعالب وغير ذلك من الوحوش ، وإن هذا الذئب اليوم بالعسكر (اى عسكر سامراء) . وحدثني بهذا الحديث في الايام التي قام بها أمير المؤمنين المتوكل على الله ... » . الحيوان ٧/٢٥٢ ـ ٢٥٣ فاشارة الجاحظ الى ايام استخلاف المتوكل دليل على ان الكتاب لم يكن كاملا يوم أهدي للوزير ابن الزيات .

(١٥٥) انظر : مروج الذهب ٤/١٧ طبعة دار الاندلس ، ومعجم الادباء ١٦/١٠٣ ، ورسائل الجاحظ ١/٥ تحقيق عبدالسلام هارون ، ودائرة المعارف الاسلامية ٦/٢٣٥ .

والانساب[١٥٦] وبندار بن عبدالحميد الكرخي الاصبهاني الذي كان الى جانب تضلعه من اللغة ذا قدرة عجيبة على الحفظ ، حتى قيل : انه كان يروي دواوين شعر العرب وخاصة شعراء الجاهلية والاسلام . وكان يجمع النحويين في داره ، كما كان على صلة وثيقة مع المبرد في اثناء زيارة الاخير سامراء[١٥٧] .

وعمر بن شبة البصري الذي كان كما يقول ياقوت « راوية للاخبار ، عالماً بالآثار أديباً ، فقيهاً ، صدوقاً »[١٥٨] .

وأحمد بن معاوية الباهلي البصري الذي كان يجمع بين الاخبار ورواية الآداب[١٥٩] .

وعمر بن بكير الراوية ، النسابة ، الاخباري ، النحوي[١٦٠] .

وعلي بن حرب الموصلي المحدث ، الاخباري ، الاديب ، الشاعر[١٦١] .

وابراهيم بن ممشاذ الاصبهاني الذي كان يكتب للمتوكل ، حتى قيل : انه « لم يكن بالعراق في ايامه ابلغ منه »[١٦٢] .

وعلي بن يحيى المنجم النديم وكان راوية للاشعار والاخبار ، شاعرا محسنا وهو صاحب خزانة الكتب العظيمة المسماة « خزانة الحكمة »[١٦٣].

---

(١٥٦) انظر معجم الادباء ١١٢/٨ .
(١٥٧) انظر المصدر السابق ٢٨/٧ ـ ١٣١ .
(١٥٨) انظر المصدر السابق ٦٥/١٦ والفهرست ص١٦٩ .
(١٥٩) انظر تاريخ بغداد ١٦٢/٥ .
(١٦٠) انظر معجم الادباء ٢٦٢/١٥ .
(١٦١) انظر الاعلام للزركلي ٧٨/٥ .
(١٦٢) أنظر معجم الادباء ١٦/١٠ .
(١٦٣) انظر الفهرست ص٢١١ ومعجم الادباء ١٥٧/١٥ .

ومحمد بن حسان النملي الكاتب الاديب[١٦٤] واليمان بن ابي اليمان البندنيجي ، وكان من حفاظ الادب والشعر[١٦٥] وميمون بن ابراهيم الكاتب وكان بليغاً فصيحاً مترسلاً[١٦٦] .

ومحمد بن القاسم بن خلاد المعروف بابي العيناء الذي كان يجمع بين الكتابة والخطابة والشعر ، وكان من اصحاب البديهة الحاضرة والجواب السريع وله في ذلك اخبار طويلة ، ونوادر مشهورة[١٦٧] اتصل بالمتوكل وكان يعجبه كثيرا لما يراه فيه من حدة الذكاء وقوة العارضة . قال له المتوكل يوماً « ما أشد شيء مر عليك في ذهاب بصرك فقال : فوات رؤيتك يا أمير المؤمنين مع اجماع الناس على ذلك[١٦٨] وقال له ايضاً يا محمد لم يبق ممن حضر المجلس الا اغتابك غيري فأجاب على الفور :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضباناً على لئامها »[١٦٩]

وكان شعراء العصر كبقية الادباء والنحاة واللغويين وغيرهم من أرباب الفنون وطلاب الشهرة والثراء يختلفون الى هذه المدينة ، فيقيمون في أكناف خلفائها ووزرائها مزودين بما أعدوا من مدائح ، وهيأوا من قريض .

. . .

وكان لاولئك الشعراء أثر كبير في تسجيل كثير من الحوادث التاريخية والعمرانية في تلك الحقبة ، كما صوروا لنا جوانب كثيرة من الحياة المترفة التي كان الخلفاء يحيونها في ظلال القصور ، مما يمكن أن يعد مصدرا

---

(١٦٤) انظر معجم الادباء ١٨/١١٩ .

(١٦٥) انظر المصدر السابق ٢٠/٥٦ ونكت الهيمان للصفدي ص٣١٣ .

(١٦٦) انظر الفهرست ص١٨٦ .

(١٦٧) انظر الديارات للشابشتي ص٦٠ وزهر الآداب في مواضع مختلفة .

(١٦٨) المصدر السابق ص٥٤ .

(١٦٩) المصدر نفسه ص٦٠ .

مهما لمن يبغي بحث أمثال هذه الامور •

وليس من أهداف بحثنا هذا الاحاطة بكل ما يتعلق بأولئك الشعراء لا سيما وان الكثيرين مهم كانوا من الكبار المشهورين ، وقد كتبت عنهم رسائل مطولة ، ووضعت فيهم بحوث مستفيضة • ولما كان بحثنا يتعلق بما قاله الشعراء والادباء في هذه المدينة ومعالمها في غضون القرن الثالث الهجري فاننا سنكتفي بالتحدث عن بعض الامور التى تتصل بعلاقة أولئك الشعراء بهذه المدينة وخلفائها وبعض أمرائها • فمن الشعراء الذين ترددوا على سامراء أو أقاموا فيها :

أبو تمام الطائي :

أخذ الطائي يختلف الى هذه المدينة في زمن المعتصم والواثق ، وله فيهما وفي أحمد بن المعتصم (المستعين) عدة مدائح •

ولكن متى اتصل الشاعر بالخليفة المعتصم ؟ الواقع أنه ليس من السهل الادلاء برأي قاطع في ابتداء هذه الصلة ، فالروايات في هذا الصدد متعددة ، ترجع بعضها بدء هذه العلاقة الى سنة **٢١٧**هـ ، أي قبل استخلاف المعتصم ، وكان في هذه الاثناء مع أخيه المأمون في الشام ، وتذهب أخرى الى أن الصلة بينهما بدأت بعد الاستخلاف، وكانت في بغداد ، في حين ترى بعضها أن هذه الصلة بدأت بعد ابتداء المعتصم لمدينة سامراء ، واتخاذها عاصمة للخلافة • ويبدو لنا أن الرواية الاخيرة أكثر هذه الروايات قبولا ورجحانا[١٧٠] •

وفي أثناء تردد الشاعر على الحاضرة العباسية الجديدة ، أخذ يهتبل

(١٧٠) انظر هذه الروايات في : اخبار ابي تمام للصولي ص١٤٣ – ١٤٤ ، تاريخ بغداد ٢٤٩/١٦ • طبعة بيروت ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة ص٣٢٥ ، ابو تمام لنجيب البهبيتي ص٧٥ ، ١٣٧ ، والعصر العباسي الاول لشوقي ضيف ص٢٧١ •

الفرص الملائمة للاشادة بانتصارات الخليفة المعتصم وقواده على أعـــداء الخلافة والخارجين عليها ، أمثال : بابك الخرمـــي والبيزنطين • وهـي انتصارات كبيرة وخطيرة • فاندفع بحماسة شديدة يتغنى بتلك الانتصارات ويصف المعارك الدامية التي خاضتها الجيوش العباسية وصفا دقيقا رائعا ، ويشيد ببطولات الخليفة وقواده وجيوشه •

واذا كانت طبيعة بحثنا لا تسمح بايراد كل ما يمكن من أمثلـة في هذا الشأن ، فانها من جهة أخرى لا تقف حائلا بيننا وبين ما ينبغي التمثيل له ، وسنجتزىء بأجزاء من قصيدتين للطائي في هذا المضمار • قال يصف فتح الخرمية ـ مدينة بابك ـ بعد الايقاع به وبجيوشه وصلبه في مدينـــة سامراء :

آلت أمـــور الشـــرك شـــر مـــآل
وأقـــر بعـــد تخمـــط وصيـــال

غضب الخليفـــة للخلافـــة غضبـــة
رخصت لهـــا المهجـات وهي غوالي

لـما انتضى جهـــل الســـيوف لبابك
أغمـــدن عنـــه جهالـــة الجهـــال

وبعد أن يمضي الطائي في وصف المعارك بين جيوش الخليفة وجيوش الخرمي ، يقف فيصف ما لقيه جيش بابك المفلول من الاندحار ، وما حل بمدينته البذ من الخراب :

لولا الظـــلام وقلـــة علقوا بهـــا
باتـــت رقابهـــم بغـــير قـــلال
فليشكروا جنـــح الظـــلام ودروذا
فهـــم لـــدروذ والظـــلام موالي

فالبـــذ أغبـر دارس الاطـــلال
ليـد الردى أكـل من الآكـال

محو مـن البيض الرقـاق أصابـه
فعفـاه لا محـو مـن الاحـوال

لفحت سـموم المشـرفية وسـطه
وهجـاً وكـن سـوابغ الاظـلال

كـم صارم عضب أناف عـلى فتى
منهـم لاعبـاء الوغـى حمـال

ثم يشير الى قتل بابك وصلبه فيقول :

لاقـى الحمـام بسر من راء التـي
شهدت لمصرعـه بصـدق الفـال

قطعت بـه أسـبابه لمـا رمـى
بالطـرف بـين الفيـل والفيـال

أهـوى لمتن الجـذع متنيـه كذا
من عاف متن الاسـمر العسـال(١٧١)

ولعل أروع ما نظمه الطائي في معارك المعتصم وانتصاراته ، قصيدته البائية الخالدة في فتح عمورية . وتحدثنا المصادر التاريخية عن سبب فتح المعتصم لهذه المدينة ، فتشير الى ما قام به صاحب الروم من الاعتداء على بعض المدن الاسلامية المتاخمة لبلاده ، كزبطرة وملطية وفتكه بالسكان وتمثيله بهم ، كما تحدثنا المصادر عما انتاب المعتصم حين طرق سمعه الخبر ، من حمية وغضب ، فقام من فوره نافرا وركب دابته وسمط خلفه

(١٧١) ديوان ابي تمام ٣/١٣٢ شرح التبريزي .

شكالا وسكة حديد وحقيبة ، ثم أمر أن ينادي بالنفير في الامصار ، فاجتمع لديه جيش لجب أشرنا اليه عند كلامنا على أهمية سامراء السياسية والتاريخية • ولم يكتف المعتصم بذلك ، بل استدعى عددا من القضاة وأهل العدالة وأشهدهم على ما وقف من الضياع قبل أن يتجه بجيشه لمقاتلة الروم(١٧٢) • ويبدو أن المسلمين قد استعظموا ـ كالمعتصم ـ هذه الفعلة من الروم ، حتى أن ابراهيم بن المهدي دخل على المعتصم وأنشده قائما قصيدة طويلة ، يذكر فيها ما حل بأهل زبطرة وملطية ويحضه على الانتصار ، ويحثه على الجهاد ، منها قوله :

يا غـارة الله قـد عاينت فانتهكي

هتـك النسـاء وما منهن يرتكب

هب الرجال على اجرامها قتلت

ما بال أطفالها بالذبح تنتهب(١٧٣)

وكانت عمورية ـ كما يذكر الطبري ـ أمنع بلاد الروم وأحصنها ، وهي عندهم أشرف من القسطنطينية ، ولم يتسن لأحد من المسلمين قبل المعتصم أن يعرض لها(١٧٤) • واذا كان المعتصم قد أحسن صنعا حين استنفر المسلمين لهذه الغزوة ، وأخذ بثأر ما تعرضت له رعيته ، وسجل له مفخرة في سجل الفتوحات الاسلامية ، فان اصطحابه أبا تمام ـ اذا صح ـ في هذه الغزوة يعد مفخرة أخرى لا تقل عن سابقتها ، اذ صور لنا الطائي هذه الوقعة تصويرا دقيقا رائعا في قصيدته (العمورية) ـ اذا صحت النسبة ـ التي خلد فيها هذه الغزوة في دنيا الادب •

---

(١٧٢) انظر : تاريخ الطبري ٩/٥٥ طبعة دار المعارف ، ومروج الذهب ٣/٤٧٢ طبعة دار الاندلس • الشكال : العقال والحبل الذي تشكل به الدابة أي تشد •

(١٧٣) مروج الذهب ٣/٤٢٧ (دار الاندلس) •

(١٧٤) تاريخ الطبري ٩/٥٦ (دار المعارف) •

الواقع ان قصيدة الطائي هذه تمثل قمة شعره الحربي ، وقد نالت من الشهرة بحيث أصبحت تعرف بقصيدة (عمورية) أو بائية أبي تمام ، أو تعرف بمصراعها الاول (السيف أصدق أنباء من الكتب) • فقد بدأها بالاستهزاء بالمنجمين والسخرية منهم ومن علمهم الذي حاولوا فيـــه أن يثنوا الخليفة عن عزمه فقال :

السـيـف أصدق أنبـاء من الكتب
في حده الحـد بين الجـد واللعب

بيض الصفائح لا سـود الصحائف في
متونهـن جـلاء الشـك والريب

والعلم في شـهب الارماح لامعـة
بين الخمسين لا في السـبعة الشـهب

أين الروايـة أم أين النجـوم وما
صاغوه من زخرف فيهـا ومن كذب

تخرصـاً وأحاديثـاً ملفقـة
ليست بنبـع اذا عدت ولا غـرب

ويبدو أن فتح عمورية كان حدثاً جللا بالنسبة للمسلمين وللشـاعر نفسه ، اذ نراه يسبغ عليه صورة من التهويل والتعظيم ، فيقول :

فتح الفتوح تعـالى ان يحيـط بـه
نظم من الشـعر أو نثـر من الخطب

فتـح تفتـح أبـواب السـماء لـه
وتبرز الارض في أثوابهـا القشـب

بل ان الشاعر يرى أن انتصار المعتصم هذا يعيد الى الاذهان انتصـار

المسلمين ببدر :

ان كان بين صـروف الدهر من رحم
موصولة أو ذمـام غـير منقضـب

فبين أيامك الـلاتي نصرت بهـا
وبين أيـام بـدر أقرب النسـب

ويصور لنا الطائي أهمية عمورية بالنسبة للروم وامتناعها على الفاتحين فيقول :

أمّ لهم لو رجوا أن تفتـدى جعلـوا
فداءهـا كـل أمّ منهـم وأب

بكـر فما افترعتهـا كف حادثـة
ولا ترقت اليهـا همـة النـوب

ثم يصور اشعال المدينة واحراقها فيقول :

لقـد تركت أمـير المؤمنين بهـا
للنـار يوماً ذليل الصـخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليـل وهو ضحى
يشـله وسطها صبـح من اللهـب

حتى كـأن جلابيب الدجـى رغبت
عن لونهـا أو كأن الشمس لم تغب

ويمضى الطائي في وصف ما حل بجيش الروم ورئيسها من القتـل والدمار والفرار ، ويظهر فرحه بما آلت اليه عمورية من الخراب الشامل ، ثم لا ينسى أن يعود الى مدح الخليفة وتبيان همته وبطولته وذوده عن حوزة الاسلام والمسلمين .

ويشير كذلك في قصيدته هذه الى من استغاث بالخليفة من المسلمين ابان اعتداء الروم عليهم ، فقد قيل ان امرأة من أهل زبطرة صاحت وهي مسبية (وامعتصماه) وحين نقل الخبر الى الخليفة قام نافرا وجهز ما جهز من جيوش :

لبيت صـــوتاً زبطريـاً هرقت لـــه
كأس الكرى ورضـاب الخرد العرب

أجبتـــه معلنـــاً بالسـيف منصلتاً
ولو أجبت بغير الســـيف لـم تجب

ويختم الطائي قصيدته أو انشودته الحربية هذه بالثناء على الخليفـة لما تجشمه من مصاعب وتحمله من أعباء ، ولا ينسى أثر قومه العـرب في هذه المعركة المشهورة :

خليفـة الله جازى الله ســـعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحســب

بصرت بالراحة الكبرى فلـم ترهـا
تنـــال الاعـلى جســـر من التعـب

أبقت بنـــي الاصفر المصفر كأسمهم
صفر الوجـوه وجلت أوجـه العرب

الحق أن بائية أبي تمام هذه ، تمثل قمة شعره الحربي كما أسلفنا ، ويبدو أن الشاعر قد أودعها كل ما أمدته به قريحته الشاعرة من ســـمو المعاني ، وجمال الالفاظ ، وفيض العاطفة ، ويبدو لنا أن الشاعر وان جنح في كثير من أبياتها الى استخدام البديع ، فان بديعه هذا جاء وكأنه عفـو الخاطر ، لا أثر للصنعة فيه أو الكلفة ، بل أن الشاعر ـ كما يظهر لنا ـ حاول في قصيدته هذه أن يتنكب عن وعورة المعاني وعويصها ، ويجانـب

غرابة الالفاظ وحوشيها ، وكأني به أراد بها أن تكون انشودة حربية تترنم فيها الاجيال كلما حزب أمر وأدلهم خطب ! وكان على حق ما قاله أحد الادباء في تقريظ هذه البائية (•• واما الشعر فلا أعرف ـ مع كثرة مدحي له وشغفي به في قديمه ولا حديثه ـ أحسن من قول أبي تمام في المعتصم بالله ، ولا أبدع معاني ، ولا أكمل مدحا ، ولا أعذب لفظا •• هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل ؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلون بذلك ، وهذا كله بديع جيد)[١٧٥] •

ولا أدل على روعة القصيدة ووقوعها الحسن من نفس المعتصم ـ وهو يصغي اليها ـ من مخاطبته ـ اذا صح الخبر ـ الطائي بقوله : « لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها •• »[١٧٦] •

ويخيل الينا أن قصائد أبي تمام الحربية بعامة وقصيدته العمورية بخاصة كانت ذات أثر كبير في خلق شعر حربي عربي قوي لدى من أعقب الطائي من الشعراء[١٧٧] •

ويموت المعتصم في مدينته الجديدة ، ويخلفه ابنه الواثق ، فيقدم اليه الطائي بمدحة له يهنئه فيها بالخلافة ، ويرثي في مقدمتها أباه المعتصم رثاء لا يخلو من حرارة العاطفة وصدق الشعور ، فيقول :

ما للدموع تروم كل مرام
والجفن ثاكل هجعة ومنام

يا حفرة المعصوم تربك مودع
ماء الحياة وقاتل الاعدام

---

(١٧٥) اخبار ابي تمام ص١٠٩ •
(١٧٦) زهر الآداب ٢/٣٩٨ •
(١٧٧) انظر ظهر الاسلام لأحمد أمين ١/٦٤ ـ ٦٥ •

ان الصفائح منك قد نضدت على
ملقى عظام لو علمت عظام

فتق المدامع ان لحدك حله
سكن الزمان وممسك الايام

ومصرف الملك الجموح كأنه
قد زم مصعبه له بزمام

هدمت صروف الموت أرفع حائط
ضربت دعائمه على الاسلام(١٧٨)

ثم ينتقل الى مدح الخليفة الجديد ، فيقول :

ما ان رأى الأقوام شمساً قبلها
أفلت فلم تعقبهم بظلام

أكرم بيومهم الذي ملكتهم
في صدره وبعامهم من عام

لو لم يكن بدعاً لقد نصبوا له
سمة يبين بها من الاعوام

لما دعوتهم لاخذ عهودهم
طار السرور بمعرق وشآم

فكأن هذا قادم من غيبة
وكأن ذاك مبشّر بغلام

---

(١٧٨) ديوان ابي تمام ٣/٢٠٣ .

لـــو يقــدرون مشــوا على وجناتهم
وعيونهم فضــلاً عن الاقــدام[١٧٩]

وحاول الطائي أن يتقرب الى أحمد بن المعتصـم في حياة أبيه ، وله فيه قصيدتان : احداهما قالها في مرضه ، وثانيتهما السنية التي أنشدهـا الممدوح ، وكان في مجلسه ـ كما تقول الروايات ـ الفيلسوف الكندي ، وحين وصل الشاعر الى قوله :

اقــــدام عمرو في سـماحة حاتــم
فــي حلـم أحنف في ذكــاء اياس

اعترضه الكندي قائلا ـ محاولا احراجه والايقاع به ـ ان الامـير فوق من وصفت ، فأطرق الشاعر قليلا ثم اندفع في انشاده :

لا تنكــروا ضربي لـــه من دونـــه
مثلاً شـروداً فــي النــدى والباس

فالله قــد ضرب الاقــــل لنـــوره
مثـــلاً من المشــــكاة والنبــراس

فأعجب الفيلسوف ومن معه بسرعة بديهة الطائي وفطنته . ويبدو أن هذه الحادثة ـ ككثير غيرها ـ قد تعرضت الى اضافات الرواة حتى بعدت عن حقيقتها الاصلية[١٨٠] .

ويبدو كذلك أن أبا تمام لم يكن يتوخى من مدحه ابـن المعتصـم ـ وهو طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره ـ سوى الزلفى ونيل العطـاء ، فهو لم يراع ما كان عليه الممدوح من صغر السن وقلة الادراك لمعاني شعره

---

(١٧٩) ديوان ابي تمام ٢٠٦/٣ .
(١٨٠) أنظر : أخبار ابي تمام ص٢٣٠ ، ووفيات الاعيان ٣٣٧/١ .

العميقة . كما ان اسباغ الصفات الجليلة كالشجاعة والكرم والحلم والذكاء وما الى ذلك على طفل لم تظهر عليه مخايل النجابة بعد ، أمر لا يخلو من الغلو والافراط في تكلف المدح . وكان بمقدور الشاعر أن يتوسم لـــه بهذه الصفات في مستقبل حياته ، وان كانت الايام قد أظهرت أن الممـدوح كان عريا من أكثر الصفات التي أسبغها عليه الشاعر .

وأكبر الظن أن طفلا كابن المعتصم لم يكن بوسعه ان يفهم قـــول الطائي حين أنشده أبياتا له في مرض ألم به :

من الاولى يستجاب من شرق الدهـ
ـر بهـــم ان ألـــم أو (جرضه)

صاغهم ذو الجلال من (جوهر) المجـ
ـد وصاغ الانام من (عرضه)(١٨١)

وقوله من قصيدته السينية :

ان الذي خلـــق الخلائـــق قاتهـــا
أقواتهـــا لتصـــرف الاحـــراس

هدأت عـــلى تأميـــل أحمـد همتي
وأطاف (تقليدي به وقياسي)(١٨٢)

ويظهر أنه على الرغم من شهرة الطائـــي وقدرته الفائقـــة في التعبير والتصوير وابتكار المعاني والغوص عليها ، وبالرغم من محاولته التقـــرب الى الخلفاء وأولادهم ، فانه لم ينل من الجوائز والعطايا ما ناله غيره مـــن الشعراء الكبار الذين ترددوا على هذه المدينة ، واتصلوا بخلفائها ووزرائها ! فهناك أكثر من حادثة تبين لنا ان المعتصم والواثق لم يكونا كريمين مـــع

---

(١٨١) ديوان ابي تمام ٣/٣١٧ .
(١٨٢) نفسه ٣/٢٤٦ .

هذا الشاعر ، كما تعودنا منهما أو من غيرهما لمادحيهم ، فنحن نعرف أن المعتصم ملأ فم الحسين بن الضحاك جوهرا حين مدحه في أول خلافته بقصيدته التي مطلعها :

هــلا سـألت تلـــدد المشـــتاق
ومننت قبـــل فراقـــه بتـلاق[(١٨٣)]

وكثيرا ما كان الوزراء والقضاة الذين تربطهم بالشاعر علاقة حسنة يبذلون جهوداً لاقناع المعتصم والواثق باسناء الجائزة له . فقد روى أحدهم أن أبا تمام حدثه بانه امتدح المعتصم بسامراء بعد فتح عمورية ، فذكره ابن أبي دواد للمعتصم ، فأجابه : أليس الذي أنشدنا بالمصيصة الاجش الصوت ، فقال ابن أبي دواد : يا أمير المؤمنين ، ان له راوية حسن الصوت فسمح له بالانشاد وأمر له (بدراهم كثيرة) وأعطاه بذلك صكا الى اسحاق ابن ابراهيم المصعبي الذي أجازه على مديحه بما يقارب جائزة المعتصم ، ويبدو ان اسحاق لحظ أن جائزة الخليفة قليلة ، فعلق على جائزته بقوله : « والله لو أمر لك أمير المؤمنين بعدد الدراهم دنانير لأمرت له بذلك »[(١٨٤)] ومثل ذلك ما روي من أن الواثق قال لاحمد بن أبي دواد ، قاضي قضاته آنذاك : بأن أحدهم ذكر بأنك أعطيت شاعرا ــ وهو أبو تمام ــ ألف دينار فأنكر ابن أبي دواد ذلك ، وحاول أن يدافع عن أبي تمام ويصـفه بأنه « شاعر مداح لامير المؤمنين مصيب محسن » وانه أعطاه خمسمائة دينـار مراعاة لقوله فيه من قصيدة يمدح بها المعتصم :

فاشدد بهـــا رون الخلافـــة انـــه
سكن لوحشـــتها ودار قـــرار[(١٨٥)]

---

(١٨٣) انظر الاغاني ١٥٣/٧ (دار الكتب) .
(١٨٤) اخبار ابي تمام ص١٤٤ المصيصة : بلدة بالشام .
(١٨٥) المصدر نفسه ص١٤٤ .

وأوصل يوما محمد بن عبدالملك الزيات ، وكان على صلة حسنة بأبي تمام ـ الى الواثق قصيدة له يمدحه فيها ، أولها :

وأبي المنـــازل انهـــا لشـــجون
وعـــلى العجومـــة انهـــا لتبـــين

فقرئت عليه ، فلما بلغ الى قوله :

جاءتك من نظـم اللســـان قـــلادة
سمطان : فيهـــا اللؤلـــؤ المكنـــون
حذيت حـــذاء الحضرميـــة أرهفت
وأجابهـــا التخصـــير والتلســـين
انســـية وحشـــية كثـــرت بهـــا
حركات أهل الارض وهـــي سكون
أمـــا المعانـــي فهـــي أبكـــار اذا
نصـــت ولكـــن القوافـــي عـــون

فقال له : ادفع له (مائتي دينار) • فقال محمد : انه قوى الامـــل واسع الشكر • قال : فاضعفها له(١٨٦) • وهكذا يتبين لنا من هذه الشواهد أن الشاعر لم يكن محظوظا لدى الخلفاء • ولامر ما قبل أن يتولى البريد في الموصل ، ويؤثر ذلك على الاقامة في كنف الخلفاء •

ويخيل الينا أن أبا تمام لم يحاول أن يرقق من شعره ليلذ فهمه لدى الخلفاء ، ولم ينصح له أحد من أصدقائه المقربين أن يفعل ذلك ـ كمـــا نصح الفتح بن خاقان للبحتري في مدحه المتوكل • وقد أحس بعض اخوان

(١٨٦) اخبار ابي تمام ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ الحضرمية : النعال المنسوبة الى حضرموت • ونعل مخصرة : اذا كان لها خصران ، وملسنة : اذا كـانت تستدق من طرفها الذي يلي الاصابع • نصت : رفعت •

أبي تمام بذلك ، فسأله الحسن بن وهب مرة : « أفهم المعتصم بالله من شعرك شيئا ؟ » فأجاب : بأنه استعاد منه قوله :

وان أسمج من تشكو اليه هوى
من كان أحسن شيء عنده العذل

ثلاث مرات واستحسنه(١٨٧) •

والحق أن أبا تمام قلما نزه شعره من الالفاظ الغريبة والمعاني العويصة ، وكان معروفا بذلك لدى الشعراء والادباء في عصره • وهناك أكثر من خبر يشير الى ما وجه للشاعر من لوم وانتقاد في هذا الصدد(١٨٨) ويخيل الينا أن الطائي لم يحفل بما أوصى به البحتري ـ اذا صحت هذه الوصية ـ في كيفية معالجة القريض ، اذ أثر عنه انه أوصاه بقوله : « فاذا أخذت في مديح سيد ذي أياد فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه •• ونضد المعاني ، واحذر المجهول منها ، واياك أن تشين شعرك بالالفاظ الرديئة •• »(١٨٩) •

ومما تجدر ملاحظته اننا لم نجد في شعر أبي تمام ما يدل على انه وصف قصرا أو أثرا من آثار سامراء ، على الرغم من أن المدينة كان قد مضى على انشائها الى حين وفاته عشر سنين •

وتوفي أبو تمام في الموصل سنة احدى وثلاثين ومائتين ، وحين سمع

---

(١٨٧) اخبار ابي تمام ص٢٦٧ • تشير بعض المصادر الى ان ابا تمام أنشد القصيدة التي منها هذا البيت جماعة من الشعراء في بغداد فاستحسنوها واحتفوا بالشاعر واكرموه (تاريخ بغداد ٨/٢٤٩) وسرح العيون لابن نباتة ص٣٢٥ •

(١٨٨) أنظر : اخبار ابي تمام ص٧٢ ، والموازنة للآمدى ١/٦ ، ٢٥ ، والموشح للمرزباني ص٤٨٠ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ والصناعتين للعسكري ص٤٦ ، والعمدة لابن رشيق ٢/٢٦٦ •

(١٨٩) زهر الآداب ١/١٢٠ ، والعمدة ٢/١٠٤ •

الواثق بنعيه التفت الى محمد بن عبدالملك الزيات وقال « قد غمني موت الطائي الشاعر »(١٩٠) .

أبو عبادة البحتري :

يعد بحق شاعر سامراء الاكبر ، اذ تهيأ له من العبقرية الشعرية ، وطول الاقامة ، وتقريب الخلفاء والكبراء له ، ما بوأه منزلة فريدة بين أنداده من الشعراء . فقد أمضى فترة طويلة من عمره في ربوع سامراء بل وقضى زهرة حياته وشبابه في هذه المدينة ، وقد أحس هو بذلك ، فقال حين طولب في أيام المعتمد بما طولب به غيره من الناس ـ بسبب الضائقة المالية للخلافة ـ برد الاقطاعات ونقص الايغارات :

أمرتجع مني حباء خلائف
تو ليت تسيير المديح لهم وحدي

ولم يشتهر الا الذي قلت فيهم
وان رفدوا يوما وزادوا على الرفد

فان أخذ الايغار أخذ صريمة
ودارت على الاقطاع دائرة الرد

ولم يغن توكيد السجلات والذي
تناصر فيها من ضمان ومن عقد

فردوا القوافي السائرات بمدحكم
وما أكسبتكم من ثناء ومن مجد

وشرخ شباب قد نضوت جديده
لديكم كما ينضو الفتى سمل البرد(١٩١)

---

(١٩٠) اخبار ابي تمام ص٢٧٢ .
(١٩١) ديوان البحتري ٤٩٣/١ طبعة الصيرفي ، واخبار البحتري ص١٠٨ .

من أجل هذا كان ديوانه سجلا حافلا ، ومصدرا خصبا لما كان يدور في هذه المدينة من أمور سياسية وتاريخية وعمرانية وغيرها • فقد ظل شاعر البلاط الاول منذ عهد المتوكل الى أيام المعتز • وله في هؤلاء ومن جاء بعدهم مدائح كثيرة سنشير الى بعضها بعد قليل •

وكانت سامراء مدينة لهذا الشاعر الذي لم يأل جهدا في تخليد آثارها ، بما نظمه في قصورها وبركها ومساجدها من قصائد رائعة سنشير الى الكثير منها في الفصل القادم •

والحق انه لا سبيل الى تحديد السنة التي أخذ الشاعر يتردد فيها على هذه المدينة ورجالها ، فليس في ما أثر عنه من شعر شيء يشير الى اتصاله بالمعتصم أو الواثق ، وكل ما له في ذلك أبيات من قصيدة في مدح محمد بن يوسف الثغري يشير فيها الى رثاء المعتصم والاشادة بابنه الواثق[١٩٢] • وأكبر الظن أن البحتري أخذ يختلف الى سامراء في عهد الواثق ، ولكنه لم يتهيأ له الاتصال به ، وان اختلافه اليها ازداد بعد وفاة الواثق ، فأخذ يتقرب بشعره الى صغار الكتاب آملا أن يذيع صيته ، وراجيا أن يصلوه بالامراء والوزراء ومن ثم بالخليفة ••• وما لبث البحتري أن اتصل بالفتح بن خاقان وزير المتوكل وخدينه فأعجب به وبشاعريته ، وأكرمه وحباه ، ووعده بأن يصله بالخليفة المتوكل • ويبدو أنه أبطأ عليه بعض الشيء فقال يستعجله في ذلك :

وعدت فأوشك نجح وعدك ، انه
من المجد اعجال المواعيد بالنجح
وأنت ترى نصح الامام فريضة
واخباره عني سبيل من النصح[١٩٣]

(١٩٢) ديوانه ٢/٨٨٢ • طبعة الصيرفي •
(١٩٣) نفسه ١/٤٤٥ •

ويبر الفتح بوعده ، فيقدم الشاعر الى المتوكل ، وتتصل أسبابه بـه وبوزيره • والحق ان أكثر شعر البحتري وأجوده وأروعه كان في خلفاء هذه المدينة ورجالها ، وبخاصة المتوكل والفتح والمعتز •

وقد نال ـ جزاء عصارة قريحته فيهم ـ أموالا طائلة ، حتى أصبح يعد من ذوي الثراء والضياع[١٩٤] • وبعد أن كان يلحف في المسألة ليعطي أثوابا تقيه قر البرد[١٩٥] ، أمسى يستجديه الشعراء بعض ما حصل عليه من جباب الخلفاء[١٩٦] •

وليس بمقدورنا ـ بطبيعة الحال ـ ولا من أهداف رسالتنا ـ تفصيل علاقة الشاعر بخلفاء هذه المدينة ورجالها ، ولكننا ـ مع ذلك ـ سنلمح الى شيء من هذه العلاقة ، بقدر ما تتحمله طبيعة البحث •

مما لا مراء فيه أن الشاعر وجد أمله العريض ، وغايته القصوى في كنف المتوكل ، وانه أعد نفسه ليكون شاعر البلاط الاول ، وقد نجح في ذلك كثيرا •

لقد خلد البحتري في شعره كثيرا من أعمال المتوكل العمرانية[١٩٧] كما سجل كثيرا من الاحداث المختلفة • فهذا ابنه المعتز يدرك الحلم ، ويبلغ مبلغ الرجال فيدخل الشاعر على أبيه وينشده مهنئا من قصيدة :

يا كالىء الاسلام في غفلاته
ومقيم نهجي حجه وجهاده
تهنيك في المعتز بشرى بينت
فينا فضيلة هديه ورشاده

---

(١٩٤) انظر اخبار البحتري ص١١٩ •
(١٩٥) ديوان البحتري ٢/٨٣٧ • طبعة الصيرفي •
(١٩٦) اخبار البحتري ص١٣٢ •
(١٩٧) انظر الفصل الثالث من هذا البحث •

قد أدرك الحلم الذي أبـــدى لنـــا
عن حلمــه ووقـــاره وســدإده

ومبــارك ميــلاد ملكك مخبـــر
بقريب عهـــد كـــان من ميــلاده

تمت لـك النعمـاء فيـه ممتعـاً
بعلـــو همتــــه ووری زنــــاده

وبقيــت حتــى تستضــيء برأيــه
وتـــرى الكـــول الشيب من أولاده

ويهتز المتوكل لهذا الشعر ، فيطلب الى الشاعر اعادتـه ، فيعيـده ، فيقول : آمين ، ويرد الناس بعده آمين(١٩٨) .

ويحاول المتوكل احداث تغيير في النيروز ليتسنى له تأخير الخراج ـ وهو عمل تعود فائدته على الفلاحين والمزارعين ـ فينشىء الشاعر قصيدة يمتدح فيها هذا العمل والقائم به فيقول :

ان يــوم النـيروز عـــاد الى العهـ
ـد الـــذي كان ســـنه أردشـــير

أنت حولتـــه الى الحالـــة الاو
لى ، وقـد كان حائـراً يستدير

وافتتحـــت الخـــراج فيـــه فللأمـ
ـــة فــي ذاك مرفـق مذكـور

منهم الحمـد والثنـــاء ومنـــك الـ
ـعدل فيهم ، والنائل المشـكور(١٩٩)

---

(١٩٨) الديوان ٢/٧٠٤ ، والاخبار البحتري ص٩٤ .
(١٩٩) الديوان ٢/٩٠٢ ، واخبار البحتري ص٩٥ .

ويشق أهل حمص عصا الطاعة على الخليفة فيعفو عنهم ويقضى على فتنتهم ، فيسجل الشاعر هذه المأثرة للمتوكل فيقول :

تداركت بالاحسان حمص وأهلها
وقد قاربوا فعل الاساءة والخرق

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا
سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق

وما عاينوا شمسين قبلهما التقى
ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق[٢٠٠]

وحين يشخص المتوكل الى الموصل على رأس جيش بقصد غزو الروم ، نجد البحتري يسجل هذا الحادث في قوله :

بكرت جيادك والفوارس فوقها
بالمشرفية والوشيج الذبّل

غرّاً محجلة تحاول وقعة
بالروم في يوم أغر محجل

وأظن انك لا ترد وجوهها
حتى تنيخ على الخليج بكلكل

لو كنت أحسد أو أنافس معشراً
لحسدت أو نافست أهل الموصل

غشي الربيع ديارهم وغشيتها
وكلاكما ذو بارق متهلل

(٢٠٠) الديوان ١٥٦٦/٣ وانظر ايضا المصدر نفسه ١٣٠٠/٢ ، ١٥١١/٣ حيث يشير الشاعر الى ما وقع بين بني تغلب من الخلاف وتدخل الخليفة لفضه .

سـفر جلوت بـه العيون فأبصرت
وفرجت ضيقة كـل قلب مقفل[٢٠١]

والبحتري بحكم كونه شاعر الخليفة كان ـ كبقية الشعراء الاخرين الذين عاشوا في القصور ـ مطالبا بالتيهؤ للتعبير عما يجول في أفكار الخليفة وما يطلبه منه من تصوير لما يقع بينه وبين جواريه من أمور ٠ فمن ذلـك أن جارية من جواري المتوكل اجتازت به وهي تحمل كوز ماء لزوجتـه قبيحة ، فسألها عن اسمها ، فقالت : (برهان) فتناول الكوز من يدهـا وشربه ، ثم طلب الى البحتري أن يقول في هذا شيئا ، فقال :

ما شربة من رحيق كأسـها ذهـب
جاءت به الحور من جنـات رضوان

يومـاً بأطيب من مـاء بلا عطش
شربته ـعبثاًـ من كف رضوان[٢٠٢]

وحدث مرة أن خلافا وقع بين المتوكل وزوجته قبيحة ، فأقامت في قصر بعيد عنه ، فأمر المتوكل البحتري أن يعمل شعرا على لسانه ، ورسم له ما يريد ، فقال :

تعاللت عن وصـل المعنّى بك الصب
وآثرت بعد الدار منـا على القرب

وحملتني ذنـب الفـراق ، وانـه
لذنبك ، ان أنصفت في الحكملا ذنبي

---

(٢٠١) الديوان ٣/١٦٢٦ ، وانظر ايضـا المصـدر نفسه ٣/١٦٠١ حيث يشير الشاعر في قصيدة له الى الفـداء بين الروم والمسـلمين على يـد المتوكل ٠

(٢٠٢) الاغاني ١٨/١٧ ساسي ٠

ووالله ما اخترت السلو علـى الهوى
ولا حلت عمـــا تعهدين مـن الحب

ولا ازداد الا جـــدة وتمكنـــاً
محلك من نفسي ، وحظك من قلبي

فلا تجمعي هجراً وعتباً فلم أجد
جليداً على هجر الاحبة والعتب(٢٠٣)

ويطول بنا المدى لو أردنا أن نسترسل مع الحوادث وتسجيل الشاعر لها ، كما يتسع بنا البحث ويتشعب لو توخينـا أن نسوق كـل ما قالــه البحتري في هذا الخليفة وهو شيء غير قليل ! على اننا نرى من الضرورة التمثيل بأجزاء من بعض مدائحه فيه ، وعلى الرغم من أن أكثر عناصــر المدح عنده ليس جديدا ، الا أن طاقة الشــاعر الفنيــة ومكنته الادبية ، ومقدرته على اجتباء الالفاظ ، واحتفاءه بموسيقاها كل ذلـك أسبغ عـــلى مدائحه حلة قشيبة ، ولونا زاهيا أحالها الى نماذج رائعة في بابها •

قال يمدحه ويشير الى خلافته :

ان الخلافــة لمــا اهتز منبرهــــا
بجعفــر أعطيت أقصى أمانيهــــا

أبدى التواضع لمـــا نالهـــا رعـــة
منه ، ونالتــه فاختالت بـــه تيهـــا

اذا تجلـــت لـــه الدنيـــا بحليتها
رأت محاســـنها الدنيـــا مساويها

---

(٢٠٣) الديوان ١/١٢٩ طبعة الصيرفي ، وأخبار البحتري ص٩٤

ما زلت بحراً لعافينا فكيف وقد
قابلتنا ولك الدنيا بما فيها(٢٠٤)

وقال أيضا فيه :

اليوم أطلع للخلافة سعدها
وأضاء فيها بدرها المتهلل

لبست جلالة جعفر فكأنها
سحر تجلله الصباح المقبل

فكأنما الدنيا هنالك روضة
راحت جوانبها تراح وتوبل

أو ما ترى حسن الربيع وما بدا
وأعاد في أيامه المتوكل

أشرقن حتى كاد يقتبس الدجى
ورطبن حتى كاد يجري الجندل(٢٠٥)

وقال أيضا هذه الابيات من قصيدة له فيه ، وقد أكثر فيها من التقسيم الذي كان مولعا به :

يا ثمال الدنيا عطاء وبذلاً
وجمال الدنيا سناء ومجدا

وشبيه النبي خلقاً وخلقاً
ونسيب النبي جداً فجدا

(٢٠٤) ديوان البحتري ٢٤٢١/٤ .
(٢٠٥) نفسه ١٧٥٤/٣ تصف المصادر أيام المتوكل بأنها أنضر الايام وأحسنها مروج الذهب ٤/٤ (طبعة دار الاندلس) .

بـــك نستعتب الليــــالى ، ونستعـ
ـــدي على دهرنا المسيء فنعدى(٢٠٦)

واذا كانت حياة المتوكل قد أوحت الى الشاعر ما أوحت من روائـع القصيد ، فان موته قد أوحى اليه بتلك الرائية الخالدة التي بكى فيها ولي نعمته أحر بكاء ، حتى كاد يعدو طوره ، فقـــد كان فيهـــا من الجرأة والصراحة والتشهير بابن الخليفة المتهم بقتل والده ، ما لا يمكن السكوت عليه ، فكانت مرثيته هذه ـ بحق ـ كما قال فيها ثعلب « ما قيلت هاشـمية أحسن منها ، وقدصرح فيها تصريح من أذهلتـــه المصائب عـن تخوف العواقب »(٢٠٧) • وقد أشرنا الى أبيات من هــذه القصيدة ، وما اشتملت عليه من خصائص عند الكلام على قصر الجعفري(٢٠٨) ، وأما ما لم نشر اليه منها فقوله يصف ما حل بالخلافة بعد مصرع صاحبها ، ويشـــير الى مغتاليه ، ويعرض بأبنه وولي عهده المنتصر :

فأين الحجاب الصعب حـــين تمنعت
بهيبتهـــا أبوابـــه ومقاصـــره ؟

وأين عميـــد الناس في كل نوبـــة
تنوب ، وناهي الدهر فيهم وآمره ؟

تخفَّـــى لــه مغتالـه تحت غـرة
وأولى لمن يغتالـــه لـــو يجاهـــره

فمــــا قاتلت عنـــه المنايا جنـــوده
ولا دافعـــت أملاكـــه وذخائـــره

(٢٠٦) ديوان البحتري ٢/٧١٣ •
(٢٠٧) زهر الاداب ١/٢٢٩ ، وانظر ديـوان البحتري ٢/١٠٤٥ الحاشية •
(٢٠٨) أنظر الكلام على قصر الجعفري •

ولا نصـــر المعتز من كـــان يرتجى
له ، وعزيز القوم من عز ناصـــره

صريع تقاضاه الســـيوف حشاشـــة
يجود بهــــا والموت حمر أظافـــره

أدافع عنـــه باليدين ، ولم يكـــن
ليثني الاعادي أعزل الليل حاسره

ولو كان سيفي ســـاعة القتل في يدي
درى القـــاتل العجلان كيف أساوره

حرام عليّ الـــراح بعـــدك أو أرى
دمـــاً بدم يجري على الارض مائره

وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر
يد الدهـــر والموتور بالدم واتره

أكان ولي العهـــد أضمر غـــدرة؟
فمن عجب أن ولّي العهد غادره

فلا ملّى الباقـــي تراث الـــذي مضـــى
ولا حملت ذاك الدعاء منابره(٢٠٩)

وهكذا تنطوي الصفحة الاخيرة من حيـــاة المتوكل بمأساة اغتياله ، ويعقبه ابنه وولي عهده المنتصر ، فيهنئه الشـــاعر بقصيدة لا تخلو مـــن التكلف ، وان أجاد في سبكها ، وأكثر من التقسيم في أبياتها منها قولـــه ، وقد أشار الى حجه بعد مقتل المتوكل :

---

(٢٠٩) الديوان ١٠٤٧/٢

حججنا البنيَّة شكراً لما
حبانا به الله في المنتصر

من الحلم عند انتقاص الحلو
م ، والحزم عند انتقاض المرر

تطوّل بالعدل لما قضى
وأجمل في العفو لما قدر

ودام على خلق واحد
عظيم الغناء ، جليل الخطر

تلافى الرعية من فتنة
أظلهم ليلها المعتكر

بحزم يجلّى الدجى والعمى
وعزم يقيم الصغا والصغر(٢١٠)

وتنتهي حياة المنتصر بعد أشهر من استخلافه ويخلفه المستعين ، فينشىء فيه البحتري بعض الاماديح لا تخلو هي الاخرى من التكلف الظاهر ، ولعل أحسن ما قاله فيه قوله :

بقيت مسلّماً للمسلمينا
وعشت خليفة لله فينا

فقد أنسيتنا ـ عدلاً وبذلاً ـ
ابوّتك الهداة الراشدينا

اذا الخلفاء عدوا يوم فخر
سبقت سراتهم سبقاً مبيناً

---

(٢١٠) الديوان ٢/٨٤٩

وقيناك المنـــون ، وان حظـــاً
لنـا في أن نوقّيك المنونـا(٢١١)

ويبدو أن البحتري لم يكن في قرارة نفســـه من محبي المستعين والمعجبين به ، فما كاد الصراع ينشب بينه وبين المعتز حتى نـراه يقف الى جانب الثاني ، ويقذف الاول بكثير من قوارص هجائه ، ولعل مـــن أشد ما هجاه به قوله بعد خلعه واستخلاف المعتز مكانه :

متى أمّل الدّيّاك أن تصطفى له
عرى التاج أو تثنى عليـــه عصـائبه

فكيف ادعى حق الخلافـــة غاصب
حوى دونـــه ارث النبي أقاربـــه ؟

بكى المنبر الشرقي اذ خـار فوقـــه
على الناس ثور قـــد تدلت غباغبـــه

ثقيـل على جنب الشريد ، مراقب
لشخص الخوان يبتـــدى فيواثبـــه

الى كسكر خلف الدجاج ولـم تكن
لتنشب الا في الدجاج مخالبـه(٢١٢)

ويظهر ان الحياة تبسمت للبحتري في سامراء مرة أخرى في عهـــد المعتز بن المتوكل ، فقد وجد في كنفه من الرعاية والاكرام ما كان وجده

---

(٢١١) الديوان ٤/٢٢٥٨ ٠

(٢١٢) نفسه ١/٢١٤ الغباغب : جمع الغبغب : وهو من الديك والثور ما تغضن من جلد منبت العنق الاسفل ٠ كسكر : كورة واســـعة ينسب اليها الفراريج الكسكرية ٠

في عهد أبيه ، فانطلق الشاعر يتغنى بأعماله العمرانية[٢١٣] ، ويشيد بحروبه مع الخارجين عليه[٢١٤] ، ويظهر أن المعتز قد أجزل له العطاء وأفاض عليه من نعمه حتى نجد الشاعر يقول له من قصيدة فيه :

حملت على عشر من البرد مركبي
عجالاً عليهن الشكيم المحلّق

وأكثرت زادي من بدور تتابعت
بجودك فيهن اللجين المطرّق

ومنتسبات للوجيه ولاحق
كميت يسر الناظرين وأبلق

ومن خلع فازت بلبسك فاغتدى
بها أرج من طيب عرفك يعبق[٢١٥]

والواقع أن شعر البحتري في المعتز يعيد الى الذاكرة شعره في أبيه الذي كان ينبض بحرارة العاطفة وصدق الشعور ، والذي جهد الشاعر أن يسكب فيه عصارة ذهنه ، ويضفي عليه روائع فنه ، قال من قصيدة في مدحه وهجاء المستعين :

لم يزل حقك المقدّم يمحو
باطل المستعار حتى اضمحلا

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ
دد والمجد والمكارم مثلا

---

(٢١٣) أنظر الكلام على قصور المعتز في الفصل الثالث .
(٢١٤) أنظر الديوان ٢/١٠٠٤ ، ٣/١٧٢٩ ، ٢٠١٩ ، ٤/٢٢٧٤
(٢١٥) الديوان ٣/١٥٣٧

أنت أندى كفاً ، وأشرف أخـلا
قاً ، وأزكى قولاً ، وأكرم فعلا(٢١٦)

وقال من قصيدة أخرى له فيه أيضا :

ضرب كنصل السيف أرهف حـده
وأضـــاء لامـــع رأيـــه المترقرق

ومهذب الاخلاق يعطفـــه النـــدى
عطف الجنوب مـــن القضيب المورق

طلق فان أبـدى العبوس تطأطـــأت
شوس الرجال وخفضّت في المنطق(٢١٧)

ويبدو أن الشاعر كان يجد في المعتز الخلف الذي نشده وأشار اليه في أعقاب مرثيته للمتوكل :

واني لارجـــو أن تـــرد أموركـــم
الى خلف مـــن شـــخصه لا يغادره

ولهذا فقد راح يطريه ويخلص في اطرائه ، حتى كان أحيانا يضمن بعض قصائده فيه بعض ما قاله في أبيه المتوكل :

ملـــك مـــا بـــدا لعينيـــك الا
قلت : بحـــر طما ، وبدر تجلّى
لابس حلــة الوقـــار ومن أبهــة السـيف أن يكون محلّى
كلما حصلت مســـاعي قريش
طبت فرعاً في منتماهـا وأصـلا(٢١٨)

---

(٢١٦) الديوان ٣/١٦٥٧ .
(٢١٧) نفسه ٣/١٤٨١
(٢١٨) نفسه ٣/١٦٥٦ .

ولم يفت البحتري أن يشيد في مناسبات شتى ، ومن خلال مدائحه المعتز بابنه عبدالله ، ويخيل الينا أن أحسن ما قاله فيه وأكثره قبولا قوله :

ورأيت عبدالله في السن التي
تعد الكثير بدهرها المتطاول
قمر تؤمله الموالي للتي
يقضي بها المأمول حق الآمل
يرجون منه نجابة شهدت بها
فيه عدول شواهد ودلائل
حدث يوقّره الحجى ، فكأنه
أخذ الوقار من المشيب الشامل
ولقد بلوت خلاله فوجدته
معطى خلال من لديك جلائل(٢١٩)

ويستخلف المهتدي عقب مقتل المعتز ، وينحو منحى فيه صرامة وشدة ، فيأمر بابطال الملاهي ، وبنفي المغنيات والمغنين عن سامراء وبالقضاء على كثير مما كان يجري عليه أسلافه ، ويجهد أن يأخذ الناس بسيرة جديدة ، قوامها الدين والتقوى والورع ، ويلحظ الشاعر اتجاهات الخليفة هذه فيبثها في تضاعيف مدائحه فيه ، يدخل عليه مرة ، فينشده قصيدة يشير فيها الى تقواه وابطاله الملاهي فيقول :

هل الدين الا في جهاد تقودنا
اليه عجالاً أو صلاة تقيمها
تقضت ليالي الشهر الا بقية
تهجّد فيها جاهداً أو تقومها

(٢١٩) الديوان ٣/١٦٥٠

وأيســـر ما قدمت للــه طالبـــاً
لمرضاته أيــام فرض تصومهـــا

هجرت الملاهـــي حســبة وتفرداً
بآيات ذكـــر الله يتلـــى حكيمهـــا

وأخللت باللـــذات وهـــي أوانس
مرابعها مستحسنات رســـــومها

وما ثمن الدنيـــا اذا هـــي لـــم تعن
بآخرة حسناء يبقى نعيمهـــا(٢٢٠)

وينشده من أخرى له فيه أيضا :

لسجادة الســجاد أحسن منظـراً
من التـــاج فـــي إحجارهـــا واتقادها

وللصـــوف أولى بالأئمـــة من ســبا الـ
ـحرير وان راقت بصـــبغ جســـادها

رددت هدايا المهرجان ولـــم تكـــن
لتسخو النفوس الوقـــر عن مستفادها

وعـــاديت أعيـــاد المضلـــين معلنـــاً
ولولا التحري للهدى لم تعادها(٢٢١)

بيد أن هـــذا الخليفة الزاهد لم يمد له في خلافته طويلا ، اذ لقـــي مصرعه على أيدي الثائرين من الاتراك بعد سنة من استخلافه ، فأعقبـــه

(٢٢٠) الديوان ٣/٢٠٢٥ .
(٢٢١) نفسه ٢/٦٧٧ السبا : السبائب ، جمع سبيبة وهي شقة من الثياب أي نوع كان . الجساد : الزعفران ، وهو نبت أصفر الزهر .

المعتمد بن المتوكل ، ويظهر أن الشاعر لم يكن من المترددين عليه كثيرا ، على الرغم من مدة خلافته الطويلة ، فليس له فيــه سوى ثلاث قصائد ، لا ترتفع الى مستوى ما أثر عنه من الشعر الجيد الذي قاله في أبيه المتوكل وأخيه المعتز • ولعل خير شعره فيه قوله :

أيهــا الجــازع أجـواز الفــلا
يطلب الجــدوى من القوم الجمــد
خلِّ عنك الناس لا تغــرر بهــم
واعتمــد بحــر الامــام المعتمــد
ملــك يكفيــك منــه أنــــه
وجــد الدنيــا فأعطى ما وجــد
أشــرقت أيامنـــا في ملكـــه
وازدهت حسناً ليالينا الجـدد(٢٢٢)

الحسين بن الضحاك :

نديم الخلفاء المعروف بالخليع ، اتصل بالمعتصم والواثق والمتوكــل وبقي الى عهد المنتصر ، وله في هؤلاء الخلفاء جميعا أماديح ، كما لــه في اطراء سامراء وفي وصف مجالس الشرب والغناء أشعار كثيرة أشرنا اليها في مواطن مختلفة من هذا البحث •

رزق الحسين دماثة الخلق ، ورقة الطبع ، وكمال الظرف ، وعذوبة الشعر ، فتلقفه الخلفاء الواحد بعد الاخر ، واتخذوه نديما لهم ومنحـوه من عطفهم وحبهم الشيء الكثير ، حتى كانوا يفضون اليه بأسرارهم •

والمعروف عن الحسين أنه بصري المولد والمنشأ ، قدم بغداد في عهد

---

(٢٢٢) ديوان البحتري ٢/٦٦٨

الامين واتصل به في السنة التي قتل فيها ، وقد رثاه وأخلص في رثائه حتى أحفظ ذلك المأمون فجفاه وأطرحه طوال أيام خلافته ، وانطوى الحسين على نفسه منعزلا في البصرة ، حتى اذا ما استخلف المعتصم بعد أخيه المأمون ، وأرسل في طلبه ، نراه يقدم مرة أخرى الى بغداد على رأس وفد بصري وقد أعد لتهنئة الخليفة الجديد قصيدة محكمة البناء أشاد فيها بالخليفة ، وبطاعة الرعية له ، وحذر فيها من تسول له نفسه الخروج عليه ، فكانت خير قصيدة أنشدت في حضرة الخليفة بهذه المناسبة وقد كوفيء عليها بملء فمه جوهرا ، قال فيها :

خير الوفود مبشّر بخلافة
خصت ببهجتها أبا اسحاق

وافته في الشهر الحرام سليمة
من كل مشكلة وكل شقاق

أعطته صفقتها الضمائر طاعة
قبل الاكف بأوكد الميثاق

سكن الانام الى امام سلامة
عف الضمير مهذب الاخلاق(٢٢٣)

وتوطدت العلاقة بين المعتصم والحسين ، حتى اصطحبه معه الى الشام في احدى غزواته(٢٢٤) . وحين ابتنى المعتصم مدينة سامراء وأقطع قواده ورجال دولته فيها الاقطاعات ، نجد الحسين يتبعه ويلتمس منه في أبيات له أن يقطعه أرضا ليشيد عليها دارا له ، فيجاب طلبه ويدفع اليه ألف دينار لابتناء تلك الدار(٢٢٥) .

---

(٢٢٣) الاغاني ٧/١٥٢–١٥٣ (دار الكتب)
(٢٢٤) المصدر نفسه ٧/١٩٣ وأنظر أشعار الخليع ص١١٥
(٢٢٥) أنظر ص ١٦ ـ ١٧ من هذا البحث .

ويبدو أن الحسين لم يشارك كثيرا في تسجيل ما وقع من الحوادث السياسية في عهد المعتصم وهي حوادث كثيرة وخطيرة • وفي ما وصلنا من شعره نتف قليلة ليست بذات بال في هذا الصدد • ومما يروى له في فتح عمورية قوله يخاطب المعتصم :

لم تبق من أنقرة نقرة
واجتحت عمورية الكبرى

ان يشك توفيل بتاريخه
فحق أن يعذر بالشكوى

تفنى بنو العيص وأيامهم
وذكر أيامك لا يفنى

يا رب قد أملكت من بابك
فاجعل لتوفيلهم العقبى(٢٢٦)

واذا لم يكن بوسع الخليع أن يكون المجلى في وصف الحوادث السياسية الخطيرة التي هزت الخلافة العباسية في عهد المعتصم ، فانه – دون شك – الفارس المعلم في حلبات الظرافة والمنادمة ، فهو لا تعوزه الوسيلة في كيفية بعث النشاط والسرور في نفس الخليفة ، اذا ما لمح سيماء الغضب بادية على أسارير وجهه ••• فهذا المعتصم يخرج مرة من حجرة احدى حظاياه كالحا ، فيرمقه الحسين ويفطن الى العلة ، فتسعفه بديهته بأبيات فيها من الخفة والظرافة ، أكثر مما فيها من الاسر والجزالة ، يقول فيها :

انف عن قلبك الحزن
باقتراب من السكن

(٢٢٦) التنبيه والاشراف ص١٤٥ ، وأنظر : أشعار الخليع ص ٢٣ •

وتمتـــــع بكـــرٌ طـــر
فك في وجهـــه الحســـن

ان فيـــه شـــفاء صـــد
رك مـن لاعـــج الحـــزن

وما يكاد الشاعر ينتهي منهـــا حتى يبتسم الخليفـــة ويرجع اليـه نشاطه(٢٢٧) •

وكثيرا ما كان الندماء يتعرضون الى غضب من ينادمونهم وبخاصة الخلفاء • فقد تبدر من النديم أمور قد لا يحتملها الخليفة ، فيتعرض من جرائها الى كثير من التهديد والوعيد والاطراح • والحسين واحـــد من أولئك الندماء الذين تعرضوا في بعض الاحيان الى مثل ذلك ••• غضب عليه المعتصم مرة لامر بدر منه على النبيذ ، وكانت في الخليع عربـــدة ــ فحجبه أياما ، وتوعده بالتأديب ، فضاقت الدنيا بالشاعر ، ولم يجد بدا من اللجوء الى الشعر ، يستعطف فيه الخليفة ، ويعتذر اليه عما بدر منه فأنشأ الابيات الاتية التي جمع فيها بين حسن الاعتذار ، ورقة الاستعطاف :

غضـب الامام أشـــد مـــن أدبـــه
وقد استجرت وعذت مـن غضبـــه

أصـــبحت معتصـــماً بمعتصـــم
أثنـــى الالـــه عليـــه في كتبـــه

لا والـــذي لم يبق لـــي ســـبباً
أرجو النجاة بـــه ســـوى ســـببه

مـــا لـــي شـــفيع غـــير حرمتـــه
ولكـــل مـــن أشـــفى عـــلى عطبـــه

(٢٢٧) الاغاني ١٨٤/٧ (دار الكتب) •

وما كاد الحسين ينتهي من انشادها حتى أزالت ما في نفس الخليفة عليه من موجدة وغضب ، والتفت الى ابنه الواثق قائلا : « بمثل هذا الكلام يستعطف الكرام »[٢٢٨] .

وتنتهي أيام المعتصم بوفاته ، ويخلفه الواثق ، فيقصده الحسين وينشده أبياتا جميلة يعزيه فيها بوفاة والده ، ويهنئه بالخلافة ، فيقول :

ألم يرع الاسلام موت نصيره
بلى حق أن يرتاع من مات ناصره

سيسليك عما فات دولة مفضل
أوائله محمودة وأواخره

ثنى الله عطفيه وألف شخصه
على البر مذ شدت عليه مآزره

يصبّ ببذل المال حتى كأنما
يرى بذله للمال نهباً يبادره

وما قدّم الرحمن الا مقدَّماً
موارده محمودة ومصادره

ويهتز الواثق لهذه الابيات ويثني على الشاعر قائلا « ان كان الحسين لينطق عن حسن طوية ويمدح بخلوص نية »[٢٢٩] .

وللحسين مدحة أخرى في الواثق طويلة ، ولعلها أول مدحة له فيه بعد الاستخلاف ، وقد افتتحها ـ على الطريقة التقليدية ـ بالغزل ثم عرج على وصف السفينة التي أقلته الى سامراء حيث الخليفة ، ومن ثم انتقل الى

---

(٢٢٨) الاغاني ١٦٧/٧
(٢٢٩) المصدر نفسه ١٥٦/٧

الممدوح ، والقصيدة ـ كعامة شعره ـ متينة التركيب ، جيدة المعنى ، منتقاة اللفظ ، منها قوله في وصف السفينة :

الى خازن الله في خلقه
سراج النهار ، وبدر الظلم

ركبنا غرايب زفافة
بدجلة في موجها الملتطم

اذا ما قصدنا لقاطولها
ودهم قراقيرها تصطدم

سكنا الى خير مسكونة
تيممها راغب من أمم

ومنها قوله في المدح :

يضيق الفضاء به ان عدا
بطودى أعاريبه والعجم

ترى النصر يقدم راياته
اذا ما خفقن أمام العلم

وفي الله دوّخ أعداءه
وجرّد فيهم سيوف النقم(٢٣٠)

ويبدو أن علاقة الحسين بالواثق كانت متينة ، فكان يأنس بمنادمته ويدعوه لملاعبته ، ويصطحبه في نزهاته ، ويفضي اليه بأسراره . وكثيرا ما كان يأمر ءبتصوير ما كان يجيش في نفسه ، وما يقع بينه وبين حظياته، فحدث مرة انه كان نائما في حجرة مخصصة له في دار الواثق ، فجاءه

---

(٢٣٠) الاغاني ٧/١٩٤ ـ ١٩٥ .

أحد الخدم وأخبره بأن الخليفة قد أرسل في طلبه ، وحين سأله عن السبب أجاب : بانه كان مع احدى حظاياه ، وقد ظن أنها نائمة ، فقام عنها الى غيرها ، فلما عاد ونام ، قامت الجارية مغضبة ودخلت حجرتها فانتبه الواثق فلم يجدها ، وحين سأل عنها أجيب بأنها دخلت حجرتها غضبى ، فأرسل في طلبك ، وحين وصل ابن الضحاك الى الواثق ، أخبره بالامر وطلب اليه أن يقول في ذلك شيئا ، فقال ـ وكان قد أعد ذلك وهو في الطريق :

غضبت ان زرت أخرى خلسة
فلها العتبى لدينا والرضى
يا فدتك النفس كانت هفوة
فاغفريها واصفحي عما مضى
واتركي العذل على من قاله
وانسبي جوري الى حكم القضا
فلقد نبهتني من رقدتي
وعلى قلبي كنيران الغضا

فلقيت الابيات قبولا حسنا من لدن الواثق ، وما زال بها حتى حفظها(٢٣١) .

وتنطوي أيام الواثق ، ويعقبه أخوه المتوكل ، فيرسل في طلب الحسين ليكون في عداد ندمائه ، غير أن كبر السن أوهن عظمه ، وهد قواه ، فاعتذر اليه والتمس منه أن يعفيه من خدمته ، وقال في ذلك :

---

(٢٣١) الاغاني ١٦١/٧ وانظر المصدر نفسه ص١٩٦ ، ٢١٥ حيث تجد أمثلة أخرى من هذا القبيل .

أسلفت أسلافك فيما مضى
من خدمتي احدى وستينا

كنت ابن عشرين وخمس فقد
وفّيت بضعاً وثمانينا

انـي لمعروف بضعف القوى
وان تجلدت أحايينا

هدّت قواي ووهت أعظمي
وصرت في العلة عزّونا(٢٣٢)

ويظهر ان جلساء المتوكل لم يقنعوا بما اعتذر به الحسين ، فحاولوا ان يسعوا به الى الخليفة ، واتهموه بارتياد القرى وأماكن اللهو واللذات ، وحين بلغ الحسين ذلك أنشأ قصيدة بمعنى الابيات السابقة وارسلها الى المتوكل منها قوله :

أما في ثمانين وفّيتها
عذير وان انا لم اعتذر

فكيف وقد جزتها صاعداً
مع الصاعدين بتسع أخر(٢٣٣)

ومع ذلك فان الخليع لم ينقطع نهائياً عن مجالسة المتوكل على الرغم مما اعتذر به اليه من الكبر والوهن ، فقد بقي محتفظاً بحيويته وظرافته ، كما بقي شعره محافظاً على جودته ورصانته . دعاه المتوكل مرة ، وأحب ان ينادمه ويقف على تماجنه فسقاه حتى سكر ، ثم اوعز الى غلام جميل

---

(٢٣٢) الديارات للشابشتي ص٥٥ الطبعة الثانية
(٢٣٣) الاغاني ٧/٢٢٥ـ٢٢٦

الصورة ، عليه ثياب مورّدة ان يسقيه ويداعبه ، فأثار ذلك ابن الضحاك ، وحاول العبث بالغلام فنهره المتوكل وتظاهر بالغضب عليه ، فطلب الحسين دواة وقرطاساً ، وكتب :

وكالوردة الحمراء حيّا بأحمر
من الورد يمشي في قراطق كالورد

له عبثات عند كل تحية
بعينيه تستدعي الحليم الى الوجد

تمنيت أن اسقى بكفيه شربة
تذكرني ما قد نسيت من العهد

سقى الله دهراً لم أبت فيه ليلة
خلياً ولكن من حبيب على وعد

ثم طلب ايصال الرقعة الى المتوكل ، فاستملحها وأمر الغلام ان يسقيه بقية يومه ، كما أمر للحسين بمال كثير(٢٣٤) .

ومع ان تعاور الايام عليه ما لبث أن أخمد جذوة نشاطه ، وأوقف ملكته الشعرية ، الا انه بقي مكرّماً معززاً لدى الخلفاء . فهذا المنتصر يخلف أباه المتوكل ، فيدخل عليه الحسين ، وينشده قوله مهنئاً له بالخلافة :

تجددت الدنيا بملك محمد
فأهلاً وسهلاً بالزمان المجدّد

هي الدولة الغرّاء راحت وبكرّت
مشمرة بالرشد في كل مشهد

---

(٢٣٤) الاغاني ٧/١٧٠ ، والديارات ص٥٧

لعمري لقد شدّت عرى الدين بيعةٌ
أعزّ بها الرحمن كل موحّد

هنتك أمير المؤمنين خلافة
جمعت بها أهواء أمة أحمد

فيظهر الخليفة الجديد اكرامه والسرور به ، ويقول له : « ان في بقائك بهاء للملك »(٢٣٥) ويطلب اليه ان يكاتبه بما يحتاجه وان لا يشق على نفسه لكبره وضعفه بكثرة الحركة ... ثم تنقطع اخبار الشاعر وتطوى أيامه ، بعد ان صوّر أجمل تصوير وأصدقه ، حياة القصر العباسي لعدد من الخلفاء في بغداد وسامراء .

علي بن الجهم :

كان ابن الجهم يتردد على سامراء منذ عهد المعتصم ، وقد مدحه بقصيدة ذكر فيها كثيراً من الحوادث في عهد هذا الخليفة ، أشرنا الى شيء منها عند الكلام على أهمية سامراء التاريخية والسياسية ، كما دافع فيها عن حق العباسيين بالخلافة . وأغرى المعتصم بمبايعة ابنه الواثق بعده ، منها :

اليك خليفة الله استقلت
قلائص مثل مجفلة النعام

جزعن قناطر القاطول ليلاً
وأعراض المطيرة للمُقام

....

أما ومحرّم البلد الحرام
يميناً بين زمزم والمقام

---

(٢٣٥) الاغاني ٩/٣٠٣ (دار الكتب)

لأنتم يا بني العباس أولى
بميراث النبيّ من الأنام

تجادل سورة الأنفال عنكم
وفيها مَقنع لذوي الخصام

••••

ليهنك يا أبا اسحاق ملك
يجلّ عن المفاخر والمسامي

فأيدنا بهرون وانا
لنرجو أن تعمر ألف عام(٢٣٦)

ويستخلف الواثق بعد ابيه المعتصم ، فيمدحه ابن الجهم بعدد من المقطعات ، يشيد فيها بخلافته وكرمه وعدله وما الى ذلك من الامور التي جرت عادة الشعراء ـ قبله ـ على ذكرها في أمثال هذه الأحوال •

ولعل أهم ما تمتاز به تلك المقطعات ، خفة الوزن ، وعذوبة اللفظ ، الامر الذي حمل الواثق على صنع لحن في بعضها(٢٣٧) • منها قوله :

وثقت بالملك الوا
ثق بالله النفوس

ملك يشقى به الما
ل ولا يشقى الجليس

ملك تفزع من صو
لته الحرب الضروس

---

(٢٣٦) ديوان علي بن الجهم ص٣ـ١١
(٢٣٧) الاغاني ٩/٢٩٧ ساسى

أنـــس السـيف بــه واســ
ــتوحش العِلْــق النفيـس

يـا بنــي العبـاس يأبـى الـ
ـــله الا ان تسوســــوا

لــــكم الملــــك علينـــا
آخـــر الدهـــر حبيس(٢٣٨)

غير ان الشاعر وجد ضالته المنشودة في خلافة المتوكل ، وتهيأ لــه التقرب منه والاتصال به حتى أصبح من خاصته وجلسائه ، فكان يفضـي اليه بأسراره ، ويطلعه على ما يجري بينه وبين زوجاته وجواريه ، ويبدو ان الشاعر كان يعقد أمله الكبير على قيام هذا الخليفة :

قـالوا أتـاك الأمـل الأكبـر
وفـاز بالملـك الفتـى الازهـر

واكتســت الدنيـا جمالاً بــه
فقلت قـد قـام اذاً جعفـر(٢٣٩)

والحق ان أمل الشاعر قد تحقق باستخلاف المتوكل ، فقد احتفى به ورعاه حتى أصبح من أخص شعرائه • ويظهر ان ابن الجهم قـد أحس بهذا فأخذ يوطّن نفسه ليكون شاعر الخليفة المعبر عن اعماله وأسراره •• يدخل أحدهم على المتوكل برأس اسحاق بن اسماعيل احد الخارجين عليه، فيقوم ابن الجهم ويرتجل :

أهـلاً وسـهلاً بك من رسـول
جئت بمـا يشـفى مـن الغليـل

(٢٣٨) ديوانه ص١٣
(٢٣٩) ديوانه ص٢٦

بجملـــة تغنـــي عـــن التفصـــيل
برأس اســـحاق ابن اســـماعيل

قهـراً بلا ختل ولا تطويل

ويعجب الخليفة بقوله ، ويقول للحاضرين « قوموا التقطوا هـــذا الجوهر لئلا يضيع »(٢٤٠) .

ويدخل الشاعر مرة على الخليفة فيجده محموماً لأمر وقع بينـــه وبين زوجته قبيحة ، فيرسل الى الطبيب لمعالجته ، وحين يقع نظر المتوكل على الشاعر يدنيه منه ، ويطلب اليه ان يقول شيئاً يصف به علته ، ويرسم له ما يريد ، فينشيء قائلاً :

تنكّـــر حـــال علتـــي الطبيـــب
وقـــال أرى بجســـمك ما يـــريب

جســـست العرق منك فـــدل جســـي
عـــلى ألـــم لـــه خبـــر عجيب

فمـــا هـــذا الذي بك هات قل لـــي
فـــكان جوابـــه منـــي النحيـــب

وقلت : أيا طيب الهجـــر دائـــي
وقلبـــي يا طيـــب هـــو الـكئيب

فحـــرك رأســـه عجبـــاً لقولـــي
وقال : الحب ليـــس لـــه طبيـــب

---

(٢٤٠) الاغاني ١٠/ ٢٣١ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ١٣١ ، والعمدة لابن رشيق ١/ ١٩٥ .

فأعجبني الذي قد قال جداً
وقلت : بلى اذا رضي الحبيب

فقال هو الشفاء فلا تقصِّرْ
فقلت : أجل ولكن لا يجيب

ألا هل مسعد يبكي لشجوي
فاني هائم فرد غريب

فسر المتوكل بذلك ، وأجزل له مكافأته[٢٤١] .

ولابن الجهم كثير من الاماديح في المتوكل ، ويخيل الينا أن أجودها قصيدته الرائية المشهورة في دنيا الادب ، والتي طالعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ومنها :

وما الشعر مما استظل بظله
ولا زادني قدراً ، ولا حط من قدري

ولكن احسان الخليفة جعفر
دعاني الى ما قلت فيه من الشعر

فسار مسير الشمس في كل بلدة
وهبَّ هبوب الريح في البر والبحر

ولو جل عن شكر الصنيعة منعم
لجل أمير المؤمنين عن الشكر

(٢٤١) الاغاني ١٠/٢٤١ ـ ٢١٥ (دار الكتب) .

اذا ما أجـال الرأي أدرك فكـره

غرائب لم تخطر ببال ولا فكر(٢٤٢)

ويبدو أن حظوة الشاعر لدى المتوكل لم تطل كثيرا ، فقد حسده

---

(٢٤٢) الديوان ص١٤١ـ١٤٧ ويبدو أنهذه القصيدة قد تعرضت الى أقاصيص الرواة واضافاتهم ، فذهب بعضهم الى أنّ ابن الجهم كان بدوياً جافيا قدم على المتوكل فمدحه بقصيدة منها قوله :

أنت كالكلب في حفاظك للود
وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا عدمناك دلوا
من كبار الدلا كثير الذنوب

ففطن الخليفة الى قوة شاعريته ، ورقة مقصده ، وخشونة لفظه ، وان ما قاله فيه لا يعدو كونه مستقى من بيئته البدوية الجافية ، فأمر بتهيئة دار له مشرفة على نهر دجلة يكتنفها بستان فينان ، والجسر قريب منه ، فمكث على ذلك برهة يمتع نظره بما يراه من جمال المنظر ، وحركة الناس ، فرقت طباعه ، ولطفت نفسه ، ثم استدعاه المتوكل ليرى أثر ذلك في شعره ، فأنشده قصيدته : عيون المها بين الرصافة والجسر (أنظر : محاضرة الابرار لمحيي الدين بن عربي ٢/٣ ، وانظر ديوان ابن الجهم ص ١٤١ حاشية ٤) • ويبدو كذلك أن هذه الحكاية بما فيها من تلفيق وخيال أصبحت وكأنها حقيقة مسلم بها ، وكثيرا ما اتخذ منها بعض الادباء وغيرهم نموذجا للتدليل على بيان أثر البيئة في الادب •

والحقيقة أن هذه القصص التي لفقت حول هذه القصيدة ، وحول منشئها لا نصيب لها من الصحة ، فابن الجهم لم يكن بدويا ولا جافيا ، كما لم يؤثر عنه لفظ خشن جاس في كل ما أثر عنه من شعر قاله قبل اتصاله بالمتوكل ،وان لفظة « الجسر » الواردة في المصراع الاول من المطلع لا يراد بها الجسرالذي أعد للشاعر في القصة الملفقة ، وانما يراد به جسر بغداد ، ودليل ذلك لفظة « الرصافة » الواردة في المصراع نفسه والتي يراد بها رصافة بغداد الواقعة في الجانب الشرقي وليس في سامراء ـ مستقر الخليفة المتوكل ـ فيما نحسب ـ موضع بهذا الاسم • هذا الى أن هذه القصة لم ترد في أي مرجع آخر ترجم لعلي بن الجهم أو المتوكل • ويبدو أن ابن عربي مولع بقصص الاعراب واختلاق الاجواء الخيالية لهم • انظر الكلام على قصر المعشوق في الفصل الثالث •

عليها كثير من الجلساء ، وأخذوا يسعون به اليه ، فلفقوا ضده الاكاذيب واختلقوا الحكايات ، وما زالوا بالخليفة حتى أوغروا صدره عليه ، فأمر بالقائه في غيابة السجن • ومكث الشاعر في سجنه برهة وحين ضاق بـه ذرعا أنشأ قصيدة يلتمس فيها من المتوكل اقالته مما هو فيه والصفح عنه ، ويعده بالتزام طاعته والانصياع لاوامره :

أقلني أقالك من لـم يـزل
يقيك ويصرف عنك الردى

ويغذوك بالنعم السابغات
وليداً وذا ميعة أمردا

•••

وعفوك عن مذنب خاضع
قرنت المقيم به المقعدا

اذا أدرع الليل أفضى به
الى الصبح من قبل أن يرقدا

عفا الله عنك ألا حرمة
تعوذ بفضلك أن أبعدا

لئن جل ذنب ولم أعتمد
لانت أجلّ وأعلى يدا

ألم تر عبداً عدا طوره
ومولى عفا ورشيداً هدى

فلا عدت أعصيك فيما أمر
ت حتى أزور الثرى ملحدا(٢٤٣)

---

(٢٤٣) الاغاني ١٠/٢٢٨

وللشاعر في سجنه كثير من الشعر الجيد الذي لم يسبق الى مثله ، ولعل أجود ما قاله فيه قصيدته الدالية التي حاول فيها أن يضرب الامثلة الكثيرة للتدليل على أهمية سجنه ، حتى ليخيل الينا أنه قد حبب السجن للاخرين قال :

قالت حبست فقلت ليس بضائري
حبسي وأيّ مهند لا يغمد

أوما رأيت الليث يألف غيله
كبراً وأوباش السباع تردد

والشمس لولا أنها محجوبة
عن ناظريك لما أضاء الفرقد

والبدر يدركه السرار فتنجلي
أيامه وكأنه متجدد

والغيث يحصره الغمام فما يرى
الا وريّقه يروح ويرعد

والزاعبية لا يقيم كعوبها
الا الثقاف وجذوة تتوقد

والنار في أحجارها مخبوءة
لا تصطلى ان لم تثرها الازند

والحبس ما لم تغشه لدنية
شنعاء نعم المنزل المتورّد

بيت يجدّد للكريم كرامة
ويزار فيه ولا يزور ويحمد

ويمضي الشاعر في قصيدته ، فيشير الى خصومه الذين تألبوا عليه ،

ويعجب من مساواة الخليفة لـــه بهم ، ويتمنى لو ضمه واياهم مجلس المتوكل ، حتى يتبين فيه الحق من الباطل :

أمن السوية يا ابن عم محمد
خصـــم تقربه وآخـــر تبعـــد

ان الذين سعوا اليـــك بباطل
حســـاد نعمتك التي لا تجحـــد

شهدوا وغبنـــا عنهـــم فتحكموا
فينـــا وليس كغائب من يشـــهد

لو يجمع الخصماء عندك مجلس
يوماً لبان لك الطريق الاقصد[٢٤٤]

ويظهر أن أخصام الشاعر لم يكتفوا بحبس الخليفة لـــــه ، وانما أرادوا ابعاده ونفيه عن الحاضرة ، فما زالوا يسمعون المتوكل أخبارا ملفقة عنه ، حتى اتهموه بهجائه اياه ، فأمر هذا بنفيه الى خراسان ، فنفي وصلب هناك ، وله في ذلك قصيدة مشهورة[٢٤٥] .

ويظهر ان ابن الجهم حين أطلق من سجنه في خراسان لم يحـاول الاتصال بالمتوكل ،وانما أمَّ بغداد ومكث فيها يعاشر جماعة من فتيانها[٢٤٦] وحين طرق سمعه خبر مقتل الخليفة ، ثارت في نفســـه ذكريات الماضي فرثاه بقصيدة لا تخلو مقدمتها من طرافة ، اذ بدأها بوصف سحابة غمرت العراق بصيبّها ، حتى اذا أوشكت أن تعم بخيرها وبركتها عصفت بها ريح

---

(٢٤٤) الاغاني ١٠/٢١٣ـ٢١٤ الزاعبية : رماح منسوبة الى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الاسنة .

(٢٤٥) أنظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣١٩ ـ ٣٢٠ .

(٢٤٦) الاغاني ١٠/٢١٩ وانظر مقدمة الديوان ص١٤

صرر فقشعتها وذهبت بها ، وأشار ابن الجهم في قصيدته كذلك الى تخلي جيوش الخليفة ورجاله عنه ، والى أن دمه قد طل ، فليس هناك من يطلب بثأره ، وفيه تعريض بابنه المنتصر الذي اتهم بأنـه من مدبري الاغتيال ، وأنحى باللائمة على العباسيين لاختلافهم فيما بينهم ، الامر الذي جـرأ عليهم مواليهم ومن في خدمتهم :

وسـارية ترتـاد أرضـاً تجودهـا
شغلت بها عينـاً قليلاً هجودهـا

...

فلما قضت حق العـراق وأهله
أتاها من الريح الشـمال بريدها
فمرت تفوت الطرف سبقاً كأنمـا
جنـود عبيـدالله ولت بنودهـا
وخلت أمـير المؤمنـين مجدلاً
شهيداً ، ومن خير الملوك شهيدها
وكان أضاع الحزم واتبع الهوى
ووكل غـرّاً بالجيوش يقودهـا
فلما اقتضاها ليلة الروع حقـه
جرت سـنحاً ساداتها ومسـودها
وبـاتت خبايـا كالبغايـا جنـوده
وفي زروق الصياد بات عميدهـا
وفـرّ عبيـدالله فيمن أطاعـه
الى سقر الله البطـيء خمودهـا

أيقتل في دار الخلافــة جعفــر
على فرقــة صبراً وأنتم شــهودها

فلا طالب للثأر من بعد موتــه
ولا دافع عن نفسه من يريدهــا

بنــي هاشــم صبراً فكل مصــيبة
سيبلى على طول الزمان جديدها
عزيز علينــــا أن نرى سرواتكم
تفرّى بأيــدي الناكثين جلودهــا
ولــكن بأيديــكم تــراق دماؤكم
ويحكم في أرحامكم من يكيدها[٢٤٧]

ابراهيم بن العباس الصولي :

أجمعت المصادر التي ترجمت لابراهيم عــلى انـــه أشعر الكتاب في عصره ، وانه كان ينشىء القصيدة ثم يعود اليها بالتشذيب والتنقيح فــلا يدع منها الا اليسير ومن ثم كان أكثر ما أثر عنه مقطعات وأبياتا[٢٤٨] .

وقد أثنى على شاعرية الصولي عدد من الشعراء والادباء ، فقــال أبو تمام : « لولا أن همة ابراهيم سمت به الى خدمة السلاطين لما تــرك لشاعر خبزا يعنى لجودة شعره »[٢٤٩] . وقــال دعبل : « لــو تكسب ابراهيم بالشعر لتركنا في غير شيء »[٢٥٠] . وذهب ثعلب الى أنه أشــعر المحدثين ، وكان يروي بعض شعره[٢٥١] .

(٢٤٧) ديوان على بن الجهم ص٥٨ـ٦٢

(٢٤٨) أنظر الاغاني ٢٢/٩ ، مروج الذهب ٢٣/٤ ، معجم الادباء ١٦٧/١ ، وفيات الاعيان ٢٧/١

(٢٤٩) الفهرست ص١٨٢

(٢٥٠) معجم الادباء ١٦٨/١

(٢٥١) المصدر نفسه ١٨٠/١

ويبدو لنا أن في هذه الاقوال شيئا غير قليل من المجاملة التي تمليها ـ عادة الصداقة في أمثال هـذه الامور ، فقد كان دعبل وأبو تمـام من اخوان الصولي والمتصلين به ، كما أن منحى الصولي في شـعره منحى القدماء هو الذي دفع ثعلب الى عده أشعر المحدثين ، ومصداق ذلك قولـه حين أنشد شـعرا للصولي (والله لو أن هـذا لبعض الاوائل لاستجيد لـه)[٢٥٢] •

ويخيل الينا أن الصولي لم يكن ـ في قول الشعر ـ من ذوي النفس الطويل ، وانه كان يرى أن خير القول وأنجعه ما كان مقتضباً ومختصراً :

يابا علـيّ خـير قولك مـا حصّلت أنجعه ومختصره[٢٥٣]

والحق أن من ينعم النظر في شعر الصولي يجـده ـ في الغالب ـ ينماز بتركيز المعنى ، ومتانة اللفظ ، ورصانة الاسلوب ، على أن هـذا لا يعني خلوه ـ أحيانا ـ من الركاكة والتكلف •

اتصل الصولي بعدد من خلفـاء العباسيين في سـامراء : كالمعتصم والواثق والمتوكل ، وتنقل في الاعمال الجليلة في الدواوين • وبقي يتقلد ديوان الضياع والنفقات للمتوكل في سامراء حتى سنة ٢٤٣هـ حيث وافته منيته[٢٥٤] •

ويبدو أن الصولي لم يقل شيئا في مدح المعتصم والواثق على الرغم من عمله في دواوينهما • وانما أثر عنه مقطعات قال بعضها في المتوكل ، وقال الاخرى فيأبنائه قبل أن يستخلفوا • فمما قال في مدح المتوكل وقد أكثر من ترديد لفظة « التكنف » قوله :

---

(٢٥٢) معجم الادباء ١/١٨٠ •
(٢٥٣) ديوان ابراهيم الصولي في الطرائف الادبية ص١٧٥
(٢٥٤) الاغاني ٩/٢٠ ، والفهرست ص١٨٢

واذا امرؤ كنفت به آباؤه
كنفتك واكتنفت بك الآباء

ووضعت نفسك من قديم فعالهم
ومناقب لك حيث شئت وشاؤا(٢٥٥)

وقوله يمدحه أيضا وقد التزم في الثانية لفظة واحدة لتدل على معان مختلفة ، مما يلمح فيه أثر التكلف :

الله أظهر دينه وأعزه بمحمد
والله أكرم بالخلا فة جعفر بن محمد
والله أيد عهده بمحمد ومحمد
ومؤيد لمؤيدين الى النبي محمد

ومن معانيه الجيدة في المتوكل قوله :

لكل عدو جولة ثم مرجع
اليك ومن تطلبه فالله طالبه

ومن رام أن يلقى عدوك فليقم
ببابك تردده اليك عواقبه(٢٥٧)

وشارك الصولي كبقية الشعراء في تسجيل الحوادث في تلك الحقبة فهذا المتوكل يعقد البيعة لابنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، فينبري الشعراء لتسجيل هذه الحادثة والثناء على عمل الخليفة ، ويسهم الصولى في هذا الشأن فيقول :

---

(٢٥٥) ديوان ابراهيم الصولي في الطرائف الادبية ص١٢٧
(٢٥٦) المرجع نفسه ص١٣٢
(٢٥٧) نفسه ص١٢٩

أضحت عرى الاسـلام وهي منوطة
بالنصـر والاعـزاز والتأييـد

بخليفـة من هاشـم وثلاثـة
كنفوا الخلافة من ولاة عهود(٢٥٨)

ولعل أحسن ما قاله الصولي في مدح أولاد المتوكل قصيدته في مدح المعتـز :

سـحور محاجر الحدقـه ... مليـح والـذي خلقـه
سـواء في محبتـه ... مجانبـه ومـن عشـقه
لعينـي فـي محاسـنه ... رياض محاسـن أنقـه
فأحيانـاً أنزههـا ... وطـورا في دم غرقـه
فيا قمراً أضـاء لنـا ... يـلألىء نـوره أفقـه
يشـبّهه سـنا المعتـز ... ذومقـة اذا رمقـه
أمـين قلّـد الرحمن ... أمـر عبـاده عنقـه
وفضلـه وطيبـه ... وطهر في الورى خلقه(٢٥٩)

محمد بن عبدالملك الزيات :

رجل سياسة وأدب ، جمع بين الكتابة والشعر ، فكان كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا • وزر للمعتصم والواثق ، كما وزر للمتوكل أياما قليلة ثم نكبه لامر كان بينهما •

وقصة استيزار المعتصم لابن الزيات لا تخلو من الطرافة ، فقد ربطت المصادر التاريخية والادبية التي تحدثت عن هذه القصة بين جهل المعتصم

---

(٢٥٨) ديوان ابراهيم الصولي في الطرائف الادبية ص١٣١ •
(٢٥٩) الطرائف الادبية ص١٣٥ والاغاني ٩/٣٢

ووزيره أحمد بن عمار وبين علم ابن الزيات وثقافتــه الواسعة ، فقد ذكر أن ابن عمار كان يقرأ على المعتصم كتابا ورده من أحــد عماله جاء فيـــه « ومطرنا مطراً كثر عنه الكلأ » فسأله المعتصم عن معنى كلمة (كــلأ) فقال : لا أدري • فعقب المعتصم على ذلك بقوله : انا الله • خليفة (أمــي) وكاتب أمي • ثم سأل عمن يكون في الباب من الكتاب ، فقيل له : محمد ابن عبدالملك الزيات ، فأمر بادخاله وحين سأله عن معنى الكلمــة ، اندفع ابن الزيات يسرد ما تشتمل عليه من المعاني •• فأعجب به واستوزره(٢٦٠)

ولابن الزيات ديوان شعر يشتمل على ما أثر عنه من قصيد ومقطعات في أغراض شتى ، والذي يهمنا من هذا الشعر ما قيل في سامراء وخلفائها

---

(٢٦٠) أنظر : زهر الاداب ٣/٨٠٥ ، وفيات الاعيــان ٤/١٩٢ ، ومآثر الانافة للقلقشندي ص٢١٨ وغير ذلك من المظــان • ويخيل الينــا أن هذه القصة ــ وان وردت في كثير من المصادر ــ لا تخلو من الغرابــة ، ومن اضافات الرواة ، وأكبر الظن أن استيزار المعتصم لابن الزيات لــم يكن بهذه السذاجة التي تحكيها هذه المراجع ، ومن المحتمل ، أن يكــون المعتصم قد سمع بابن الزيات وعرف عن ثقافته الشيء الكثير ، قبل هذه الحادثة ــ اذا صحت ــ فقد كان المسؤول عن تفقد دار الخليفــة والمشــرف على مطبخه ، كما كان الى جانب ذلك يعد من جملة الكتاب على بابه ، بل كان ينوب عن ابن عمار في وزارته (معجم الادباء ٢٠/٣٦ تراجم اضافية)

ويخيل الينا كذلك ان ما اتهم به المعتصم من الجهل والامية في هذه القصة وفي غيرها مما تذكره المصادر ، لا يخلو أيضا من الغلو والمبالغة ، ونحن لا نريد أن نسوق الامثلة الكثيرة لتفنيد هذا الاتهام ، ولكن لا ندري كيف يكون هذا الخليفة جاهلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك يتزعـــم ــ بعد المأمون ــ أكبر حركة فلسفية في العصر العباسي ان لم تكن في العصر الاسلامي كله ، وأعني حركة المعتزلة وتبنيهم القول في خلق القرآن •• بل كيف يكون أميا جاهلا من يستمع الى الشعراء فيعجب بشعرهم ويثيبهــم على ذلك بالعطايا الجزيلة ، كما أن لفظة (أمي) التي وردت في هذا النص لا ينبغي أن تفهم على أنها تعني الجهل بالقراءة والكتابة ، بقدر ما تعنـــي الجهل بهذه اللفظة فحسب •

ممن اتصل بهم محمد ، وقد أشرنا الى شيء من ذلك في مواضع أخرى من هذا البحث •

ويبدو أن بعض ما قاله في المعتصم والواثق لا يسمو كثيرا الى مستوى الشعر الجيد ، من ذلك قوله في المعتصم من قصيدة طويلة له ذكر فيها كثيرا من الحوادث السياسية والتاريخية :

ان الخليفة خير من وطيء الحصا
لله يمحص دينه ويقينه

سارت حكومته بأعدل سيرة
قصوى البلاد وفي الذين يلونه

ان الخليفة رحمة من ربنا
وبه أنار لنا وأوضح دينه

ملك بأرض الروم أنزل نقمة
وأباد مالاً أهلها يحصونه(٢٦١)

ومن هذا القبيل قوله في الواثق :

ان الخلافة أصبحت سراؤها
مجلوبة ، وشرورها مصروفه

عفو تعم به الذنوب وحرمة
تعطي الثواب ، ورأفة معطوفه

(٢٦٢)(لو) كان ينقذنا ، ويؤمن سربنا
ويجيرنا من شر كل مخوفه

---

(٢٦١) ديوان ابن الزيات ص٩٠
(٢٦٢) هكذا في الاصل ولعل الصواب (من) •

الا مقـــام خليفــة لخليفـــة
لخليفــة لخليفــة لخليفـــه[٢٦٣]

وله الى جانب هذا الشعر الركيك شعر آخر لا يخلو من جـــودة المعنى ومتانة التركيب ، من ذلك قوله في الخليفة المعتصم :

يا جمال الدنيا ، ويا زينة الدين ، ويا عصمة التقى والرشـاد

ما رأينا سواك منـــذ عرفنــا النا
س بدراً أوفـى أعلى الاعــواد

أشـــهد الله ان وجهـك يــوم الـ
ـعيد عيــد لنــا من الاعياد[٢٦٤]

ومن ذلك قوله في رثاء المعتصم أيضا :

قـــد قلت اذ غيبــوك واصطفقت
عليــك أيــد بالتــرب والطـين

اذهب فنعم الحفيظ ، كنت عـلى الد
نيــا ونعـيم الظهــير للديــن

لاجبـــر الله أمـــة فقـــدت
مثلك الا بمثـــل هارون[٢٦٥]

وكان في طبع محمد قسوة وغلظة ، حتى أثر عنه أنه قال « الرحمة خور في الطبيعة وضعف في المنة »[٢٦٦] . وكان من آثار هذه القسوة أن

---

(٢٦٣) ديوان ابن الزيات ص٨٨
(٢٦٤) ديوان ابن الزيات ص١٥ .
(٢٦٥) تاريخ الطبري ١١٩/٩ (دار المعارف) .
(٢٦٦) الاغاني ٤٩/٢٠ ساسي .

اتخذ تنورا من حديد ، رؤوس مساميره الى داخل قائمة ، يعذب فيه المصادرين والمغضوب عليهم من الناس ، ولم يلبث الدهر أن قلب له ظهر المجن ، فتغير عليه الخليفة المتوكل لامر كان بينهما ، فأمر بادخاله في ذلك التنور ، فبقي فيه حتى مات ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين للهجرة(٢٦٧) .

وقد أدت سياسة ابن الزيات القائمة على الشدة والجبروت الى ظهور عدد غير قليل من المناوئين الذين كانوا له بالمرصاد ، وقد ظهر أثر تلك الخصومة واضحا حين انبرى كثير من الشعراء والادباء يهجونه بعد التنكيل به(٢٦٨) .

الفتح بن خاقان :

وزير المتوكل وصديقه الحميم ، كان أديباً ظريفاً ممدحاً ، روى عنه أبو زكريا بن حكيم الاسلمي شيئًا من شعره ، وأبو العباس المبرد ، وأحمد ابن يزيد المؤدب . وكان مولعاً بالقراءة واقتناء الكتب ، حتى كانت له

---

(٢٦٧) الاغاني ٤٩/٢٠ ، ومروج الذهب ٨٨/٤ طبعة دار الاندلس، ووفيات الاعيان ١٨٧/٤ .

(٢٦٨) انظر : الاغاني ٤٦/٢٠ ، ومروج الذهب ٨٨/٤ ، ومعجم الشعراء ص٣٩١ ، والطرائف الادبية ص١٨٢ ، ووفيات الاعيان ١٨٧/٤ وغير ذلك . حاول بعضهم ان يلتمس اسبابا لتبرير طغيان ابن الزيات وجبروته إيام استيزاره ، وكان من تلك الاسباب ـ في رأيه ـ استضعاف ابن الزيات للخليفة المعتصم ـ اذ لم يكن في مثل ذكاء أخيه المأمون وعلمه ودهائه ، ولا في مثل قوة أبيه الرشيد الذي أطاح بالبرامكة وازال حكمهم (انظر : محمد بن عبدالملك الزيات ص٧٢ ـ ٧٣ اعلام العرب) . ويخيل الينا ان احدا من المؤرخين على اختلاف اتجاهاتهم لم يصم المعتصم بشيء من الضعف والخور وقلة الهمة ، بل على النقيض من ذلك نجدهم يطرونه وينعتونه بالقوة والحزم والصلابة ، وان قضاءه على فتنه بابك والمازيار ، وفتحه لعمورية خير شاهد على ذلك .

خزانة لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، كما كانت داره منتدى يجتمع فيه فصحاء الاعراب وعلماء الكوفة والبصرة ، وله عدة كتب منها : كتاب البستان الذي جمع فيه فنونا من الادب . مات مقتولا مع المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين(٢٦٩) .

وكان الفتح ذواقة للادب ، عارفا بالشعر ، وتجلى ذلك فيما كان يستحسنه من رائع شعر البحتري ، الذي كان ينشده اياه في قصره أو قصور المتوكل ، فقد دخل البحتري عليه مرة وأنشده قصيدته :

شرخ الشباب أخو الصبا وأليفه
والشيب تزجية الهوى وخفوفه

فلما بلغ الى قوله :

ملك بعالية العراق قبابه
يقري الضيوف بها ونحن ضيوفه

والى قوله :

فهلم وعدك في الامام فانه
فضل الى جدوى يديك تضيفه

أهتز الفتح لذلك وطرب ، ثم دعا بالشراب استحسانا لما سمعه ، وأمر البحتري أن يعيد ما أنشده(٢٧٠) .

وللفتح أشعار قليلة ، بعضها يصور ما كان يغلب على تلك الحقبة من

---

(٢٦٩) انظر في ترجمة الفتح : معجم الشعراء للمرزباني ص١٩١ ، الفهرست ص١٧٥ ، معجم الادباء ١٦/١٧٥ مروج الذهب ٤/٨٧ .

(٢٧٠) اخبار البحتري ص٧٩ ــ ٨١ والمقصود بعالية العراق في البيت الثاني (سامراء) حيث يقيم الفتح .

الميل الى الغلمان ، من ذلك قوله في أحد خدم المتوكل ، وكان يتعشقه :

أ (شاهك) ليلي مذ هجرت طويل
وعيني دماً بعد الدموع تسيل

وبي منك والرحمن ما لا أطيقه
وليس الى شكوى اليك سبيل

أ(شاهك) لو يجزى المحب بوده
جزيت ، ولكن الوفاء قليل (٢٧١)

وله أبيات جميلة يصف بها الورد ، وتظهر عليها امارات الترف والنعيم ، وما كان يألفه ويراه في بيئته :

أما ترى الورد يدعو الشاربين الى
حمراء صافية في لونها صنب

مداهن من يواقيت مركبة
على الزمرد في أجفانها ذهب

خاف الملال اذا طالت اقامته
فصار يظهر أحيانا ويحتجب(٢٧٢)

ابراهيم بن المدبر :

من الشعراء الكتاب ، تقلد كثيرا من الاعمال الجليلة ، وكان أثيرا ومقربا من المتوكل ، تعشق عريب المغنية المشهورة ، وله معها أخبار كثيرة

---

(٢٧١) الديارات للشابشتي ص٦ الطبعة الثانية ، معجم الادباء ١٦/١٧٦ .

(٢٧٢) معجم الادباء ١٦/١٧٧ ـ ١٧٨ الصنب : اي لون الصنب : وهو صبغ يتخذ من الخردل والزبيب .

توفي ببغداد سنة تسع وسبعين ومائتين وهو يتقلد ديوان الضياع للمعتضد[٢٧٣] .

وشعر ابراهيم – في الغالب – يصور خلجاته النفسية ، وعلاقاته مع الجواري والمغنيات ، كما له شعر جيد في سجنه أيام المتوكل ، وفي تسجيل بعض الحوادث في عهد هذا الخليفة . قال حين بايع المتوكل لابنائه الثلاثة :

يا بيعة مثل بيعة الشجره
فيها لكل الخلائق الخيره
أكدّها جعفر وصيّرها
الى بنيه الثلاثة البرره[٢٧٤]

ودخل مرة على المتوكل ، وقد أبل من مرض ألم به ، فلما رآه استدناه حتى وقف بالقرب منه ، وأنشده قصيدة صادقة الشعور ، فياضة العواطف ، رقيقة اللفظ ، خفيفة الوزن – يهنئه فيها ، ويعلن سروره واغتباطه ، منها :

يوم أتانا بالسرور
فالحمد لله الكبير
أخلصت فيه شكره
ووفيت فيه بالنذور
لما اعتللت تصدعت
شعب القلوب من الصدور

---

(٢٧٣) انظر : الاغاني ١٦/١١٤ ساسي ، ومعجم الادباء ١/٢٢٦ ، واعتاب الكتاب ص١٥٩ .
(٢٧٤) مروج الذهب ٤/٥ (دار الاندلس) .

من بين ملتهب الفؤا
د ، وبين مكتئب الضمير

يا عدتي للدين والد نيا وللخطب الخطير
كانت جفوني ثرّة الآ ماق بالدمع الغزير
لو لم أمت جزعاً لعمـ ـرك انني عين الصبور

فلما انتهى من القصيدة ، التفت المتوكل الى الفتح وقال : « ان ابراهيم لينطق عن نيّة خالصة »(٢٧٥) .

وتعرض ابن المدبر في عهد المتوكل الى الحبس ، فمكث فيه مدة طالت عليه ، فانشأ عدة قصائد يشرح فيها حاله ويصور ما يلقاه من شدة وطأة الحبس ، وثقل الحديد عليه ، فقال من قصيدة له ، تمنى فيها لو يضمه وأخصامه مجلس حتى يتبين الحق من الباطل ، وهو ما يذكرنا بقول علي بن الجهم في هذا المعنى حين حبسه المتوكل ايضاً :

كم ترى يبقى على ذا بدني
قد بلي من طول هم وضني

انا في أسر وأسباب ردى
وحديد فادح يكلمني

ظفر الاعداء بي عن حيلة
ولعل الله ان يظفرني

ليت اني وهم في مجلس
يظهر الحق به للفطن(٢٧٦)

ولعل أحسن ما قاله ابن المدبر في سجنه قصيدته التي حاول فيها

(٢٧٥) الاغاني ١٦/١١٤ ـ ١١٥ .
(٢٧٦) الاغاني ١٩/١١٩ .

ـ كابن الجهم ـ ان يجعل من السجن موطناً لصقل نفسه وتقويمها ، وضرب لتوضيح ذلك امثلة كثيرة ، قال فيها :

هـو الحبس ما فيـه عليّ غضاضـة
وهـل كان في حبس الخليفة من عار

ألست ترين الخمر يظهر حسـنها
وبهجتهـا بالحبس فـي الطين والقار

وما أنـا الا كالجـواد يصـونه
مقوّمه للسـبق في طـي مضمار

أو الدرة الزهـراء في قعـر لجـة
فلا تجتلى الا بهـول وأخطـار

وهل هو الاّ منـزل مثل منزلي
وبيت ودار مثل بيتي أو داري(٢٧٧)

اما ما قاله في عريب فكثير ، وكانت عريب هذه مغنية مشهورة فـي سامراء لها عدد من الجواري المغنيـات الزامرات ، منهمـا : « بدعـة » و « تحفة » • ولعل أحسن ما قاله فيها وفي جاريتها قوله :

إن عَريبـاً خلقـت وحدهـا
فـي كل ما يُحسن من أمرهـا

ونعمـة للـه فـي خلقـه
يقصّـر العالـم فـي شـكرها

(٢٧٧) المصدر نفسه ١٩/١١٥ • ومما يجدر ذكره ان هناك تشابها كبيرا بين سجنيات علي بن الجهم وسجنيات ابن المدبر ، فالافكار تكـاد تكون واحدة • وأغلب الظن ان ابن المدبر قد تبع في ذلك ابن الجهم •

أشـــهد فـــي جاريتيهـــا عـلى
أنهمـــا محســـنتا دهرهـــا

(فبدعـة) تبـدع فـي شـــدوها
و (تحفـــة) تتحف فـي زمرهـــا

يا ربِّ أمتعهـــا بمـــا خُولتْ
وامــدد لنا يا رب في عمرهـــا[٢٧٨]

سعيد بن حُمَيْد :

بغدادي المولد والمنشأ ، كان يتنقل في السكنى بينها وبين سامراء ، وكان كاتباً مترسلاً ، وشاعراً رقيقاً ، قلدّه المستعين ديوان الرسـائل ، وكان على صلة وثيقة بالشاعر محمد بن صالح العلوي . ويبدو مما وصلنا من شعره ، انه لم يشارك في أحداث العصـر ، ولم يمدح أحـداً من الخلفـاء .

والغالب على شعره الغزل ووصف ما كان يجري بينه وبين فضـل الشاعرة التي كان يتعشقها .

واتهم ابن حميد بكثرة الاغارة والسرقة على من سبقه ، حتـى قيل عنه « لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى اهلك لما بقى معه شيء »[٢٧٩]. ويبدو لنا ان هذا القول لا يصدق كثيراً على ما أثر عن سعيد من شعر . ومن شعره في فضل قوله وقد غضبت عليه لامر :

يا ايهـــا الظـــالم ما لـــي ولكْ
أهكـــذا تهجـــر من واصـــلكْ

---

(٢٧٨) الاغاني ١٩/١٢٤ .

(٢٧٩) الفهرست ص١٨٥ ، زهر الآداب ٤/١٠٧٥ .

لا تصـرف الرحمـة عن أهلهـا
قـد يعطف المولـى على من ملك

ظلمت نفسـاً فيـك علقتهـا
فـدار بالظلم عليَّ الفلك(٢٨٠)

والواقع ان العلاقات بين كثير من أولئك الشعراء وبين القيان ، كانت علاقات منفعة ولذة طارئة ، فكثيراً ما نجد هذه الصلات تنقطع بسبب ميل الرجل الى قينة اخرى ، أو ميل الجارية الى رجل ثان . وقد عبرت عن ذلك فضل الشاعرة ، حين طرق سمعها ان ابن حميد قد تعشق جارية غيرها ، وهي ـ بلا شك ـ خبيرة بحب القيان ، قالت :

يا عاليَ السـن ، سـيءَ الأدب
شبتَ ، وانت الغلام فـي الطَّـرب

ويحك ان القيـان كالشـرك الـ
ـمنصـوب بين الغـرور والكـذب

لا يتصـدين للفقـير ولا
يطلبـن إلاّ معـادن الـذهب

بينـا تشـكّى هواك اذ عدلتْ
عن زفـرات الشـكوى الى الطلب

تلحظ هـذا وذا وذاك وذي
لحظ محبٍ ، وفعل مكتسب(٢٨١)

---

(٢٨٠) الاغاني ٦/١٧ ساسي .

(٢٨١) المصدر السابق ٦/١٧ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٧ .

مروان بن أبي الجنوب :

وهو الملقب بغبار العسكر ، مدح المعتصم والمتوكل ، وكان من مقربي الاخير وندمائه وخاصته ، فحسنت حاله عنده بما اعطاه من مال وذهب وكسوة ، حتى قال للمتوكل بعد ان أغرقه بجوده :

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد
فقد كدت أن أطغى وأن أتجبرا

فرد عليه المتوكل : لا والله لا أمسك حتى اغرقك بجودى . وعقد له على اليمامة والبحرين استحساناً لقصيدته التي يقول فيها :

بيضاء في وجناتها
وردٌ ، فكيف لنا بشمه(٢٨٢)

ويبدو ان ابن ابي الجنوب قد نال هذه الحظوة من لدن المتوكل ، لحماسته في مناوأة العلويين والتعريض بهم ، وايثار العباسيين عليهم ، وبخاصة في مسألة الخلافة ، ولعل خير ما يمثل اتجاهه هذا قوله :

مُلك الخليفة جعفرٍ
للدين والدنيا سلامهْ

لكم تراث محمدٍ
وبعدلكم تنفى الظلامه

يرجو التراث بنو البنا
ت ومالهم فيها قلامه

والصهر ليس بوارث
والبنت لا ترث الامامه

(٢٨٢) معجم الشعراء ص٣٢١ ، الديارات ص٨ ، الاغاني ٢/١١ ، تاريخ بغداد ٢٥٣/١٣ .

معـــا للـــذين تفحلّـــــوا

ميراثكـــم إلا الندامـــه

ليـــس التـــراث لغيركـــم

لا والالـــــه ولا كرامـــه

أصـــبحت بـــين محبكـــم

والمبغضـين لكـــم علامـــه[٢٨٣]

وقد يندفع الشاعر أحياناً ـ ابتغاء الزلفى من الممدوح ـ الى المبالغــة والاحالــة في القــول حتى يتعرض الى الهــزء والســخرية من المستمعين لقصيده ، فقد أنشد مروان هذا يوماً في مجلس المتوكل :

انــي نزلت بســاحة المتوكل ونزلت في أقصى ديار الموصل

فسأله احد الجالسين ـ وقد رأى استحالة هذا الجمع بين المكانين ـ وكيف يمكن الاتصال بين هؤلاء والمراسلة ؟ فانبرى أبو العنبس الصيمري ناقداً مستهزئاً ـ وقال : كان له حمام هُدًّى يبعث بها اليه من الموصــل حتى يكاتبه على اجنحتها ، فضحك المتوكل كثيراً ، وخجل مروان ، وأقسم ألا يكلم الصيمري ما دام حياً[٢٨٤] .

يزيد بن محمد المهلبي :

كان في أول أمره من جلساء المنتصر والمختصين به ، ثم أخـــذه المتوكل اليه وضمه الى جلسائه استحساناً لكلامه ، واعجاباً بأدبه .

وكان الشاعر أحد الحاضرين ليلة اغتيال المتوكل ، فرثاه بمرثية تعد من أجود ما قيل في معناها ، ويستشف منها ـ الى جانب الحزن العميق على الخليفة المقتول ، والى مباغتة القتلة له ولندمائه ـ المرارة التي كان يحسها الشاعر بضعف العنصر العربي آنذاك ، وتخلفــه عن الاتراك ، كما حضّ

(٢٨٣) تاريخ الطبري ٩/٢٣١ (دار المعارف) .
(٢٨٤) الاغاني ١١/٥ .

فيها على اصطناع العرب واطراح الاتراك ، وبين هذه المرثية ومرثية البحتري في المتوكل شيء من تلاقي الافكار ، وتشابه الحوادث وهو أمر طبيعي ، اذ كان الشاعران ـ كما يقال ـ في مجلس الخليفة ساعة الفتك به

قال :

لا حزن الاّ أراه دون ما أجد
وهل كمن فقدت عيناي مفتقد

لا يبعدن هالك كانت منيته
كما هوى من غطاء الزبية الأسد

لا يدفع الناس ضيماً بعد ليلتهم
اذ لا تُمد الى الجاني عليك يد

لو ان سيفي وعقلي حاضران معي
أبليته الجهد اذ لم يبله أحد

هلا أتته أعاديه مجاهرة
والحرب تسعر والأبطال تجتلد

فخرَّ فوق سرير الملك منجدلاً
لم يحمه ملكه لما انقضى الأمد

علتك أسياف من لا دونه أحد
وليس فوقك الا الواحد الصمد

أضحى شهيد بني العباس موعظة
لكل ذي غرة في رأسه صيد

خليفة لم ينل ما ناله أحد
ولم يكن مثله روح ولا جسد

كم في أيمك من فوهاء هادرة
من الجوائف يغلى فوقها الزبد
اذا بكيت فان الدمع منهمل
وان رثيت فان القول مطرّد
قد كنت اسرف في مالي ويخلف لي
فعلمتني الليالي كيف اقتصد
لما اعتقدتم اناساً لا حلوم لهم
ضعتم وضيعتم من كان يُعتقد
فلو جعلتم على الاحرار نعمتكم
حمتكم الذادة المركوزة الحشد
قوم هم الجذم والانساب تجمعكم
والمجد والدين والارحام والبلد(٢٨٥)

ويعود المهلبي بعد أغتيال المتوكل الى مجالسة المنتصر الذي احتفى به وقربه وحباه ، ولم يأل الشاعر جهداً في اظهار ولائه للخليفة الجديد ، فمدحه بعدد من القصائد ، منها قوله من قصيدة له فيه وقد دخل عليه بعد استخلافه :

ليهنك ملك بالسعادة طائره
موارده محمودة ومصادره
فأنت الذي كنا نرجّى فلم نخب
كما يُرتجى من واقع الغيث باكره
بمنتصر بالله تمت أمورنا
ومن ينتصر بالله فالله ناصره(٢٨٦)

---

(٢٨٥) العقد الفريد ٢٨٨/٣ ، زهر الآداب ٢٢٨/١ .
(٢٨٦) الاغاني ٣٠٤/٩ .

ويصلي الخليفة بالناس في عيد الاضحى ، فينشده الشاعر بعد انصرافه :

ما استشرف الناس عيداً مثل عيدهم
مع الامام الذي بالله ينتصر
غدا بجمع كجنح الليل يقدمه
وجه أغرّ كما يجلو الدجى القمر
يؤمهم صادع بالحق أحكمه
حزم وعلم بما يأتي وما يذر(٢٨٧)

عبدالله بن المعتز :

ولد عبدالله ــ على الارجح ــ في سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة في احد قصور والده المعتز في سامراء ، وأخذ العلم والأدب عن كبار أدباء العصر ولغويه ، امثال : المبرّد وثعلب والبلاذري واحمد بن سعيد الدمشقي وغيرهم(٢٨٨) . وكان محباً لسامراء كثير الاطراء لها ، شديد الحنين لذكرياته فيها ، وكان من جراء هذا التعلق بمدينته أن ذكرها في أدبه كثيراً ، بل وفضلها في مناسبات عديدة على غيرها من المدن وبخاصة بغداد .

وقد تفتحت مواهب ابن المعتز الأدبية منذ نعومة أظفاره ، فقال يمدح مؤدبه احمد بن سعيد الدمشقي ، وله من العمر ــ كما يقال ــ ثلاث عشرة سنة ، وتظهر ابياته هذه ما كان يزود به المؤدب تلاميذه من العلوم والمعارف :

أصبحت يا ابن سعيد حزت مكرمة
عنها يقصِّر من يحفى وينتعل

---

(٢٨٧) الاغاني ٩/٣٠٤

(٢٨٨) أنظر : نزهة الالباء ص٢٣٤ ، والنجوم الزاهرة ٣/٩٦ ــ وتاريخ بغداد ١٠/٩٥ .

سربلتني حكمة قد هذّبت شيمي
وأججّت غَرْب ذهني فهو مشتعل

أكون إن شئت قُساً في خطابته
أو حارثاً وهو يوم الفخر مرتجل

وإن أشأ فكزيد في فرائضه
أو مثلَ نعمانَ ما ضاقت بي الحيل

أو الخليلَ عروضياً أخاً فطن
أو الكسائيَ نحوّياً له علل

تغلي بداهة ذهني في مركبّها
كمثل ما عُرفت آبائي الاول

وفي فمي صارم ما سله أحد
من غِمده فدرى ما العيش والجذل

عقباك شكر طويل لا نفاد له
تبقى معالمه ما أَطَّتِ الأبل(٢٨٩)

وربما كان هذا أول ما تفققت عنه قريحته الادبية .

عاش ابن المعتز مدة غير قصيرة في قصور آبائه وأجداده في سامراء ، وكانت تلك القصور على جانب عظيم من الفخامة والبهاء ، تموج بالجواري الحسان ، وتزين بالصور اللطاف وتفرش بالفاخر من الأثاث ، وكان لهذه البيئة الفخمة الناعمة أثرها الكبير في اتجاهاته الادبية وتشبيهاته البديعة التي لم يكن بوسع كبار الشعراء ان يأتوا بمثلها ، ولعل خير مثال على ذلك الحكاية التي تناقلتها المراجع المختلفة والتي تشير الى ان أحدهم لام ابن

---

(٢٨٩) معجم الادباء ٣/٤٦ حارث : هو الحارث بن حلزة صاحب قصيدة (آذنتنا ببينها أسماء) وزيد : هو زيد بن ثابت الانصاري . ونعمان : هو النعمان ابو حنيفة .

الرومي – وهو الشاعر الوصّـــاف – في تأخره وتقصيره في تشبيهاته عن تشبيهات ابن المعتز ، وحين أنشد قول ابن المعتز في الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقولـه :

كـأن آذَرْيُونَهـا والشـمس فيـه كاليـه
مداهن مـن من فضـة فيهـا بقايـا غاليـه

صاح : « واغوثاه – يا الله ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك انما يصف ما عون بيته لانه ابن الخلفاء »(٢٩٠) .

وربما كان من اسباب تحبيب الشعر والأدب لـه ما كان يسـمعه في قصور أبيه من مدائح الشعراء ، وطرائف الادباء ، فقد روى الصولي ان عبدالله بن المعتز قال : « كان مما حبّب الشعر اليّ انـي سمعت البحتري ينشد الماضي (اي المعتز) شعراً تشـوّقه الناس واستحسـنوه ووصفوه تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتم ياقوت ، وهو عندي من أحسن شعره ، وهو :

بوديَ لو يهـوى العذول فيعشـق
فيعلمَ أسبابالهوى كيف تعلقالقصيدة(٢٩١)

والواقع ان الحقبة التي عاشها ابن المعتز منذ مطلع مولده الى استخلاف المعتضد وانتقاله الى بغداد ، كانت مضطربة جداً ، وان الأخبار عن الشاعر في هذه الفترة قليلة وغير واضحة ، كما انه من العسير التعرف على كثير من شعره الذي قاله وهو في سامراء في هذه الحقبة المضطربة ، ولعل مما

(٢٩٠) العمدة ٢/٢٣٦ ، والنجوم الزاهرة ٣/٩٦ – ٩٧ الاذريون : زهر أصفر في وسطه خمل أسود .
(٢٩١) اخبار البحتري ص١٠٨ .

يزيد الامر تعقيداً تنقل عبدالله بين بغداد وسامراء في غضون هذه الفترة • على أن هذا لا يعني اننا لم نهتدِ الى ما أنشأه في هذه المدينة ومعالمها وأديرتها من شعر اشرنا الى كثير منه في مواطن متفرقة من هذا البحث •

ولعبدالله قصيدة يصف فيها « دكان » أحد المغنين في سامراء كان يجلس عليه ويتخذه ـ على ما يبدو مكاناً للنخاسة والرذيلة ، وقد انتقل عنه صاحبه الى بغداد ، منها :

لقد أقفر الدُّكان من كل لذةٍ
وعُطِّلَ من رَجْلٍ وقوفٍ وركبان
وسُؤّال فِسقٍ لا يَهْتدون وسر
بِ ظباءٍ من جَوارٍ وغلمان[292]
ومن سعلة ترمي بأنتن بصقةٍ
كضفدعة ما بين أرض وحيطان
ورَدَّة داعٍ لم يقدّم هديةً
بتقطيب مغتاظ وزجرة غضبان
وآخر جاءت بالهدية رسله
فيضحك اذ جاءت بأقذر أسنان
ومن وثبة خلف الغلام خبيثةٍ
ليفرسه ما بين باب ودكّان
وزائرة بعد الهدوء كأنها
سنا قمرٍ في لجّة الليل عُريان[293]

ابن الرومي :

وهو الذي يقول عنه الحصري : انه أقام في سامراء مدة طويلة حتى

(٢٩٢) هكذا في الاصل •

(٢٩٣) اشعار اولاد الخلفاء ص١٤٣ ـ ١٤٤ •

ملّ المقام ، فقال يتشوق الى بغداد :

بلـد صحبت بـه الشبيبة والصبا
ولبست ثوب العيش وهو جديـد
فـاذا تمثّـل في الضمير رأيتـه
وعليـه أغصان الشباب تميد(٢٩٤)

ويبدو لنا ان القول باقامة ابن الرومي مدة طويلة في هذه المدينة فيه نصيب من الخيال كبير ، فلو صحت هذه الاقامة ، لطمعنا أن نرى أثر ذلك في شعره ، ومن المحتمل انه زارها فيمن زارها من الشعراء ، ولكنه لم يتسن له الاتصال بالخلفاء فيحظى بجوائزهم ومن ثمّ تصوير ما شاهده في قصورها وربوعها •

وفي ديوان ابن الرومي قصيدتان ، احداهما في مدح المستعين ، والأخرى في هجاء المعتز ، قال في الاولى :

صبراً أميرَ المؤمنينا فالله يجزى المحسنينا
كنا نهنىء بالخلا فة قبلك المتنعمينا(٢٩٥)
حتى اذا صارت إليـ ـك ، وانت هَدْيُ الراشدينا
فمنعت نفسك دَرَّها ومَرَيْتها للحالبينا
فاصبر لها لا زال عو نُك من رضيت به معيناً
هي محنة للمتقيـ ـن ، وفتنة للمترفينا(٢٩٦)

---

(٢٩٤) انظر : زهر الآداب ٣/٧٥١ •

(٢٩٥) لم نجد في شعره ما يدل على انه هنأ خليفة قبل المستعين •

(٢٩٦) ديوان ابن الرومي لكامل كيلاني ص٣٨٤ • الدّر : اللبن • مريتها : مرى الناقة : مسح ضرعها لتدر •

وقال في الثانية :

أمسى الشباب رداءً عنك مُستلَبا
ولن يدوم على العصرين ما اعتقبا

••••

دع الخلافة يا معتز من كثب
فليس يكسوك منها الله ما سلبا
أترتجي لبسها من بعد خلعكها
هيهاتَ هيهات فات الضرع ما حلبا
تالله ما كان يرضاك المليك لها
قبل احتقابك ما أصبحت محتقبا[(297)]

وظاهر ان ابن الرومي قد قال هاتين القصيدتين في أيام الفتنة التي حدثت بين المستعين والمعتز ، والتي أدت الى انقسام الناس الى فئتين : فئة تشايع المستعين وهم اهل بغداد ، وأخرى تساند المعتز وهم أهل سامراء ، وان الشاعر كان أحد المؤيدين للمستعين ، الذي لجأ الى بغداد في تلك الايام . وظاهر ايضاً ان الشاعر قد نظم هاتين القصيدتين وهو في بغداد .

كما ان في ديوانه قصائد ومقطعات في مدح وهجاء ابي الصقر اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد الذي كان يقيم احياناً مع الخليفة في سامراء ـ في بعضها ما يشير الى ان ابن الرومي قد زار سامراء ، من ذلك قوله :

أتيتك لم أشفعْ اليك بشافعٍ
ولو شئت كان الناس لي شفعاء

---

(٢٩٧) ديوان ابن الرومي ص٤٥٠ـ٤٥٢ .

ولكنني وقّــرت حمدي بأســـره

عليك ، ولم أُشركْ بك الشركاء[298]

وفي ديوانه ايضاً أبيات ـ نظمها وهو في واسط ـ يستدل منها على ان له محبوبة في سامراء ، منها قوله :

غريب له نفســـان : نفس بواسطٍ

وأخرى بسامرّا بكف حبيب[299]

وعلى الرغم من هذه الاشارات التي قد تدل على تردده على هـــذه المدينة ، فاننا لا نميل الى الرأي القائل ، بانه قد أطال اقامته فيها حتى ملّ المقـام .

اذ كيف يطيل المقم فيها وهو لا يحصـــل على شيء ممن قصـــده مسترفداً ؟ بل كيف يمكنه البقاء في المدينة ، بعد ان انقلب هاجياً لوزير الخليفــة ؟

محمد بن صالح العلوي :

شاعر حجازي ، خرج على المتوكل ، فأمر بحمله الى سامراء وحبسه مدة ثم اطلقه فأقام فيها . وكان صديقاً حميماً لسعيد بن حميد ، يتقارضان الاشعار ، ويتكاتبان بها ، وله في المتوكل والمنتصر مدائح جياد كثيرة . وكانت وفاته بسامراء ، وقيل بالحجاز[300] .

قال من قصيدة له يمدح بها المتوكل ويشيد باحيائه السنة ، ويثنـي عليه لاطلاقه من الحبس :

أحييت ســُنة من مضى فتجددت

وأبنت بدعة ذي الضلال الخاسر

(٢٩٨) ديوان ابن الرومي ١/٩٠ شرح محمد شريف سليم .
(٢٩٩) نفسه ١/٥٥٩ .
(٣٠٠) الاغاني ١٦/٣٦٠ ، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٣٨٠ .

فافخر بنفسك أو بجدك معلناً
اودع فقد جاوزت فخر الفاخر
انسي دعوتك فاستجبت لدعوتي
والموت مني قيد شبر الشابر
فانتشتني من قعر موردة الردى
أمناً ولم تسمع مقالة زاجر
وفككت أسرى والبلاء موكّل
وجبرت كسراً ماله من جابر(٣٠١)

واستطاع هذا الشاعر ان يلتقط صورة اجتماعية ، ما زالت قائمة في العراق وفي المدينة التي نحن في صدد الكتابة عنها ، وهي عادة البكاء على القبور ، فقد مرّ الشاعر بقبر لأحد ابناء المتوكل ، فرأى عدداً من الجواري يلطمن عنده فصوّر هذا المنظر بقوله :

رأيت بسامرّا صبيحة جمعة
عيوناً يَروق الناظرين فتورها
تزور العظام الباليات لدى الثرى
تجاوز عن تلك العظام غفورها
فلولا قضاء الله ان تعمر الثرى
الى ان ينادى يوم ينفخ صورها
لقلت عساها ان تعيش ، وانها
ستنشر من جرّا عيونٍ تزورها
أَسيلات مجرى الدمع امّا تهللتْ
شؤون الأماقى ثم سحّ مطيرها

---

(٣٠١) الاغاني ١٦/٣٧١ ـ ٣٧١ (دار الكتب) .

بوبل كأتوام الجُمان تفيضه
على نحرها أنفاسها وزفيرها
فيا رحمة ما قدر رحمت بواكياً
ثقالاً تواليها ، لطافاً خصورها(٣٠٢)

يعقوب بن يزيد التمّار :

وكان متصلاً بالمنتصر ، وله شعر حسن في الغزل وغيره ، توفي في آخر أيام المعتمد(٣٠٣) .

وليعقوب هذا قصيدة نظمها في عهد المعتمد ، صوّر فيها حالته المعيشية ، وعلى الرغم من الطابع الفكاهي الذي نظمت فيه فانها من جهة اخرى تعكس لنا - بلا شك - جانباً مهماً من الجوانب التي كانت بعيدة عن تناول الشعراء الاخرين الذين أموا هذه المدينة ، وأقاموا في قصور خلفائها ووزرائهم .

في هذه القصيدة يبين لنا الشاعر انه كان معدما ، وانه يسكن دارا تعود أجرتها للسلطان ، وعليه أن يدفع بعد كل شهرين سبعين درهماً ، والا فالويل له من الوكلاء . وهذه القصيدة تظهر لنا بجلاء تردي الحالة الاقتصادية التي انحطت اليها الدولة في عهد هذا الخليفة المغلوب على أمره من قبل أخيه الموفق . قال يعقوب :

يا ربِّ (لا فرح) مما أكابده
بسرّ مَنْ را على عسري واقتاري(٣٠٤)

---

(٣٠٢) الاغاني ٣٦٢/١٦ (دار الكتب) ، مقاتل الطالبيين لابي الفرج الاصفهاني ص٦٠٢ تحقيق : صقر .

(٣٠٣) انظر : معجم الشعراء ص٥٠١ ، وتاريخ بغداد ٢٨٧/١٤ .

(٣٠٤) كذا وردت الكلمة (فرح) بالحاء المهملة ، في المخطوط ، ولعل أصلها (فرج) بالجيم .

لا راحة قبـــل وقت الموت تدركني
فيســتريح فؤاد غــير صبــار

قــد شيبت مفرقي ســبعون تلزمني
في منزل وضح من نقد قسطار(٣٠٥)

(جباتها)(٣٠٦) قبل فتح النجم وافية
ولو (تعينت)(٣٠٧) ديــناراً بدينار

يطول همــي وأحزاني اذا فتحــوا
نجمــاً ، وأبكي بدمــع مُسبل جار

أموت في كل يوم موتـــة ، فــاذا
لاح الهـــلال ، فمنشـــور بمنشــار

تغــدو عليَّ وجـوه من مغاربــة
كأنمــا طليت بالـــزفت والقـــار

اذا تغيبت عنهـــم ســاعة كسـروا
بابي بارْزبّــة أو فأس نجــار(٣٠٨)

وان ظهرت ، فقلع البــاب أيسره
والحبس ان لم تغشني رقة الجار

فان أعـــان بقرض كفٌ أيديهم
أو لا ، فاني غداً من كســوتي عــار

سل المنادي الذي نادى عـــلى سلبي
كم جهد ما بلغت في السوق أطماري

---

(٣٠٥) الوضح : الدرهم الصحيح . القسطار : منتقد الدراهم .
(٣٠٦) في المخطوط (حيالها) ونظن الصحيح ما اثبتناه .
(٣٠٧) كذا وردت في المخطوط . النجم : الوقت المعين لاداء دين أو عمل .
(٣٠٨) الارزبة : المطرقة الكبيرة تكسر بها الحجارة .

ان قيل عند وفاتي أوص قلت لهـــم
شهدت أن إلهي الخالق الباري
وإن أحمـــد عبـــدالله أرســـله
وان (سبعين)[٣٠٩] حقاً أجرة الدار[٣١٠]

وهناك عدد آخر من الشعراء الذين ترددوا على هـــذه المدينة ، أو أقاموا فيها ،ولهم في خلفائها مدائح ومراث ، منهم :

أبو علي البصير الفضل بن جعفر : وهو من الادباء البلغاء والشعراء الظرفاء ، قدم سامراء أول خلافة المعتصم ومدحه والخلفاء بعده الى أيـام المعتز ، وكانت وفاته بسامراء[٣١١] . ويبدو أن أكثر شعره وبخاصـــة ما قاله في خلفاءهذه المدينة قد فقد ، اذ لم نعثر له على شيء ذي بال في هذا الشأن ،اللهم الاما روي له من أبيات متكلفة يحث فيها المستعين على البيعة لابنه الطفل ، قال فيها :

بك الله حاط الدين وانتاش أهلـــه
من الموقف الدحض الـــذي مثلـه يردي
فول ابنـــك العباس عهـــدك ، انه
له موضع ، واكتب الى الناس بالعهـد
فان خلّفته السن فالعقـــل بالـــغ
به زينة الشيخ الموفق للرشـــد

---

(٣٠٩) فيالمخطوط (سبعون) .

(٣١٠) الوافي بالوفيـات للصـفدي مخطوط بـدار الكتب ج٧ م٣ ص٤٢٩ ـ ٤٣٠ تحت رقم ٢١٩١ تاريخ .

(٣١١) انظر : معجم الشعراء ص١٨٥ ، ونكت الهميـان للصـفدي ص٢٢٥ ، وطبقات الشعراء ص٣٩٨ .

وقد كان يحيى أوتي العلم قبله
صبياً ، وعيسى كلّم الناس في المهد[٣١٢]

كما رويت له أبيات أخرى في مدح المعتز بعد استخلافه ، قال فيها :

آب أمر الاسلام خير مآبه
وغدا الملك ثابتاً في نصابه
مستقراً قراره مطمئناً
آهلاً بعد نأيه واغترابه
فاحمد الله وحده والتمس بالعفو ـ عمن هفا ـ جزيل ثوابه[٣١٣]

وابراهيم بن أحمد الاسدي الذي رثى المتوكل بأكثر من قصيدة ، ولعل أجود ما قاله في رثائه هذه الابيات التي لا تخلو من الطرافة :

هكذا فلتكن منايا الكرام
بين ناي ومزهر ومدام
بين كأسين أروناه جميعاً
كأس لذاته وكأس الحمام
يقظ في السرور حتى أتاه
ـ قدّر الله ـ حتفه في المنام
والمنايا مراتب يتفاضلن وبالمرهفات موت الكرام
لم يزر نفسه رسولُ المنايا
بصفوف الاوجاع والاسقام
هابه معلناً فدبّ اليه
في ستور الدجى بحد الحسام[٣١٤]

---

(٣١٢) مروج الذهب ٤/٨٤ (دار الاندلس) .
(٣١٣) مروج الذهب ٤/٨٤ .
(٣١٤) انظر : زهر الآداب ١/٢٢٧، وشعراء بغداد للخاقاني ١/٢ .

ومحمد بن أبي الوليد الكلابي الابرص ، وكان قد قال في المتوكل قصيدة جيدة منها :

أودى الشـــباب فلا عين ولا أثــــر
وارتدّ باليأس عن أهوائـــه النظـــر
وطالمـــا كانت اللذات حاجتـــه
والمُصبيات التي حُجّبها الستر
كلّ مضى فانقضى إلاّ تذكّــره
كما تحمّل أهل الدار فانشمروا(٣١٥)

وأبو الشبل البرجمي ، عاصم بن وهب الكوفي المولد ، البصري النشأة ، قدم الى سامراء في أيام المتوكل ومدحه فأثرى وأفاد ، وكان ظريفاً ماجناً كثير الغزل ، وله من قصيدة جيدة المعنى خفيفة الوزن :

أقبلـــي فالخـــير مقبـــلْ   واتركـــي قـــولَ المعلّـــل
وثقـــي بالنجـــح إنْ   أبصـــرتِ وجـــه المتـــوكل
مَلِـــكٌ ينصـــف يا ظـــا   لمتـــي فينـــا ويعـــدل
فهـــو الغايـــة والمـــأ   مول يرجوه المؤمّـــل(٣١٦)

ومحمد بن عبدالله بن طاهر الذي دخل على المتوكل في شكاة له يعوده ، فقال فيه هذه الابيات التي لا تخلو من الملق والتكلف :

الله يدفع عن نفس الامام لنـــا
وكلنـــا للمنايـــا دونـــه غرض
فليت أن الذي يعروه من مرض
العائدين جميعاً لا بـــه المرض

---

(٣١٥) معجم الشعراء ص٣٨٨ ـ ٣٨٩ ٠

(٣١٦) الاغاني ٢١/١٣ ، ومعجم الادباء ٢٣٧/١ ، ونهايـة الارب للنويري ٦٣/٤ ٠

فبالامام لنـــا من غيرنـــا عوض

وليس في غيره منـــه لنا عوض

فما أبالي اذا مـا نفســه سلمت

لو باد كل عباد الله وانقرضوا(٣١٧)

وأبو الهيثم خالد بن يزيد الكاتب ، من أهل بغداد ، وأصله من خراسان وكان شاعراً غزلاً ، رقيق الشعر ، ومن أصحاب المقطعات ، وله عـــدة مدائح في المعتصم ، ولعلـه أول شـاعر قال في بنـــاء سامراء وحببهـا الى المعتصم(٣١٨) .

ومحمد بن عمرو الجماز البصري ، وكان صاحب مقطعات ، ماجناً ، اتصل بالمتوكل ومدحه(٣١٩) . ومحمد بن الفضل الجرجرائي الكاتب ، وكان شيخاً ظريفاً ، حسن الادب ، عالمـاً بالغنـاء ، وزر للمتوكل وتوفي سنة خمسين ومائتين ، وقد نيّف على الثمانين(٣٢٠) .

ومحمد بن ادريـــس بن أبي حفصـــة ، وكـــان مـــن مـــدّاح المتوكل(٣٢١) .

ومحمد بن محمـــد بن عروس الكاتب الذي كـان ينـزل سامراء ، وكانت وفاته سنة ثمانين ومائتين(٣٢٢) .

ومحمد بن عبدالرحمن العطوي البصري ، أحد المتكلمين الحذاق ،

---

(٣١٧) العقد الفريد ٢/٤٥٢ .

(٣١٨) انظر : الاغاني ٢١/٣١ ، وطبقـــات الشـعراء لابن المعتز ص٤٠٥ ، وتاريخ بغداد ٨/٣٠٨ ومعجم الادباء ١١/٤٧ .

(٣١٩) انظر : معجم الشعراء ص٣٧٤ ، وتاريخ بغداد ٣/١٢٥ .

(٣٢٠) انظر : معجم الشعراء ص٣٧٨ .

(٣٢١) المصدر نفسه ص٣٨٦ .

(٣٢٢) انظر : الوافي بالوفيـات ١/١٢٨ ، فـوات الوفيات لابن شاكر ٢/٣١٩ .

ولم يكن ذا شأن في الشعر حين كان في مدينته البصرة ، ولكنه ما لبث ـ بعد أن استوطن سامراء ، أن قال الشعر الجيد الذي كان يتهاداه الادباء ، وكان أكثر اتصاله بالقاضي أحمد بن أبي دواد(٣٢٣) .

وعلي بن أحمد العبادي العقيلي وكان ضريراً فصيحاً(٣٢٤) .

ومحمد بن يزيد البشري الاموي من أهل ميافارقين ، وكانت له مراث في المتوكل(٣٢٥) .

وجعيفران بن علي المعروف بالموسوس ، وكان من الادباء الشعراء المطبوعين ، وكان من ساكني سامراء(٣٢٦) .

وسوسنة الموسوس المكنّى بأبي الغصن. وكان من عقلاء المجانين،سكن سامراء وقد كف بصره ، وكان شاعراً سريع الخاطر(٣٢٧) .

ومحمد بن جعفر الربهمي اليمامي ، وكان راوية أديباً ، بقي الى آخر أيام المعتمد ، وقد هجا المستعين عند انحداره الى بغداد(٣٢٨) .

وأحمد بن صالح القطربلي ، وكان شاعراً ، أديباً ، ظريفاً ، حتى سمي بظريف الكتاب ، وقد ولّي الدواوين الجليلة ، ووزر للمعتمد(٣٢٩)

وأحمد بن أبي طاهر ، الذي يعد من البلغاء الشعراء ، والمصنفين المكثرين ، وكان يتردد على كتاب سامراء ويمدحهم ، وتوفي ببغداد سنة

---

(٣٢٣) انظر : الاغاني ٢٠/٥٩ ومعجم الشعراء ص٣٧٧ ، والفهرست ص٢٧٠ وتاريخ بغداد ٣/١٣٧ .
(٣٢٤) انظر : معجم الشعراء ص١٥٠ .
(٣٢٥) انظر : المصدر السابق ص٣٩٨ .
(٣٢٦) انظر : الاغاني ١٨/٦١ ، وفوات الوفيات ١/٢٠٧ .
(٣٢٧) انظر : نكت الهميان للصفدي ص١٦٤ .
(٣٢٨) انظر : معجم الشعراء ص٤٠١ .
(٣٢٩) انظر : شعراء بغداد للخاقاني ١/٢٨٧ .

ثمانين ومائتين[٣٣٠] .

ومحمد بن الفضل الكاتب المعروف بالبعوة ، وكان ظريفاً ماجناً[٣٣١] .

وأحمد بن أبي فنن ، وكان شاعراً مطبوعاً ، اتصل بالمتوكل ومدحه[٣٣٢] .

وعبدالصمد بن المعذل[٣٣٣] ، وأخوه أحمد بن المعذل[٣٣٤] ، ومحمد بن أبي المغيرة[٣٣٥] ، وعلي بن سليمان[٣٣٦] ، ودعبل الخزاعي[٣٣٧] ، وأبو هفان[٣٣٨] ، ومحمود الوراق[٣٣٩] وغيرهم كثير .

وظهر في هذه المدينة جماعة من الشعراء كانوا في أول أمرهم ينظمون في أمور الجد ولكنهم ما لبثوا أن عدلوا عن ذلك وسلكوا طريقاً آخر ، هو طريق الهزل ، وساعد على ذلك ـ بلا شك ـ تشجيع أحد الخلفاء لهم ، وهو المتوكل ، الذي كان ميالاً الى الدعابة والهزل ، وقد حصلوا من جراء ذلك على جوائز كثيرة لم يستطع الحصول عليها كثير

---

(٣٣٠) انظر : معجم الادباء ٣/٨٧ .
(٣٣١) انظر : معجم الشعراء ص٣٩٨ .
(٣٣٢) انظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٩٦ ، ومعجم الادباء ١٥/١٤٨ .
(٣٣٣) انظر : الاغاني ١٢/٦٤ .
(٣٣٤) انظر : طبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٦٨ .
(٣٣٥) انظر : معجم الشعراء ص٤١٧ .
(٣٣٦) انظر : معجم الادباء ١٥/١٥٦ .
(٣٣٧) انظر : ديوان دعبل ص١٠٧ .
(٣٣٨) انظر : معجم الشعراء ص٣٩٨ ، ومعجم الادباء ١٥/١٤٨ ، ونكت الهميان ص١٦٢ .
(٣٣٩) انظر : اخبار ابي تمام ص١٤٧ .

من الشعراء والادباء . من أولئك الشعراء :

أبو العبر الهاشمي : وكان اتخذ الحمق وسيلة لكسب الاموال ، حتى قيل : انه كسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر في عصره بالجد . وله في المتوكل أشعار حميدة ، كما له أوصاف في قصره وبرج الحمام والبركة لم يرو منها شيء في المصادر لما فيها من غلو وافراط ، وكانت مشهورة بين الناس(٣٤٠) .

وأبو العنبس الصيمري : وهو محمد بن اسحاق ، وكان أحد الادباء الملحاء ، كثير الهجاء ، اتصل بالمتوكل ونادمه واختص به . وله مع البحتري خبر معروف جرى بينهما في مجلس المتوكل ، ذلك أن البحتري ـ كما يقال ـ كان يقوم بحركات غير مستحبة عند انشاده الشعر(٣٤١) ، وقد أضجرت تلك الحركات المتوكل وهو يستمع الى قصيدته التي مدحه بها والتي مطلعها :

عن أيّ ثغر تبتسم   وبأيّ طرف تحتكم

فأشار الى أبي العنبس وأغراه بهجاء البحتري على الرويّ نفسه ، فاندفع هذا ـ كما يقال ـ مرتجلاً أبياتاً يهجو فيها البحتري ويهزأ به ، منها قوله :

---

(٣٤٠) انظر : الاغاني ٢٠/٩٠ ، ومعجم الادباء ١٧/١٢٢ .

(٣٤١) قيل : ان البحتري كان من أبغض الناس انشاداً ، يتشدق ويتزاور في مشيه مرة جاثياً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبه اخرى ، ويشير بكمه ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ، هذا والله لا يحسن احد ان يقول مثله ... واذا صح هذا ـ ونشك في صحته ـ فيكون من الغريب حقاً أن يهجو البحتري أحد المغنين بقوله :

اذا صاح سالت له مخطة   على العود ، وانقلعت بلغمه

كثير التلفت والاعترا   ض، شديد التفلت والهمهمه

(ديوان البحتري ٤/٢٠٧٧ طبعة الصيرفي) .

أدخلت رأسك في الرحم وعلمت أنك تنهزم
يا بحتريّ حذار ويحك من قضاقضة ضغم
فلقد أسلت بوالديك من الهجا سيل العرم
فبأي عرض تعتصم وبهتكه جفّ القلم
والله حلفة صادق وبقبر أحمد والحرم
وبحق جعفر الاما م ابن الامام المعتصم
لاصيرنَّك شهرة بين المسيل الى العلم

فغضب البحتري وخرج من المجلس ، وقد أثر فيه هذا النوع من المزاح حتى لقد عزم على الخروج من سامراء والقفول الى مدينته منبج ، من غير استئذان الخليفة ، ولم يثنه عن ذلك الا نصيحة أحد أخدانه له ، وتهدئته من قبل الفتح بن خاقان ٠

ويبدو أن هؤلاء الشعراء وجدوا أن لا طاقة لهم في زحمة الشعراء المجيدين كالبحتري وغيره ، فلجأوا الى هذا الضرب من المجون ٠ ومصداق هذا ما جرى بين هذين الشاعرين ٠ فقد حاول أبو العنبس أن يؤنب أبا العبر على ما يقوم به من أنواع السخافات والمجون ، وحاول أن يعدله عن ذلك ، فثار أبو العبر عليه واتهمه بقلة العقل ، وقال له : أتظن أنك لو اتخذت الجد ذريعة لك ، كنت مستطيعاً التغلب على البحتري في مجلس الخليفة ، وهو ينشده قصيدته ، وأنت ترد عليه بكلام كله سخف وهذر ، فتحصل على الجائزة ويحرم هو ؟[٣٤٢] ٠

ولم يكن الشعر مقصوراً على الرجال فحسب ، بل شاركهم في ذلك عدد من النساء الشواعر ، ومما امتازت به أولئك الشواعر : سرعة الخاطر وحضور البديهة حتى كن في كثير من الاحيان يفحمن ــ لقدرتهن على الارتجال ــ كبار فحول الشعراء ٠ منهن :

---

(٤٣٢) انظر : اخبار البحتري ص١٧٠ ــ ١٧١ ٠

فضل الشاعرة اليمامية :

وكانت جارية من مولدات البصرة ، أدبت وعلمت ، ثم بيعت وأهديت للمتوكل ، وكانت حسنة الوجه والجسم والقوام ، أديبة فصيحة سريعة البديهة مطبوعة على قول الشعر . وكانت تجلس للرجال ، ويأتيها الشعراء والادباء ، ولها مدائح كثيرة ، توفيت سنة سبع وخمسين ومائتين(٣٤٣) .

وحين دخلت على المتوكل ، يوم أهديت له ، سألها : أأنت شاعرة ؟ فأجابت : هكذا يقول من باعني ومن اشترى . وطلب اليها أن تنشده من شعرها فقالت :

استقبل المُلكَ إمامُ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينا(٣٤٤)
خلافة أفضت الى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنّا لنرجو يا امامَ الهدى أن تملكَ الناس ثمانينا
لا قدّس الله امرأً لم يقل عند دعائي لك آمينا(٣٤٥)

وكان أولئك الشواعر اللواتي كن يعشن في قصور الخلفاء بين الجواري على درجة فائقة من سرعة الخاطر . وكان الخلفاء يستمتعون بأشعارهن ويحضونهن على الاستزادة ما وجدوا الى ذلك سبيلاً ، فكن كبقية شعراء القصور يعكسن نوعاً من طبيعة الحياة المترفة التي كان عليها الخلفاء وحاشيتهم في تلك الآونة . فحدث أن مشى المتوكل يوماً في أحد قصوره ، وقد اتكأ على يد احدى الشواعر واسمها « بنان » وعلى يد فضل الشاعرة هذه ، وألقى عليهما بيتاً من الشعر هو :

---

(٣٤٣) انظر الاغاني ٢١/١٤ والنجوم الزهراء ٣/٢٨ وفوات الوفيات ٢/٢٥٣ .

(٣٤٤) أي ثلاث وثلاثين ومائتين للهجرة .

(٣٤٥) انظر الاغاني ٢١/١١٥ وفوات الوفيات ٢/٢٥٥ .

تعلمتُ أسباب الرضى خوف عتْبهـا
وعلَّمها حبي لهـا كيف تغضب

وطلب إجازته ، فقالت فضل :

تصدُّ وأدنـو بالمودة جاهـداً
وتبعد عني بالوصـال وأقـرب

وقالت بنان :

وعندي لها العتبى على كل حالة
فما منه لي بدٌّ ولا عنه مذهب(٣٤٦)

وطلب أحد الشعراء الى فضل الشاعرة ، أن تجيز له البيت الآتي :

علمَ الجمـال تركتنـي بهواك أشهر من علم

فأنشأت تقول على البديهة :

وأبحتنـي يـا سيدي سُقماً يجل عن السقم
وتركتنـي غرضـاً ـ فديتـك ـ للعـواذل والتهـم
صلـة المحب حبيبـه الله يعلمـه كـرم(٣٤٧)

محبوبة الشاعرة :

وكانت من مولدات البصرة أيضاً ، شـاعرة شريفة مطبوعـة ، ذات قدرة فائقة على الارتجال ، أهديت للمتوكل ، وبقيت مدة بعده ، ثم أخمل ذكرها •

ومما يروى عن ارتجالها الشعر أن المتوكل دخل على زوجته قبيحة فوجدها قد كتبت اسمه على خدها بالغالية ، فأعجب بذلـك ، وأحب أن

---

(٣٤٦) ، (٣٤٧) الاغاني ١١٦/٢١ وانظر فوات الوفيات ٢٥٣/٢ ـ ٢٥٥ فقد ذكر لها نماذج اخرى من هذا الشعر المرتجل •

يعمل فيه شعر ، فدعا علي بن الجهم ، وأمره أن يقول شيئاً فيما شاهده ، فأرتج عليه ، وكانت محبوبة في جملة الحاضرين ، فابتدرت قائلة على البديهة :

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا
بنفسي مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطراً بكفها
لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من لمملوك لملك يمينه
مطيع له فيما أسرّ وأظهرا
ويا من مناها في السريرة جعفر
سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا(٣٤٨)

وبعد مقتل المتوكل تفرقت جواريه فكان بعضهن ـ ومنهن محبوبة ـ من نصيب وصيف ، فأصطبح هذا ، ودعا باحضار الجواري ، فحضرن وعليهن الفاخر من الثياب ، والزكي من العطور ، الا محبوبة ، فانها كانت مرتدية ثياباً بيضاً ـ وهي علامة الحداد لدى العباسيين ـ حزناً على المتوكل فغنى الجواري وشربن وطربن ، وأحب وصيف أن تغنى محبوبة ، فأخذت العود وغنت وهي تبكي :

أيُّ عيشٍ يلذُّ لي ... لا أرى فيه جعفرا
مَلِكاً قد رأته عيـ ... ـني قتيلاً معفّرا
كلُّ من كان ذا هُيا ... م وحُزن فقدْ بَرا
غير محبوبة التي ... لو ترى الموتَ يُشترى
لاشترته بملكها ... كل هذا لتقبرا
إنَّ موتَ الحزين ... أطيبُ من أن يُعَمَرا

(٣٤٨) انظر الاغاني ١٩/١٣٢ ـ ١٣٤ وجعفر : اسم المتوكل *

فاشتد غضب وصيف وهم بقتلها ، وكان في جملة الجلساء بغا الذي استطاع أن ينقذها منه ، ثم طلب اليها مغادرة سامراء ، فغادرتها الى بغداد وانقطعت أخبارها[٣٤٩] . ومن أولئك الشواعر أيضاً :

« سامر » : وكانت شاعرة من الاماء ، كان يتعشقها ابراهيم بن العباس الصولي وله فيها غزل كثير[٣٥٠] .

ونبت : جارية المعتمد وكانت مغنية ، حسنة الغناء ، وشاعرة سريعة الخاطر اشتراها المعتمد فاستحسنها في الغناء والكتابة[٣٥١] .

وعائشة بنت المعتصم بن الرشيد وكانت اديبة شاعرة[٣٥٢] .

وجارية الفتح بن خاقان التي رثته بعد مقتله بقولها :

قـد قلت للموت حين نازلـه
والموت مقدامـةٌ عـلى البهـم
لـو تبينـت مـا فعلتَ اذنْ
قرعت سِـنـاً عليـه من نـدم
فاذهب بمن شئت اذ ذهبت بـه
ما بعد فتحٍ للموت من الم[٣٥٣]

. . .

المغنون والمغنيات :

لا نضيف جديداً اذا ألمحنا الى ان الغناء في القرن الثالث الهجري قد وصل الى درجة عالية من الاتقان والتفنن ، وأقبل عليه الناس وشغفوا

---

(٣٤٩) الاغاني ١٩/١٣٣ـ١٣٤ .
(٣٥٠) انظر الاغاني ٩/٢١ ـ ٢٢ ، ٢٩ ، ٦٠ ومعجم الادباء ١/١٧٤ ـ ١٧٧ واعلام النساء لكحالة ٢/١٤٤ .
(٣٥١) انظر اعلام النساء لكحاله ٥/١٦٢ .
(٣٥٢) المصدر نفسه ٣/١٩١ .
(٣٥٣) انظر معجم الادباء ١١٦/١٨٦ .

به ، وحذقه الكثير من الرجال والنساء ، بل وكثير من الامراء والخلفاء[٣٥٤] .

وكان الواثق احد خلفاء بني العباس في سامراء من أعلم الناس بالغناء وشهد له بذلك كبير مغني ذلك العصر ، اسحاق الموصلي . فقد قال : « ما كان يحضر مجلس الواثق أعلم منه بهذا الشأن » أي الغناء[٣٥٥] وقد روى له صاحب الاغاني عدداً كثيراً من الاصوات .

ولا نريد هنا ان نخوض في تفصيلات هذا الموضوع وتشعباته وانما الذي ينبغي ان ننبه اليه ، أن كثيراً من اولئك المغنين كانوا على درجة كبيرة من الثقافة الادبية والشعرية ، وهو أمر طبيعي ـ على ما نظنه ـ لاتصال الغناء وعلاقته الوثيقة بالأدب ولا سيما الشعر :

ومن نافلة القول الاشارة الى أن أولئك المغنين والمغنيات قد اتخذوا سامراء ـ في هذه الحقبة ـ مستقراً لهم ، وسوقاً يعرضون فيها ما تجود به عبقرياتهم من فنون وابداع ، وكان لجوائز الخلفاء السنية ، واقبال الناس على الاستماع أكبر الاثر في ازجاء أولئك المغنين الى الاجادة والابداع والتفنن .

لقد انتشر الغناء في هذه المدينة انتشاراً عجيباً ، فكان لكثير من الافراد جوار خاصة تغنيهم ، وكثيراً ما كان المغنون يترددون على تلك الدور للغناء والاستماع[٣٥٦] وقد بلغ الشغف بالغناء ، ان انقسم الناس في سامراء الى طائفتين : طائفة تشايع المغنية « عريب » وأخرى تناصر المغنية « شارية »[٣٥٧] وكثيراً ما كانوا يستحسنون صوتاً من الاصوات ، فيبقون

---

(٣٥٤) أنظر نهاية الارب للنويري ٤/٢٠٠ـ٢٢٦ .
(٣٥٥) الاغاني ٥/٨٩ ـ ٩٢ .
(٣٥٦) انظر الاغاني ١٠/١٥٥ .
(٣٥٧) المصدر السابق ١٤/١٠٩ .

يلهجون به ويرددونه الى ان يحل محله صوت آخر(٣٥٨) مما له شبه كبير في عصرنا هذا

وبوسعنا الآن الكلام على عدد من المغنين والمغنيات بقدر ما يتعلق ذلك باتصالهم بخلفاء هذه المدينة فمن اولئك :

اسحاق الموصلي :

وكان كثير التردد والاقامة في هذه المدينة ، منذ تأسيسها في عهد المعتصم الى قبيل وفاته في عهد المتوكل • وقد لقي حظوة كبيرة لدى الواثق الذي كان كما أشرنا يعرف الكثير عن الغناء وأصوله • وكثيراً ما كان الواثق يطريه ويعترف له بفضله وحذقه ، حتى روى عنه انه قال : « ما غناني اسحاق قط الا ظننت انه قد زيد في ملكي •• وان اسحاق لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ بمثلها ، ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي »(٣٥٩) •

وكان هذا الأعجاب من الخليفة مقروناً بالجوائز السنية التي كان يغدقها عليه في كثير من المناسبات ، حتى قال اسحاق : « ما وصلني احد من الخلفاء قط بمثل ما وصلني به الواثق »(٣٦٠) • وكان من جراء هذا الاعجاب من الخليفة ، ان أصبح اسحاق كالمحتجز في سامراء ، وكثيراً ما كان يتحين الفرص الملائمة ، فيتوصل عن طريق الشعر والغناء الى زيارة أهله وولده في بغداد ، فقد حدث ان خرج الواثق يوماً للتنزه الى منطقة قريبة من بغداد ، واصطحب معه اسحاق ، فلما قرب ركب الخليفة منها تذكر اسحاق أهله وولده فبكى ، فقال له الواثق ــ وقد عرف ذلك ــ : أظنك ذكرت الاهل والولد ، فقال : نعم ، وتغنى :

---

(٣٥٨) الاغاني ١١٦/١٤ •
(٣٥٩) المصدر السابق ٥٦/٥ (دار الكتب)
(٣٦٠) المصدر نفسه ٨٨/٥ •

وما زلت ابكى في الدّيار وانما
بكائي على الأحباب ليس على الدّار

فسمح له بالانصراف ومنحه جائزة ثمينة[٣٦١] •

وكان لاسحاق دالة على الواثق ، فكان المغنى الوحيد الذي يستطيع أن يمتنع عما يطلبه الخليفة ، كما يربأ بنفسه أن ينـزل منزلة أمثاله من المغنين حتى في مجالس الغناء ، فقد كان المغنون مرة مجتمعين في دار الواثق عشاء فأخبرهم الخليفة بعزمه على الاصطباح ، وطلب اليهم البقاء في الدار هذه الليلة فلم يستطع أحد منهم مخالفة ذلك الا اسحاق ، فأنه اعتذر عن المبيت ، فقبل الواثق عذره ، وطلب منه أن يبكر اليه ، فأقبل مع قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد ، وقد لبس ما يشبه زيه ثم جلس في صف الندماء ، فاذا أمره الواثق بالغناء ، خرج من صفهم وتناول عوده ، حتى اذا انتهى دوره رجع الى مكانه مع الجلساء ، وقد ترك عمله هذا أثراً سيئاً في نفوس المغنين ، أمثال مخارق وعلويه[٣٦٢] • كما كان صارماً في قول الحق فيما يتصل بالغناء وأصوله لا يجامل في ذلك كائناً من كان ، حتى ولو كان الخليفة نفسه ، وقد أستغل هذه الشدة عدد من مناوئيه ـ في المهنة ـ للايقاع به •

فقد كان الواثق في كثير من الاحيان يعرض عليه ما يصنعه من الالحان ، ليعرف رأيه في صحتها وضبطها ، فكان يبدى في ذلك رأيه ويرشده الى مواطن الخطأ أو يوقفه على مواضع الاتقان • وقد صنع الخليفة في قول الشاعر :

---

(٣٦١) الاغاني ٥/٨٨ وانظر ص١١٥ حيث عمل اسحاق مع المتوكل كما عمل مع الواثق •

(٣٦٢) انظر : المصدر السابق ٥/٦٠ـ٦١ •

أيا منشرَ الموتى أقدْني من التي
بها نهلت نفسي سقاماً وعلت

لقد بخلت حتى لو أني سألتها
قذى العين من سافي التراب لضنتِ

وظن أنه أجاد فيه كثيراً ، وكان مع الواثق المغنى « مخارق » فأراد ان يكيد لاسحق فقال للواثق : ان اسحاق يخادعك في اصداره الاحكام على الأصوات التي تصنعها . فهو يبدى استحسانه أمامك ، ولكنه يتكلم بغير ذلك في خلافك ، وسأثبت مصداق ذلك بغنائي لصوتك هذا أمامه . فأرسل الواثق الى اسحاق وطلب اليه الاستماع الى الصوت الذي صنعه ، فغنى مخارق الصوت وأخلّ فيه في مواضع خفيت على الواثق ، فلما انتهى مخارق من الغناء ، سأل الواثق اسحاق عما سمعه فقال له : انه فاسد ، فأستشاط الواثق غضباً وأمر باخراجه ونفيه الى بغداد ولم يرسل اليه الا بعد تدخل « فريدة » جاريته التي نبهته الى ان في الامر حيلة فأرسل اليه ، واستمع الى الصوت مرة أخرى ـ وغنته في هذه المرة فريدة ـ فحكم على جودته(٣٦٣) .

وكان اسحاق الى جانب حذقه الغناء ذا معرفة بالادب ونقده ، فقد روى انه غنى الواثق :

عفا طرف القُريّة فالكثيف
الى ملحاء ليس لها عريب

تأبد رسمها ، وجرى عليها
سوافي الريح والترب الغريب

فسأله ، أي شيء أحسن في هذين البيتين من جميعهما ؟ فأجاب :

---

(٣٦٣) انظر المصدر السابق ٥/٩٠ .

قوله « الترب الغريب » لانه يريد ان الريح نقلت الى الارض ترابا ليس منها فهو غريب جاءت بـه من مكان بعيـد ، فقـال الواثق : صـدقت وأحسنت[٣٦٤] .

ثم جاء عصر المتوكل ، ولم يكن احتفاؤه به أقل من احتفاء أخيـه الواثق فقد سأل عنه ، فقيل : انه قد كف ، فأمر باحضاره من بغداد ، وحين دخل عليه رحب به كثيراً ، وأجلسه أمام السرير ، وأعطاه مخدة ـ ويبدو أن هذا دليل الاحترام والتقدير عندهم آنذاك ـ ثم طلب ان يسقى ويعطى عوداً فاندفع يغني بشعر له :

ما علـةُ الشيخ عينـاهُ بأربعة
تغرورقـان بدمـعٍ ثـم تنسـكبُ

ويقال ان صوته هذا لم يدع أحداً من الغلمـان الواقفين في المجلس الا وهو يرقص طرباً[٣٦٥] : بيد أن اسحاق لم يطل الاقامة مع المتوكل ، اذ انصرف قافلاً الى بغداد ، بسبب كبره وضعفه ، وقيل : انه توفي بعد رجوعه بقليل وحين سمع المتوكل بوفاتـه ، حزن عليه وأسـف وقال : « ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته »[٣٦٦] .

* * *

مخارق : وكان نسيج وحده في أخذ الاصوات عن اسـحاق ، ولـم يستطع غيره ان يقوم بما يقوم به في ذلك . وقد حدث مرة أن الواثق ، أحب أن يأخذ عن اسـحاق ، فأرسـل في طلب مخـارق فوجده مريضـاً لا يستطيع الحضور ، فأعاد الرسول ومعه محفة ، وطلب احضاره مهمـا

---

(٣٦٤) انظر الاغاني ٥/٩٣ . ملحاء : واد من اعظم اودية اليمامة . عريب : أحد .

(٣٦٥) المصدر نفسه ٥/١١٥ .

(٣٦٦) المصدر السابق ٥/١١٥ .

كان الأمر ، فتحامل مخارق وجاء وأخذ الصوت ورجع[٣٦٧] وكانت وفاته في سامراء[٣٦٨] .

* * *

علويّه : وهو تلميذ ابراهيم بن المهدي ، اتصل بالواثق وغنى له . وكانت الحانه مشهورة ، يرددها الناس في سامراء ، وقال فيه الواثق : « علوية أصح الناس صنعة بعد اسحاق ، وأطيب الناس صوتاً بعد مخارق ، وأضرب الناس بعد ربرب وملاحظ ، فهو مصلى كل سابق ، وثاني كل أول » وقال : غناء علويه مثل نقر الطست ، يبقى ساعة في السمع بعد سكوته[٣٦٩] .

* * *

عمرو بن بانة :

وكان يقتدي بمذهب ابراهيم بن المهدي في الغناء أيضاً . اختص بالمتوكل وغناه ، وطلب من المتوكل أن يشترى له داراً في سامراء ، فأمر وزيره أن يقوم بذلك ، فدافعه هذا أياماً بحجة حلول شهر رمضان ، فلجأ ابن بانة الى الغناء لينبه الخليفة الى ذلك ، فغناه في أول يوم العيد :

ملاّك ربي الأعياد تخلقها
في طول عُمر يا سيد الناس
دُفعتُ عن منزل أمرت به
فانني عنه مباعد خاس
فمر بتسليمه اليّ على
رغم عدوى بحرمة الكاسِ

---

(٣٦٧) المصدر نفسه ٥/١٠٠ ـ ١٠١ .
(٣٦٨) انظر النجوم الزهراء ٢/٢٦٠ .
(٣٦٩) الاغاني ١٠/١١٦ ـ ١١٧ ، ١٢٠ .

أعـــوذُ بـالله والخليفـــة أن

يرجـع مـا قلتـه عـلى راسي

فأمر المتوكل وزيره بشراء الدار له ، وكانت وفاته فيها سنة ثمـان وسبعين ومائتين(٣٧٠) .

عبدالله بن العباس الربيعي :

وكان يجمع بين الشعر والغناء والظرف . وقد غنى الواثق والمتوكل والمنتصر فأعجبوا به ومنحوه جوائزهم . وكثيراً ما كان الخلفـاء يحتفلون بأيام الاعياد والمناسبات ، فيدعـون المغنين والملهين والندمـاء الى مجالسهم ، وقد دعا الواثق المغنيين والندماء في يوم نيروز ، وكان في جملتهم عبدالله المذكور ، فصنع لحناً في شعر قاله في هذه المناسبة ، وغنى فيه وهو :

هـي للنـيروز جامَـا ومُدامـــاً ونَـدَامــى
يحمدونَ اللـــهَ والـوا ثقَ ، هـرونَ الامامـا
ما رأى كسرى أنوشـر وانُ ، مثل العـام غامـا
نرجسـاً غضـــاً ووردا وبهاراً ، وخُزامـى(٣٧١)

وكان المغنون يستغلون غناءهم في كثير من الاحيان للتعبير عما يجيش في نفوس الخلفاء من أمور ، تتصل بخلافهم مع زوجاتهم أو جواريهم ، وقد حدث ان غضبت زوجة المتوكل عليه يوماً ، فدعا الجلساء والمغنيين ليسلي نفسه عنها فأستغل عبدالله ذلك وغنى في شعر قاله وهو :

لست مني ولست منـــك فدعني

وامض عني مصاحبـــاً بســـلام

---

(٣٧٠) انظر الاغاني ١٤/٥٢ ـ ٥٣ ، والفهرست ص٢١٣ ـ ٢١٤ الخاسي في البيت الثاني : المبعد .

(٣٧١) الاغاني ١٧/١٣٢ . الجام اناء من فضـة . البهـار نبت جعد له فقّاحة صفراء ينبت أيام الربيع يقال لها العرارة .

لم تجدْ علةً تجنّى بها الذنب

فصارت تعتلُّ بالأحلام

فاذا ما شكوتُ ما بيَ قالت

قد رأينا خلاف ذا في المنام

فطرب المتوكل كثيراً ، وقال له : « ان في حياتك يا عبدالله لأنساً وجمالاً وبقاء للمروءة والظرف »(٣٧٢) .

وعلى الرغم من الجوائز الكبيرة التي كان يحصل عليها هؤلاء المغنون ، فقد كان بعضهم لا يخلو من الخصاصة . ولعبدالله هذا ابيات ذات دلالة كبيرة لافي مجال الغناء ولكنها في مجال تصوير حالة من حالات التردى الاجتماعي في عصر المتوكل في سامراء . اذ تفشت آنذاك عادة الربا تفشياً كبيراً ، حتى لنجد عبدالله لا يستطيع الظهور امام الناس خشية من الغرماء ، مما أضطره الحال الى ان يبعث الى المتوكل بالابيات الآتية :

اسقياني سحراً بالكبره

ما قضى الله ففيه الخيره

أكرم الله الامام المرتضى

وأطال اللهُ فينا عمره

ان أكن اقعدت عنه فكذا

قدر الله ، رضينا قدره

سره الله وأبقاه لنا

ألف عام ، وكفانا الفجره

وحين اطلع المتوكل على هذه الابيات ، سأل عن هؤلاء الفجرة ، فقيل له ، المعينون ، فأمر وزيره أن يسدد دين عبدالله ويسقط ما عليه من

---

(٣٧٢) انظر الاغاني ١٧/١٣٠ ـ ١٣١ .

الربا ، كما طلب اليه ان ينادى بذلك في سامراء ، فاسقط عن الناس من الارباح شيء كثير ، وكانت أبيات عبدالله هذه هي السبب في ذلك[٣٧٣] .

وهناك عدد آخر من المغنين ، منهم :

محمد بن الحارث بن بسختر ، وكان من المشهورين بأخذ الاصوات عن اسحاق وقد استعان به الواثق مرات في تعليم جواريه الاصوات التي يأخذها عن اسحاق الموصلي[٣٧٤] ومنهم ايضاً :

المسدود[٣٧٥] ، وأحمد بن صدقة[٣٧٦] وعبدالله بن ابي العلاء ، وابنه أحمد بن عبدالله بن ابي العلاء[٣٧٧] وأبو حشيشة الطنبوري[٣٧٨] وعثعث[٣٧٩] وابن الحفصي[٣٨٠] وابن المارقي[٣٨١] وابن المكي ، وسلمك الرازي[٣٨٢] ، وابن خير وقد جاء ذكره في قول البحتري :

رضينا من مخارق وابن خير
بصوت الأثل اذ متع النهار[٣٨٣]

وعقيد ، وجاء ذكره ايضاً في قول البحتري :

---

(٣٧٣) انظر : الاغاني ١٧/١٤٠ الكبّرة : من أواني الخمر . المعينون : اعتان الرجل : اذا اشترى بنسيئة .
(٣٧٤) انظر المصدر السابق ١٠/١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٣٧٥) انظر الاغاني ٢١/١٦٤ .
(٣٧٦) المصدر نفسه ٢٩/١٣٨ .
(٣٧٧) المصدر السابق ٢٠/١١٤ .
(٣٧٨) انظر معجم الشعراء ص٣٦٨ ـ ٣٦٩ والديارات للشابشتي ص٩٩ .
(٣٧٩) انظر الاغاني ١٣/٢٩ والديارات ص٩٩ .
(٣٨٠) انظر الديارات ص٩٨ .
(٣٨١) انظر الاغاني ١٣/٢٩ .
(٣٨٢) أنظر الديارات ص٩٩ .
(٣٨٣) انظر ديوان البحتري ٢/٣٣٠ .

مستميل بسَمْعَ الطروب المغنّى
عن أغانـي مخـارقٍ وعقيـد[٣٨٤]

ومن العازفين والضاربين على الالآت الموسيقية : سلمان الطبال ، وابن القصار ، وصالح ، وزنام ، وتفـاح الزامران[٣٨٥] ، وملاحظ[٣٨٦] ، وبنان[٣٨٧] العوادان •

وأقام في هذه المدينة كثير من المغنيات المشهورات ، وعلى رأسهن :

عَريب :

وكانت تجمع خصالاً كثيرة ، وتعرف فنوناً متعددة ، فكانت أديبـة شاعرة وكاتبة جميلة الخط ، كما كانت بارعة في الغناء ، حاذقة بالنغـم والاوتار •••• وعاصرت عدداً من الخلفاء وغنت لهم ، كما كانت لها جوار خاصات بها ، دربتهن وعلمتهن الغناء وانحاز الى غنائها طائفة كبيرة من الناس في سامراء منهم أبو الصقر اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد ، فقد عرف عنه أنه كان عريبياً[٣٨٨] •

اشتركت عريب وجاريتها « بدعة » في حفلة ختان المعتز التي اقامهـا المتوكل في قصره المعروف بركوارا[٣٨٩] •

وكان ابراهيم بن المدبر يتعشقها ، وله فيها شعر كثير ، وكانت تتردد على بيته الواقع في المطيرة ، احدى ضواحي سامراء المشهورة •

وكان المعتمد يتعاطى قرض الشعر ، فكان له شعر موزون وآخر غير

---

(٣٨٤) أنظر : ديوان البحتري ٢/٣٢٩ •
(٣٨٥) انظر الديارات ص٧١ ، ٩٩ •
(٣٨٦) انظر الاغاني ٥/٥٤ •
(٣٨٧) ديوان البحتري ١/١٦ •
(٣٨٨) انظر الاغاني ١٤/١٥٩ •
(٣٨٩) أنظر الديارات ص٩٩ •

موزون ، وكثيراً ما كان يرسل شعره الى المغنين ، فيخفى على الناس ما فيه من ركة وفساد وكانت عريب من جملة أولئك المغنين الذين كان المعتمد يرسل اليهم شعره ليتغنوا فيه[٣٩٠] .

• • •

شـــارية :

كانت جارية ابراهيم بن المهدي وقد دربها تدريباً عالياً ، حتى أخذت أكثر غنائه عنه ، ثم أشتراها المعتصم بخمســـة الآف وخمسمائة دينار ، واعطي بها بعد ذلك سبعين ألف دينار ، فأمتنع عن بيعها[٣٩١] وكانت نداً لعريب في تزعم الغناء في سامراء ، لها عشاقها ومؤيدوها وكان لها عدد من الجواري المغنيات . وبلغ التنافس بينها وبين عريب حداً جعل كل واحـدة منهما تحاول ان تستميل الى صفها أكثر عدد من الناس . فقد روى ان علي ابن الحسين دعا يوماً أبا الصقر اسماعيل بن بلبل ـ وكان عريبياً ـ لسماع عريب وجواريها في بيته ، فحين سمعت شارية بذلك ، أرسلت الى علي ـ بعد أيام جواريها ،وطلبت من احداهن أن تغنى البيت الآتي :

لاتعــودنَّ بَعْدَهــا فتــرى كيف أصنعُ

فلما سمع عليّ الغناء ضحك وقال : لست أعود[٣٩٢] .

واشتركت شارية وجواريها ايضاً في حفلة اعذار المعتز[٣٩٣] .

ودعا المعتز عبيدالله بن عبدالله بن طاهر لزيارة سامراء ، وحاول أن

---

(٣٩٠) أنظر الديارات ص٦٤ .

(٣٩١) انظر الاغاني ١٠٧/١٤ من الغريب ان يسلك الخليفة فـي جملة من يبيعون الجواري وهو الذي بيده خزائن الدولة يتصرف فيها كما يشاء من غير حسيب أو رقيب .

(٣٩٢) انظر الاغاني ١٥٩/١٤ .

(٣٩٣) انظر الديارات ص٩٩ .

يطلعه على أحسن ما يمكن أن يريه له ، فدعاه لاستماع غناء شارية ، وحين أنتهت من الغناء قال له المعتز : كيف تسمع ؟ فقال : « اسمع شيئاً حظ العجب منذ أكثر من حظ الطرب[٣٩٤] وبقيت شارية الى عهد المعتمد ، وغنت عدة أصوات من شعره[٣٩٥] .

ومن المغنيات المعروفات في تلك الفترة :

قلم الصالحية : وكانت مغنية حاذقة ، وحين سمع الواثق بغنائها حاول ان يشتريها فطلب صاحبها مائة الف دينار ، وولاية مصر ، أعتزازاً بها ، ثم أهديت بعد ذلك للواثق[٣٩٦] .

ومتيم الهاشمية : وقد أنزلها المعتصم داخل الجوسق في دار خاصة بها[٣٩٧] .

وفريدة : وكانت حظية لدى الواثق ، وتزوجها المتوكل بعد وفاة الواثق[٣٩٨] .

وهناك عدد آخر من المغنيات ، وقد أشترك بعضهم في حفلة ختان المعتز منهن : سراب وندمان ومنعم ونجلة وتركية وعرفان[٣٩٩] وملاحظ[٤٠٠] وشمول[٤٠١] وغيرهن .

المجالس والمناظرات :

لم يأل خلفاء بني العباس في سامراء جهداً في تشجيع العلم والأدب

---

(٣٩٤) أنظر الديارات ص٧١ .
(٣٩٥) المصدر السابق ص٦٥ .
(٣٩٦) أنظر الاغاني ١٢/١١١ .
(٣٩٧) المصدر السابق ٧/٣٠ .
(٣٩٨) أنظر الاغاني ٣/١٧٧ والديارات ص٨ .
(٣٩٩) أنظر الديارات ص٩٩ .
(٤٠٠) أنظر الاغاني ٥/١٠٧ .
(٤٠١) أنظر ذيل الامالي والنوادر للقالي ص٩٧ الطبعة الثالثة .

والفن وفي إكرام أصحابها والمبدعين فيها • وقد كان الكثير منهم على جانب كبير من الثقافة الفنية والادبية •

ومما لا ريب فيه ان تردد العلماء والأدباء الى هذه الحاضرة كان مدعاة للتنافس والتناظر فيما بينهم • وكان لمعاضدة الخلفاء والوزراء وتشجيعهم لهم أكبر الأثر في الاندفاع الى هذا التنافس والتناظر • وقد دونت كثير من المراجع التاريخية والادبية بعضاً من هذه المجالسات والمناظرات التي عقدت في قصور الخلفاء ، ومنازل الكبراء • وتعددت هذه المناظرات والمجالسات فشملت الامور العلمية والتاريخية والفنية والادبية وغيرها، فكان المتخصصون يخوضون في هذه المسائل ، ويتبارون فيها • وكثيراً ما كانوا ينقسمون على أنفسهم ، فتتحزب طائفة الى رأى أو شخص معين ، فتندفع في تأييده واسباغ صفات الثناء عليه ، وتقف أخرى موقفاً سلبياً ، تندد بهذا الرأى أو الشخص ، وتحاول جهدها اظهار عيوبه ، فدلوا بذلك على مهارة فائقة وإطلاع واسع •

ومن بين تلك المناظرات التي كانت تجرى آنذاك ، المناظرات الفنية التي كانت تعقد بين المختصين بالغناء والموسيقى • ومما ترويه المصادر في هذا الصدد ، ما دار بين كبير فناني ذلك العصر ومغنيه ، اسحاق الموصلي ، وبين مغن آخر هو عمرو بن بانة ، في مجلس الخليفة الواثق وفحوى هذه المناظرة ، أن الواثق خرج للصيد ، فكان معه جماعة الجلساء والمغنين ، وفيهم اسحاق الموصلي وعمرو بن بانة وعلوية ومخارق وعقيد • فغنى ابن بانة لحناً لابراهيم الموصلي والد اسحاق على ما أخذه من ابراهيم بن المهدي الذي أحدث فيه تغييراً • فسأل الواثق أسحاق عن هذا اللحن ، فأجاب : بأنه لحن أبيه وقد أخل به ابراهيم بن المهدي وأفسده ، فثار ــ من جراء ذلك ــ ابن بانة في وجه اسحاق مدافعاً عن ابراهيم ، فرد عليه اسحاق قوله وطعن في ادعائه معرفة الغناء ، وقدرته على التمييز بين الرديء والحسن منه

وتحداه ان يغنى صوتاً واحداً مما أخذه عن ابراهيم أو غيره ، دون الوقوع في نقصان أجزاء وفساد صنعة : فأساء عمرو الجواب وأغلظ في القول مما حدا بالواثق الى شتمه وإقامته عن مجلسه(٤٠٢) .

ومن تلك المناظرات ما جرى في مجلس الواثق أيضاً : حيث تناظر المغنون فيمن يكون أمهر الضاربين وأحذقهم فقدّم اسحاق « زلزلاً » على « ملاحظ » الذي كان رئيس العازفين آنذاك ، فاعترض الواثق على ذلك واتهم اسحاق بالتحيز ، فلم يكن من اسحاق الاّ ان التمس من الخليفة أن يجمع بين الاثنين ، فلما حضرا أمتحنهما اسحاق بشيء من الالحان المعروفة ، فتقدم زلزل وقصرّ ملاحظ فعجب الواثق من قدرة اسحاق وسرعة كشفه(٤٠٣) .

ومثل ذلك ما حدث بين عدد من مغنيات ذلك العصر وفناناته ، فقد اجتمعت « ريّق » و « خشف الواضحية » ذات يوم ، فتذاكرتا فيمن تكون المجيدة من المغنيات ففضلت ريّق : شارية ومتيم وفضلت خشف : عريب وفريدة ، ثم بدالهما فأتفقتا على تساويهن وتقديم متيم في الصنعة ، وعريب في الغزارة والكثرة ، وشارية وفريدة في الطيب وأحكام الصنعة(٤٠٤) .

ومن تلك المناظرات الفنية أيضاً ما جرى بين « خشف الواضحية » و « عريب » اذ تمارتا ـ بحضرة المتوكل ـ في عدد أصوات « عليّه » بنت المهدي ، فادعت عريب أن عدد الاصوات التي وضعتها عُليّة اثنان وسبعون وقالت خشف « بل هي ثلاثة وسبعون » فطلب الخليفة منهما ان تغنيا الاصوات جميعاً . فاندفعتا في الغناء حتى مضى اثنان وسبعون صوتاً ، ولم

---

(٤٠٢) أنظر الاغاني ٥/١٠٥ .
(٤٠٣) أنظر المصدر نفسه ٥/٥٤ وأعلام العرب : اسحاق الموصلي للدكتور محمود أحمد حفنى ص١٨٢ .
(٤٠٤) أنظر المصدر السابق ٣/١٧٧ .

تذكر خشف الصوت الثالث والسبعين ، فانخذلت ورجحت كفة عريب عليها ولكن الامر لم ينته ، اذ ان الواضحية ما لبثت ان رأت علية في منامها فأخبرتها بالصوت الذي أنسيته ، ففرحت بذلك خشف وبكرت الى الخليفة تخبره بالقصة فعجب مما سمع وأجازها اجازة سنية(٤٠٥) .

ومن المجالسات والمذاكرات الفنية كذلك ، ما ذكره المسعودي في المروج فقد أشار الى ان المعتمد كان مشغوفاً باللهو ، ميالاً الى الطرب ، محباً للملاهي ، فأجتمع في مجلسه يوماً عدد من الندماء وذوى العقول والمعرفة ، فسأل بعضهم عن أول من أتخذ العود ، فأجابه جواباً مفصلاً عن ذلك واستطرد في الكلام على الغناء وتاريخه وصفات المغنى ، وأنواع الطرب ومنزلة الايقاع وأنواع الطروق ، وفنون النغم ، وما الى ذلك مما يتعلق بهذا الفن وتشعباته(٤٠٦) كما أشار المسعودي أيضاً الى أن « للمعتمد مجالسات ومذاكرات قد دونت في أنواع من الادب ، منها مدح النديم ، وذكر فضائله وذم التفرد بشرب النبيذ ، وما قيل في ذلك من المنثور والمنظوم ، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته ، وعفافه وأمن عبثه ، والتداعى الى المنادمات والمراسلات في ذلك ، وعدد أنواع الشرب في الكثرة ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه وأصول الغناء ومباديه في العرب ، وغيرها من الأمم ، واخبار الاعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين ، وهيئة المجالس وتعبية مجالس الندماء والتحيات ... » الى غير ذلك(٤٠٧) كما سأل المعتمد أيضاً في مجلس آخر بعض ندمائه ومغنيه أن يصف له الرقص وأنواعه ، ويبين صفات الراقص وشمائله ، فأجاب عن كل ذلك بما يشفي الغليل

---

(٤٠٥) أنظر الاغاني ٩/٨٤ـ٨٥ ومما يجدر ذكره ان مسألة الرؤية في المنام ترد كثيراً في المراجع التاريخية والادبية ، ويخيل الينا ان الكثير منها لا يخلو من الاختلاق .

(٤٠٦) أنظر مروج الذهب ٤/٢٢٠ـ٢٢٥ .

(٤٠٧) مروج الذهب ٤/٢٢٦ .

وما لا يدع مزيداً لمستزيد[٤٠٨] .

ومن تلك المجالس والمناظرات ، المجالس العلمية والتاريخية التي يحدثنا عنها المسعودي في المروج أيضاً ، فيشير الى أن الواثق كان من المحبين للنظر المبغضين للتقليد ، المولعين بالاطلاع على علوم الناس وآرائهم ، من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين ومن غيرهم من الشرعيين ، فحضر مجلسه ذات يوم عدد من الفلاسفة والمتطببين ، وجرت بينهم مناظرات في الطبيعيات والالهيات فسألهم الواثق عن كيفية أدراك معرفة الطب وما يتعلق بمبادئه وأصوله : وكان ممن حضر ذلك المجلس من الاطباء : ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل وحنين بن اسحاق وسلمويه ، فابتدأ الجالسون بالاجابة عن أسئلة الواثق وشرحوا كيفية ادراك مهنة الطب ، والوسائل الكفيلة لمعرفة تلك المهنة ، فأفاضوا في ذلك وأطنبوا ، وكان الخليفة يصغي ويناقش ويستفهم ، ثم تطرقوا الى أول آلات الغذاء في الانسان ، وهو الفم ، فوصفوه وتكلموا على ما فيه من أسنان ثم ذكروا أعدادها وأسماءها وأنواعها ووظائفها ، حتى طلب الواثق الى بعضهم أن يصنف له كتاباً ، يذكر فيه جميع ما يحتاج الى معرفته في ذلك ثم انتقلوا الى موضوعات أخرى ، فخاضوا في الجغرافية والعوامل المؤثرة في الهواء ، كأوقات السنة وطلوع الكواكب وغروبها ، والرياح والبلدان والبحار ... وتناولوا هذه العوامل بالشرح والتفصيل ، فتكلموا على فصول السنة الاربعة ، وما يختص به كل فصل من حرارة ورطوبة ، وشرحوا تأثير الشمس على الكواكب عند اقترابها منها ، كما تحدثوا عن الرياح وأنواعها وصفاتها ، وتكلموا في طبيعة الارض وما تشتمل عليه من انخفاض وارتفاع ، كما ذكروا الجهات الاربع وما تمتاز به كل منها من خصائص وصفات ، وعرجوا بعد ذلك الى موضوع الزهد فذكروا ما سنح لهم من الاخبار عن زهد الفلاسفة من

---

(٤٠٨) أنظر المصدر السابق ٤/٢٢٥ـ٢٢٦ .

اليونانيين والحكماء المتقدمين ، وانتهى بهم الحديث الى ذكر أحسن ما أبّن به الحكماء الاسكندر المقدوني يوم وفاته(٤٠٩) .

ويشير المسعودي أيضاً الى المناظرة الدينية التي جرت في حضرة الواثق بين أحمد بن أبي دواد وبين شيخ من أهل أذنة جيء به من الثغر الشامي حول القول بخلق القرآن ، وكان من جملة الحاضرين المهتدي ابن الواثق ، وقد استطاع فيها ذلك الشيخ أن يفحم ابن أبي دواد ، مما كان له أكبر الاثر في تحول المهتدي عن القول بخلق القرآن والتعصب له(٤١٠) .

ومن تلك المجالسات ما يرويه المسعودي أيضاً من أن جماعة من أهل المدينة وفدوا في زمن المستعين الى سامراء ، واستطاعوا بعد لأي أن يتصلوا بالخليفة فقربهم وأنس بهم ، وحادثهم في أخبار مكة والمدينة ثم تسلسل بهم الكلام الى فنون متعددة من العلم في أخبار الناس وأحوالهم وقصص المحبين وأنبائهم(٤١١) .

أما المجالس والمناظرات اللغوية والنحوية والادبية فكثيرة متعددة ، وكان الخلفاء والوزراء يشاركون في كثير من تلك المناظرات والمذاكرات ، فيسألون ويستفهمون ويخطّئون ويصوّبون . ومن تلك المجالس ما يروى من أن أحداً غنى في مجلس الواثق بشعر الأخطل :

وشادن مربح بالكأس نادمني
لا بالحصور ولا فيها بسوّار

فقال الواثق : أسوار أو سآر ؟ فلم يستطع أحد من الجالسين الاجابة . فوجه الى ابن الاعرابي ، وسأله عن ذلك . فأجاب بما أزال

(٤٠٩) أنظر مروج الذهب ٤/٧٧ـ٨٤ .
(٤١٠) أنظر المصدر السابق ٤/١٩٠ـ١٩٢ .
(٤١١) المصدر نفسه ٤/١٥٦ .

الغموض وشفي الغليل[412] .

ومن هذا القبيل ما وقع للمبرد في مجلس المتوكل ، ذلك أن المتوكل كان يعجبه الاخبار والانساب ، وما يقع فيها من غريب اللغة ، فحين حضر المبرد مجلسه التفت اليه المتوكل وقال : « يا ابن يزيد ما معنى هذه الاحرف التي جاءت في هذا الخبر ؟ ركبت الدَّجوجيَّ ، وأمامي قبيلة ، فنزلت ثم شربت الصباحَ ، فمررت وليس أمامي الا نُجيم ، فركضت أمامي النَّحوص والمسحل والعمرد ، فقنصت ثم عطفت ورائي الى قلّوب فلم أزل به حتى أذقته الحمام ، ثم رجعت ورائي ، فلم أزل أمارس الاغضف في قتله ، فحمل عليَّ وحملت عليه حتى خرَّ صريعاً » . فوجم المبرد وتحير ، ولم ينقذه من هذا المأزق الا تدخل من التمس من الخليفة أن يمهله فترة ليفكر ويتدبر أمره ، فانقلب المبرد الى منزله وعكف على دفاتره يقلبها ظهراً لبطن حتى تسنى له أن يحظى بهذا الخبر في أثناء أخبار الاعراب ، فتحفظه وألمَّ بغريبه ثم انقلب الى الخليفة فروى الخبر وفسر ألفاظه ، فسرَّ المتوكل بذلك وأكرم مثواه[413] .

ومن المناظرات الأدبية ما جرى بين مخارق المغني والحسين بن الضحاك الشاعر في مجلس الواثق ، فقد تلاحيا في أبي العتاهية وأبي نواس أيهما أشعر واتفقا على أن ينتخب كل منهما شيئاً من شعر صاحبه يتخذه حجة في تأييد رأيه على أن يكون هناك حكم يفصل بينهما يختاره الواثق نفسه ، فاختار كل منهما شيئاً من شعر صاحبه يتخذه ، وتحاكما الى من اختاره الواثق لذلك ، فحكم للحسين بن الضحاك نظراً لجودة اختياره

---

(412) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص345 .

(413) أنظر معجم الادباء 7/130 ـ 132 الدجوجي : الناقة الشديدة السواد : والقبيلة صخرة على بئر ، النحوص : الاتان الوحشية ، المسحل: الحمار الوحشي ، العمرد من اسماء الاسد ، القلّوب : الذئب ، الاغضف : الاسد المتثني .

وحسن انتخابه ، فتلكأ مخارق واعترف بأنه لم يحسن الاختيار كما فعل الحسين ، واقترح أن تكون المفاضلة بين نفسيهما بحجة أن الجدال وقع فيهما ، فاحتكما في ذلك فحكم لابي نواس بالشاعرية والاحسان في جميع فنون شعره ، فانكسر مخارق وانخذل(٤١٤) .

ومثل هذا ما ترويه المراجع من أن المتوكل حين عزم على اتخاذ المؤدبين لولديه : المنتصر والمعتز فوض الامر لأحد كتابه في ذلك ، فأحضر عدداً منهم وطلب اليهم المذاكرة فيما بينهم ليقف على مواضعهم من العلم والمعرفة ، فألقوا بينهم البيت الآتي :

ذريني انما خطأي وصوْبي عليَّ وانَّ ما أنفقتُ مالُ

فاتفقوا على أن كلمة « مال » ارتفعت « بما » اذأنها بموضع الذي ، ثم سكتوا غير أن أحد الحاضرين وهو أحمد بن عبيد الذي كان قاعداً في نهاية المجلس صاح بأعلى صوته ، هذا الاعراب فما المعنى ؟ فسكت القوم ووجموا ، فاندفع ابن عبيد يشرح للحاضرين ما غمض عليهم فيه من معنى فتقدم اليه خادم من صدر المجلس وأخذ بيده حتى تخطى به الى أعلاه وقال له : ليس هذا موضعك . فأجابه ابن عبيد بقوله المشهور « لأن أكون في مجلس أرتفع منه الى أعلاه ، أحب الي من أن أكون في مجلس أحط منه » ثم وقع الاختيار عليه(٤١٥) .

ومما يروى في هذا الصدد ما جرى بين المتوكل والبحتري ، اذ بينما كانا قاعدين مرت سحابة فقال له المتوكل قل فيها شيئاً فقل :

ذات ارتجاع بحنين الرعد
جرورة الذيل صدوق الوعد

(٤١٤) أنظر الاغاني ٦/١٨٠-١٨١ وأنظر المصدر نفسه ٣/١٧٣ حيث أشير هناك الى مناظرة أخرى بين الفتح بن خاقان وأحمد بن ابي فنن .
(٤١٥) أنظر الفهرست لابن النديم ص١١٤ ـ ١١٥ ، ونزهة الالباء ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ومعجم الادباء ٣/٢٢٨ ـ ٢٣٥ .

• • •

ثم أنشده لمروان بن أبي حفصه في الامين :

لمــا سـمعت ببيعـــة لمحمـــد
شفت النفوس وأذهبت أحزانهــا

بايعت مغتبطاً ولـو لـم تنبسـط
كفــى لبيعتـــه قطعت بنانهــا

حتى انتهى الى قوله :

رجحت زبيـدة والنســـاء شوائل
والله أرجــح بالتقـــى ميزانهــا

فصاح به المتوكل صيحة ، وقـال له : كذبت وأثمت قـــل رجحت « قبيحة »[416] ثم طلب اليه أن ينشده فأنشده لأبي تمام :

لست لربع عفا ولا قدمــه   ولست من كاتب ولا كلمه
فان من يفخر الملوك بـــه   ويستعيد الكريم من كرمــه
ألحقني بالملـــوك معتصـــم   بالله والمسلمون في عصمــه

فارتاح لذلك المتوكل وسر ، ثم طلب المزيد ، فأنشده للحسين بن الضحاك :

كم لك لما احتمل القطـــين   من زفرة يتبعهـــا الأنـين
وعبرة تحدرهـــا الشـؤون   إنـــي ببغـــداد لمســـتكين
حظ الغريب الشوق والشجون   بالانمى لكل يـــوم هـــون
اليـــك عني انني مفتـــون   الشـــعر مني كاسد ودون
وحان من تحريكـه تستكين   قد ركبت أربابهـــا الديون
بضاعـــة أكسدها المأمـــون   إمام عـــدل ، للتقـــى أمـــين

(٤١٦) هي زوجة المتوكل وأم المعتز انظر ص٧٢ من هذا البحث .

فاستحسن المتوكل الشعر ، ولكنه أردف قائلاً : فماذا فعل به المأمون بعد اذ هجاه ؟ فأجاب البحتري ، وكيف يجسر على هجـاء المأمون يا أمـير المؤمنين ؟

فقال المتوكل : فمن القائل :

ولا فرِح المأمون بالمُـلك بعــده
ولا زال في الدنيـا طريداً مشـرّدا

فأجاب البحتري بما لا يشفي غليلا . فعقب المتوكل على ذلك بقوله : لا بأس فانه قد تلافى هذا الكلام بقوله :

رأى الله عبدالله خـير عبـاده
فملّـكه والله أعلـم بالعبـد

فقال البحتري : « يا أمير المؤمنين : أثقلت ظهري بالفوائد » فأجـاب المتوكل : « انا نأخذ ونعطي ونأتي بما يحيي المهج »(٤١٧) .

ويخيل الينا ان أكثر ما في هذه القصة مصنوع : ذلـك أن الصولي ذكر أن البحتري دخل على المتوكل وكان جالساً على البركة والمطر يتساقط عليها فيعمل حجى ، فطلب منه أن يعمل في ذلك شيئاً فقال :

ذات ارتجـاع بحنين الرعـد
مجرورة الذيل ، صـدوق الوعد

الابيات(٤١٨) . ويبدو أن الحكاية التي ذكرها الصولي قـد تعرضت الى الكثير من الاضافات حتى أصبحت على هذا الشكل .

---

(٤١٧) أنظر المحاسن والمساوىء للبيهقي ٢/٩٠-٩٢ .

(٤١٨) أشرنا الى هذه القصة وأبيات البحتري عند الكلام على البرك في الفصل القادم . الحجى : جمع حجاة وهي : نفاخة الماء من قطر أو غيره .

ومما ترويه المصادر من هذه المناظرات ما وقــع بين المــازني وابن السكيت ، ذلك انهما حضرا مجلساً من مجالس المتوكـل ، فطلب اليهمـا التكلم في مسألة نحوية ، فقال المازني لابن السكيت : ما وزن « نكْتَل » من الفعل في قوله تعالى « فأرسل معنا أخانا نكتل » فتسرع وقال : « نفعل » فقال المازني « لا تعجل واتئد » ففكر وقال « نفتعل » فقال له المازني «نكتل » أربعة حروف « ونفتعل » خمسة أحرف ، فكيف تقدر الرباعي بالخماسي؟ فبهت ابن السكيت ولم يحر جواباً • فقال له المتوكل : فما قولك في ذلك يا مازني ؟ فقال : وزنها في الاصل « نفتعل » لأنها « نكتيل » فلما تحـرك حرف العلة وهو الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصارت « نكتال » ولما دخل الجازم صارت « نكتل » • فقال المتوكل : هذا هو الحق(٤١٩) •

ومن ذلك ما يروى من أن المازني سئل بحضرة المتوكل وقيل الواثق عن قوله تعالى « وكانت أمك بغياً » كيف حذف الياء « وبغي » فعيل ؟ وفعيل اذا كان بمعنى فاعل لحقته الياء نحو : فتي وفتية ، فقال ان « بغي » ليسـت بفعيل ، وانما هي فعول ، بمعنى فاعلة ، لأن الاصل فيها « بغوى » ومـن أصول التصريف اذا اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء كما قالوا : شويت شياً ، وكويت كياً ، والأصـل فيهما شوْياً وكوْياً فعلى هذه القضية قِبَل « بغي » ووجب حذف التاء لانها باغية ، كما يحدف في صبور بمعنى صابرة(٤٢٠) •

والى جانب هذه المناظرات الجدية كانت هناك مناظرات أخرى لا تخلو من الدعابة والفكاهة ، يتبارى فيه الأدباء والشعراء ، لاظهـــار مكناتهم في الهجاء وقدراتهم على التفنن فيه • وكثيراً ما كان المتوكل يستعدي الشعراء

---

(٤١٩) أنظر انباه الرواة ١/٢٥٠ـ٢٥١ ووفيـات الاعيان ٢/٤٤٠ وفيها ان هذه المناظرة جرت في مجلس ابن الزيات •

(٤٢٠) أنظر : نزهة الالباء ص١٢٨ ، وطبقات النحويين ص٩٥ •

الذين يحضرون مجلسه بعضهم على بعض ، طلباً للفكاهة ، ورغبة في المزاح .

ومما يروى في هذا الشأن ما جرى بين مروان بن أبي حفصه وعلي ابن الجهم وكان بين الاثنين تنافس وتباغض ، وكان المتوكل شديد الميل الى مروان وكثير الانحراف عن ابن الجهم . فاجتمعا مرة في أحد مجالس المتوكل ، فقال المتوكل لعلي : أيما أشعر أنت أم مروان ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين . ثم أقبل على مروان وقال له : قد سمعت ما أجاب به علي فما قولك ؟ فلم يملك هذا الا أن يستنكر ما قاله ابن الجهم في حقه مدعياً أنه أشعر منه وملتمساً من الخليفة أن يكون الحكم بينهما الامر الذي لم يقبله ابن الجهم بحجة محاباة المتوكل لمروان .

وعين المتوكل شخصاً آخر ليكون حكماً بينهما ، وقد شعر هذا الاخير بخطورة الامر فقال : « طرحتني والله – يا أمير المؤمنين – بين أنياب ومخالب أسدين » فحكم – ويبدو أنه جامل في ذلك المتوكل – لمروان الذي اندفع بتحريض المتوكل واغرائه يهجو علي بن الجهم هجاء مقذعاً ، فأجابه ابن الجهم ببيتيه المشهورين :

بلاء ليس يعدله بلاء
عداوة غير ذي حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه
ويرتع منك في عرض مصون[421]

وهكذا كانت تقام المناظرات ، وتعقد المجالس ، وتثار المسائل ، فينخذل قوم ويرتفع قوم !

---

(٤٢١) انظر الاغاني ١٢/٨١–٨٣ طبعة دار الكتب .

استدعاء كبار العلماء لحل المعضلات النحوية :

وكثيراً ما كان الخلفاء في سامراء يستقدمون كبار علماء اللغة والنحو من الامصار الاخرى لحل ما يعترضهم من المشكلات اللغوية والمعضـــلات النحوية • ومما يروى أن جارية غنت في مجلس الواثق قول الشاعر :

أظلوم أن مصابكم رجـــلاً أهدى السـلام تحيـــة ظلمُ

فرد بعض الحاضرين عليها ، نصب (رجلاً) ظاناً انه خبر (ان)• بيد أن الجارية رفضت ذلك وأصرت على قراءة الكلمة بالنصب ، مدعية أنها قرأت ذلك على أعلم الناس بالبصرة ، أبي عثمان المازني ، فأمـــر الواثق باشخاصه إلى سامراء مكرماً معززاً • وحين مثل بين يديه سأله عن اعراب كلمة (رجل) الواردة في هذا البيت ، فأجاب : بأنها مفعول المصدر ، ذلك ان مصابكم في معنى اصابتكم • وحين سئل عن خبر ان ، أجاب أنه كلمـة « ظلم » في آخر البيت • ثم أحضر التوزي وكان في دار الواثق ، وكان التوزي يقول « ان مصابكم رجل » ويظن أن مصابكم اسم مفعول ، ورجل خبر • وبعد أن أجاب المازني على الاسئلة واطمأن الواثق من ذلك ، أمـر له بخمسمائة دينار أو أكثر ، كما طلب اليــه أن لا يقطـع زيارته عنـه في المستقبل •

ومع أن هذه الرواية قد وردت في كثير من المصادر الموثقـة ككتاب أخبار النحويين للسيرافي ، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ومعجم الادباء لياقوت وغيرها(٤٢٢) فاننا نعجب كيف خفيت هـــذه المسألة النحوية الواضحة على عالم نحوي كالتوزي وعلى الخليفة ومن معه ، بحيث اضطر الواثق أن يرسل في طلب المازني من البصرة لحلها •

ومما يروى في هذا الشأن أيضاً ، أن المتوكل قرأ قوله تعالى : ومـا

---

(٤٢٢) أنظر اخبار النحويين البصريين للسيرافي ص٥٧ ـ ٥٩ وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٩٢ ـ ٩٣ ومعجم الادباء ٧/١١١ـ١١٦ •

يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون • وكان الفتح بن خاقان حاضراً ، فقال له : يا سيدي « إنها بالكسر » • فتحاكما الى يزيد بن محمد المهلبي الشاعر الذي استطاع ـ بمهارة ـ التخلص مما أسند اليه ، فادعى أنـــه لا يعرف الفرق بينهما ، ولكنه يعرف عالماً متقدماً ليس له نظير في هذا الشأن ، يمكنه أن يبت في هذه المسألة •• وحين سئل عن اسمه ، أجاب : بأنه فتى البصرة الملقب بالمبرد ، فأمر المتوكل باشخاصه الى سامراء ، فحمل اليهـا معززاً ، فقال له الفتح بن خاقان وكان قد أدخل عليه أول الامر : يا بصري كيف تفسر هذا الحرف (وما يشعركم انها اذا جاء لا يؤمنون) بالفتح أو الكسر؟ فقال : (انها) بالكسر وهو الجيد المختار ، ففرح الفتـــح وركب الى دار المتوكل وعرّفه بقدوم المبرد وبتأييده لما ذهب اليـــه من كسر الهمزة في « انها » فأمر المتوكل باحضاره ، فلما مثـل بين يديـه قال لـه : يا بصري كيف تقرأ هذه الآية : وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون : بالكسـر أو الفتح ؟ فقال : يا أمير المؤمنين الناس يقرؤنها بالفتح ، فسر المتوكـــل بجوابه سروراً كثيراً ، ووجم الفتح مما سمع وبهت ثم أخرج المبرد فمـا كاد يصل الى الموضع الذي أعد له حتى أرسل الفتح في طلبه ، فلما حضـر قال له : يا بصري اول ما ابتدأتنا بالكذب،فقال المبرد :ما كذبت أيها الامير فقال الفتح : وكيف وقد قلت لامير المؤمنين ان الصواب « وما يشعركـــم انها » بالفتح ، فقال المبرد : لم أقل هذا ، وانما قلت أكثر الناس يقرؤنهـا « انها » وأكثرهم على خطأ وانما تخلصت من اللائمـة وهو أمير المؤمنين ، فسر الفتح بذلك وأثنى عليه(٤٢٣) •

نوبات للعلماء وغيرهم :

وبلغ من اهتمام الخلفاء بالعلماء والادباء ، واحتفالهم بالمغنين والفنيين

---

(٤٢٣) أنظر أخبار النحويين البصريين للسـيرافي ص ١٠٩ـ١١٠ وانباه الرواة ٣/٢٤٣ـ٢٤٤ •

أن جعلوا لكثير منهم نوبات خاصة في الاسبوع ، يلزمون فيها بالحضور الى دار الخليفة جلس أو لم يجلس ، كما كانت تهيأ لهم حجر خاصة في الدار يتخذونها مقراً لهم في نوباتهم ، وليكونوا قريبين من الخليفة عند الحاجة والاستدعاء .

وممن كانت له نوبة يدخل فيها على الخليفة ، بندار بن عبدالحميد ابن لرّة الذي كان يحفظ جملة صالحة من دواوين شعر العرب فقد كان له كل اسبوع دخلة على المتوكل(٤٢٤) .

ومنهم عبدالله بن محمد التوزي ، أحد كبار علماء اللغة وكان يقيم في دار الواثق وهو الذي اختلف مع المازني في اعراب كلمة « رجل » الواردة في البيت الذي تغنت به احدى الجواري في مجلس الواثق .

وأبو محلم الذي كان له اطلاع واسع ، وحفظ كثير وهو الذي فسر للواثق كلمة « مرت » التي لم يستطع تفسيرها من كان بمعيته من الجلساء ، فقد روى السيوطي : « ان الواثق رأى في النوم كأنه يسأل الله الجنة ، وأن قائلا يقول له : لا يهلك على الجنة الا من قلبه مرت ، فأصبح فسأل الجلساء عن ذلك ، فلم يعرفوا معناه فوجه الى أبي محلم ، وأحضره ، فسأله عن الرؤيا والمرت ، فقال أبو المحلم : المرت القفر الذي لا ينبت شيئاً ، فالمعنى على هذا لا يهلك على الله الا من قلبه خال من الايمان خلو المرت من النبات . فقال له الواثق : أريد شاهداً من الشعر في المرت ، فبادر بعض من حضر فأنشد بيتاً لبني أسد :

ومرْت مَرَوْرَاة يحار بها القطا
ويصبح ذو علم بها وهو جاهل

فضحك أبو محلم ، وقال والله لا أبرح حتى أنشدك : فأنشده للعرب

(٤٢٤) معجم الادباء ٧/١٣٠ .

مائة قافية معروفة لمائة شاعر معروف في كل بيت ذكر المرت فأمر له الواثق بمائة ألف دينار[425] . وأبو محلم هذا هو الذي اختاره الواثق حكماً بين مخارق المغني والحسين بن الضحاك عند تلاحيهما في أبي العتاهية وأبي نواس أيهما أشعر[426] .

ومنهم الحسين بن الضحاك الشاعر ، فقد كانت له نوبة في دار الواثق يحضرها جلس الخليفة أو لم يجلس[427] . كما كانت للبحتري نوبة في دار المتوكل أيضاً[428] .

وممن كانت له نوبة كذلك مخارق المغني المشهور ، وكان الواثق شديد الميل اليه وكثير الشغف به حتى « اقتطعه عن أهله وخصص له حجرة في قصره ، وجعل له يوماً في الاسبوع لنوبته ، وكان جواريه يختلفن لذلك اليوم »[429] .

ومحمد بن الحارث بن بسخنّر المغني ، فقد كانت له نوبة في خدمة الواثق في كل جمعة ، فان حضرت ركب الى الدار ، فان نشط الى الشرب أقام عنده ، وان لم ينشط ، انصرف[430] .

اغفال بعض الدارسين لاهمية سامراء :

على الرغم مما احتلته سامراء ، ابان ابتنائها ، واتخاذها عاصمة للخلافة العباسية ، من مركز مرموق ، وأهمية عظيمة شملت المجالات المختلفة من سياسية وتاريخية وعمرانية وفنية وعلمية وأدبية ، وغير ذلك مما سبقت

---

(٤٢٥) تاريخ الخلفاء ص٣٤٣ ويبدو لنا ان ما انشده أبو محلم وما أمر له به الواثق فيه نصيب من الخيال .
(٤٢٦) أنظر ص ٢٠٣ــ٢٠٤ من هذا البحث .
(٤٢٧) أنظر الاغاني ٦/١٧٢ .
(٤٢٨) أنظر اخبار البحتري للصولي ص٨٩ــ٩٠ .
(٤٢٩) الاغاني ٢١/٥١ .
(٤٣٠) المصدر نفسه ٣/١٧٧ .

الاشارة اليه ، فاننا نلمح في دراسات بعض الباحثين ولا سيما المحدثون منهم ، اشارات وأحكاماً فيها الكثير من الحيف والاجحاف بحق هذه المدينة . فقد دأب كثير منهم عند دراستهم للقرن الثالث الهجري ، وما فيه من تقدم علمي وازدهار أدبي أن يتخذ بغداد مركزاً لهذا التقدم ، ومنطلقاً لهذا الازدهار[٤٣١] . وكذلك حين يتكلمون على خلفاء بني العباس : كالمعتصم والواثق والمتوكل ، ومن جاء بعدهم ممن اتخذوا سامراء عاصمة لهم طيلة مكثهم في الحكم ، يشيرون الى أن أولئك الخلفاء جميعاً كانوا يستقرون في مدينة بغداد[٤٣٢] . وكذلك حين يتصدون للكلام على الشعراء الذين اتصلوا بأولئك الخلفاء ومدحوهم جميعاً[٤٣٣] ويفعلون مثل ذلك حين يتحدثون عن عواصم الدولة الاسلامية ومراكز الحكم التي اتخذها الخلفاء العباسيون طوال فترة حكمهم في العراق[٤٣٤] . وقد بلغ الجحود لهذه المدينة ببعضهم ، واغفالهم لأهميتها أن سلبوها أعز ما اشتهرت به من قصور وأفخم ما كانت عليه من عمران[٤٣٥] .

ولو أردنا أن نتلمس الدوافع الحقيقية لاغفال هذه المدينة وتخطيها الى غيرها ولا سيما بغداد ، لما استطعنا أن نقف على شيء مقنع منها .

---

(٤٣١) أنظر التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ٢/١٧١-١٧٢ والشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى للدكتور أحمد عبدالستار الجواري ص٦ ، ١٩٢ . وإسحاق الموصلي للدكتور الحفني ص٥٢ .

(٤٣٢) أنظر من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص٩٩ .

(٤٣٣) أنظر المصدر السابق ص١١٢ واخبار البحتري للصولي ص٧ .

(٤٣٤) أنظر صبح الاعشى للقلقشندى ٣/٢٦٤ دار الكتب .

(٤٣٥) نسبت بعض قصور سامراء وابنيتها الى بغداد ، كالمتوكليه ، انظر الاعلام للزركلي ٢/١٢٢ وكقصور المعتز : الكامل والغرد والساج وغيرها ، أنظر إخبار البحترى ص ١٠٧ هامش (١) وأطلق الدكتور الحفني اسم مدينة القصور على بغداد وهو يتكلم على سامراء ـ أنظر اسحاق الموصلي ص٥٢ .

ومن المكرر المعاد القول بأن سامراء تهيأ لها من العوامل المختلفة في القرن الثالث الهجري ما بوأها مركزاً رفيعاً لم يتسن لغيرها من المدن أن تصل اليه ، كما تهيأ لها أن تكون المدينة الاسلامية الاولى في كل شيء ، طوال الحقبة التي مكثت فيها حاضرة للخلافة فأثرت تأثيراً مباشراً على غيرها من المدن الكبرى وخاصة بغداد في المجالات الحضارية والعلمية والفنية مما سبق وأشرنا اليها •

الفصل الثالث

ملامح الادب الذي قيل في سامراء :

أشرنا في مواطن متعددة مما سبق ، الى أن سامراء استطاعت أن تحتل مركزاً مرموقاً في الامور السياسية والتاريخية والعمرانية والفنية ، كما تيسر لها أن تكون ملجأ للشعراء والأدباء ، وملاذاً للعلماء والفضلاء • وعلى هذا فهل استطاع الادب الذي قيل فيها أن يكوّن له شخصية واضحة ، أو بعبارة أخرى هل نستطيع أن نتعرف على بعض ملامح الادب الذي قيل فيها ؟

الواقع ان الحقبة الزمنية التي مكثت فيها هذه المدينة عاصمة للخلافة العباسية وحاضرة للعالم الاسلامي كانت قصيرة ، كما أسلفنا ، وعلى الرغم من قصر عمر هذه المدينة ، فاننا لا نبعد كثيراً عن الصواب اذا ما زعمنا أن للادب الذي قيل فيها سمات وملامح واضحة ، امتاز بها دون سواه تتجلى تلك السمات والملامح في أوصاف الشعراء لقصور المدينة العديدة ، وبركها الحسان ومساجدها الفخمة ، ومآذنها الشاهقة ، مما لا نكاد نجد له نظيراً في الادب العربي قبل هذا التاريخ •

نعم اننا نجد في الادب العربي قبل هذه الفترة أوصافاً متناثرة لبعض الشعراء ، تتعلق بوصف قصر أو بناء دار أو غير ذلك • ولكن تلك الاوصاف لم تصل في حال من الاحوال الى ما وصلت اليه أوصاف الشعراء لقصور سامراء من حيث الكثرة والاستقصاء ، ومن حيث الاجادة والشمول ، حتى ليمكن أن نقرر باطمئنان أن أوصاف القصور أصبحت من السمات الواضحة لهذه المدينة • ولذلك نجد النويري ـ وقد لمح هذه السمة ـ يذكر عدداً من الاوصاف للسرى الرفاء ، ويشير الى أنه قالها في أحد قصور

سامراء[1] والذي يخيل الينا أن السرى لـــم يزر سامراء حتى يقـــول في قصورها ما عزاه النويري اليه ، وسنشير الى ذلك فيما بعد .

ومن هذه الملامح والسمات أيضاً ، أوصاف الشعراء والادباء للرياض والبساتين ومجالس اللهو والقصف والغناء والاديرة المنتشرة والممتدة عـلى طول المدينة الواسعة وهذه الاوصاف بلاشك قد اتخذت طريقها قبل هـذه الفترة في أشعار أبي نواس وأضرابه من شعراء اللهو والمجون[2] ، ولكنها اتسعت وكثرت لدى الشعراء والادباء في هـــذه المدينة ، وهذه الحقبـــة بالذات ، مما سنشير اليه في هذا الفصل .

معالمها في الشعر والنثر :

ذكرنا في الفصل الاول وفي مواطن مختلفة ، أن عوامل عديدة تهيأت

---

(١) أنظر نهاية الارب ١/٤٠٦ـ٤٥٧ .

(٢) يبدو أن النواسي كان أكثر الشعراء في وقته وصفا لمجالس الشرب وما كانت تحفل به من صنوف الزهور والرياحين ، وذلك بسبب كثـرة اختلافه ـ لمجونه وخلاعته ـ الى الحانات والاديرة ، التي كانت تعنى بمثل هذه الامور ! غير اننا نرى ـ مع ذلك ـ ان الرياض والمتنزهات ومجالس الشرب وما الى ذلك قد كثرت في سامراء ، اذ أن قصـــور الخلفـــاء والامراء والوزراء واتباعهم كانت تلحق بها دائما الحدائق والرياض ، وتقام فيهـا مجالس الشرب والغناء ومن ثم كثر وصف هذه المجالس وما كان يدور فيها من أنواع اللهو والقصف (أنظر الكلام على المنتزهات والحدائق) . ومن أمثلة وصف النواسي لبعض مجالس لهوه وقصفه قوله :

آذنك النـاقوس بالفجـر ... وغرّد الراهب في العمـر
وحنّ مخمـور الى خمـرةٍ ... وجـاءك الغيث على قـدر
واطردت عيناك في روضة ... تضحك عن خضر وعن صفر
فعـاط ندمانك من خمـرةٍ ... مزاجها من مُعْرق القطـر
على خزاماهـا وحوذانهـا ... ومشـكل من حلل الزهـر
في مسـرح ترتـع اكنافـه ... شوادن من بقـر زهــر

(ديوان ابي نواس ص٨٢ تحقيق عبدالمجيد الغزالي ، وانظر بـــاب الخمريات في مواطن مختلفة) .

لهذه المدينة ، ابان انشائها وتمصيرها ، مما كان لها أكبر الاثر في عظمة بنيانها وسرعة انجازها ، حتى أصبحت المدينة العباسية الاولى ـ بلا منازع ـ في السعة وكثرة السكان وفي الفخامة وروعة العمران ، بل أصبحت المدينة الاولى في قصورها العديدة وبركها الحسان ، ومساجدها الفسيحة ، ومآذنها الشامخة ، ونافوراتها العجيبة ورياضها الفيح ، وحلبات الفروسية الوسيعة ومجالس الشرب والغناء •

وقد وصف لنا الادب هذه المعالم وصفاً دقيقاً ، كما وصف لنا الاديرة العديدة التي كانت منتشرة بالقرب من المدينة ، والمواكب والحفلات والاعياد والالعاب وكل ما كان يجري في ربوع هذه المدينة •

وسنحاول الآن أن نفصل القول فيما أجملناه :

القصور :

اشتهرت سامراء بالقصور العديدة التي بناها الخلفاء العباسيون وأتباعهم وشاركتهم في ذلك زوجاتهم وأمهاتهم • وقد ذكر الشابشتي أن « أحمد بن حمدون قال : بني المعتز في الجوسق في الصحن الكامل بيتاً قدرته له أمه ومثلت حيطانه وسقوفه فكان أحسن بيت رئي »(٣)

ولم يبق من تلك القصور العديدة ـ بالطبع ـ الا أطلالها ورسومها اذ تقوض قسم منها في زمن بانيها ، كقصري المختار والبديع اللذين أمر المتوكل بهدمهما وحمل ساجهما الى قصره الجعفري(٤) وقصري الشاه والعروس اللذين نقضا في أيام المستعين(٥) • وتقوض القسم الآخر بعد الانتقال عنها ، كمدينة المتوكلية التي هجرت بعد مقتل المتوكل فيها ، وكذلك القصور الاخرى بعد انتقال مقر الخلافة الى بغداد في عهد المعتمد(٦) •

---

(٣) الديارات ص١٠٨ •

(٤) أنظر تاريخ الطبري ٥٦/١١ والديارات ص١٠٣ •

(٥) أنظر معجم البلدان ٢٤٦/٣ •

(٦) أنظر كتاب البلدان ص٣٢ •

ان تلك القصور وأوصافها وما كلفته من نفقات باهظة ، قد ذكرتها كثير من كتب البلدان والتاريخ والادب ، كما ذكرها كثير من الشعراء ممن كانوا يختلفون الى سامراء وينتجعون خلفاءها ووزراءها • أما المصادر الحديثة التي تطرقت الى هذه المدينة ، مستندة الى التنقيبات التي أجريت فيها ، فقد أمدتنا بكثير من أبعاد هذه القصور ومساحاتها وعدد حجرها وملحقاتها •

ويجدر بنا قبل الخوض في تفصيلات هذه القصور أن نشير الى بعض الامور المتعلقة بها ، والتي استنبطناها من خلال تصفحنا المصادر المختلفة •

١ ـ أن بعض هذه القصور قد حظي باهتمام كبير من المؤلفين والشعراء فأطنبوا في وصفها وما كانت عليه من فخامة وروعة ، وبعضها الآخر اكتفى بذكر أسمائها أو أشير اليها من خلال سرد بعض الحوادث دون الخوض في تفصيلات لها •

٢ ـ ان هذه القصور كانت تنتقل من خليفة لآخر بانتقال الخلافة ، مما أدى ذلك في بعض الاحيان الى اللبس في نسبتها وفي اسم منشئها •

٣ ـ بعض هذه القصور ذكرت في كتب البلدان أو التاريخ أو الادب ولم تذكر في الشعر وبعضها ذكر في الشعر فقط •

٤ ـ على الرغم من أن الخلفاء كانوا يدعون الشعراء لوصف ما يبنون فان الشعراء وقفوا موقفاً فاتراً حيال ذلك ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم وابنه الواثق اذ لم يفسحوا المجال لشعرهم في هذا الميدان ، على الرغم من ازدحامهم على أبواب هذين الخليفتين •

٥ ـ ان وصف هذه القصور ولا سيما أوصاف الشعراء لها ، وصف عام ، من الخارج ـ اذا صح هذا التعبير ـ فهم لم يحاولوا التغلغل الى داخل هذه القصور ، ليصفوا لنا ما بها من زخارف ورسوم أو صور وتماثيل الا في القليل النادر •

٦ ـ ان هذه القصور كما نتبينها من أوصاف الكتاب والشعراء ـ عالية البنيان شاهقة الجدران ذاهبة في أجواز الفضاء ، يهتدي اليهـا الساري في الليلة الظلماء ، ذات رياض غن ، وجداول للمياه ، ولبعضها دواليب يجرها النعام ، وقد طليت سقوف بعضها بالذهب ، وصنعت جدرانها من الزجاج ، وبلطت أرضها بالرخام ، وكان لكثير منها برك مزينة بالتماثيل والصور .

٧ ـ على الرغم من كثرة الشعراء الذين عاشوا في أكناف خلفاء بني العباس في سامراء ، أو الذين كانوا يختلفون اليهم للانتجاع وطلب الرفد ، فان البحتري كان اغزرهم وصفاً لهذه القصور ، واكثرهم افتتاناً بها ، فهو من هذه الناحية يحتل المركز الاول ـ غير منازع ـ بين أنداده من الشعراء !

ويحسن بنا أن نشير ـ قبل الكلام على قصور سامراء ـ الى بعض أوصاف الشعراء للقصور في أدبنا العربي ، قبل انشاء سامراء وقصورها ، لنقف على مدى البون الشاسع بين أوصاف تلك القصور وبين أوصاف قصور هذه المدينة .

قال عامر بن صالح يصف قصر عروة بن الزبير بن العوام الذي ابتناه بالقرب من بئر العقيق .

حبذا القصـر ذو الطهـارة والبئـ ـر ببطن العقيق ذات الثبـات
ماءُ مُزْنٍ لم يبغ عـروة فيهـا غير تقـوى الالـه في المقطعات
بمكـان مـن العقيق أنيـس بـارد الظل طيّب الغـدوات(٧)

وقال عمرو بن الوليد بن عُقبة المكنى بابي قطيفة من أبيات له يتشوق فيها الى المدينة وقد نفاه منها عبدالله بن الزبير الى الشام :

---

(٧) معجم البلدان ٤/٤٦٠ـ٤٦١ .

وتبدلت من مساكن قومي والقصور التي بها الآطام
كل قصر مشيد ذي أواس يتغنى على ذراه الحمام(٨)

وقال ابن ابي عيينة يصف قصر أنس بالبصرة :

فيا حسن ذاك القصر قصراً ونزهة
بأفيح سهل غير وعر ولا ضنْك

بغرس كأبكار العذارى وتربة
كأن ثراها ماء ورد على مسك

كأن قصور الأرض ينظرن حوله
الى ملك مُوفٍ على منبر الملك

يدل عليها مستطيلاً بحسنه
ويضحك منها وهي مطرقة تبكي(٩)

وقال أشجع السلمي يمدح الرشيد ، وجعل طالع قصيدته وصف قصر للخليفة بالرقة :

قصر عليه تحية وسلام
ألقت عليه جمالها الأيام

---

(٨) معجم البلدان ٣٦٦/١ ، والاغاني ٢٨/١-٢٩ طبعة دار الكتب.

(٩) عيون الاخبار لابن قتيبة ٢٢٢/١ دار الكتب . وانظر ايضا : الشعر والشعراء له ٨٧٧/٢ ، وقد حذا البحتري حذو ابن عيينة في وصفه لقصر الغرد ، وتشبيهه بالنسبة للقباب التي انتشرت على ميامنه ومياسره ، ولكنه كان أقل مبالغة منه ، وأقرب الى الاستساغة والقبول ، قال:

رفدت جوانبه القباب ميامناً ومياسراً وسفلن عنه واعتلى
فتخاله وتخالهن ازاءه ملكاً تدين له الملوك ممثّلا

(انظر : قصر الغرد في هذا البحث) .

قصر سقوف المزن دون سقوفه
فيه لأعلام الهدى أعلام[10]

وقال أيضاً يصف قصوراً بالصالحية[11] :

قصور الصالحية كالعذارى
لبسن ثيابهن ليوم عرسِ
مطلات على بطن كسته
أيادى المزن وشياً نسج غرسِ
اذا ما الطّل أثّر في ثراه
تنفس نوره من غير نفس
فتغبقه السماء بصبغ ورس
وتصبحه بأكؤس عين شمس[12]

وقال عمارة بن عقيل بن جرير يصف بغداد وقصورها :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على تقلبها في كل ما حين
ما بين قطربّل فالكرخ نرجسه
تندى ، ومنبت خيري ونسرين[13]

---

(١٠) الاغاني ٣١/١٧ ساسي ·
(١١) الصالحية : قرية قرب الرّقة · ويبدو ان المهدي هو أول من أحدث قصور الصالحية المذكورة · معجم البلدان ٣٨٩/٣ ·
(١٢) الاغاني ٣٣/١٧ ، وانظر : معجم البلدان ٣٨٩/٣ حيث هناك اختلاف في اسم قائل هذه الابيات ، وفي ترتيبها وبعض الفاظها ·
(١٣) قطر بّل : اسم قرية بين بغداد وعكبرا ، ينسب اليها الخمر ، وكانت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين ، وهي شمال بغداد (معجم البلدان : ٣٧١/٤) ·

تحيا النفوس بريّاها ، اذا نفحت
وخرّشتْ بين أوراق الرياحين(١٤)

سقياً لتلك القصور الشاهقات وما
تخفي من البقر الانسية العين

تستنُّ دجلة فيما بينها ، فترى
دهم السفين تعالى كالبراذين(١٥)

مناظر ذات أبواب مفتحة
أنيقة ، بزخاريف وتزيين

فيها القصور التي تهوي بأجنحة
بالزائرين الى القوم المزورين(١٦)

من كل حرّاقة تعلو فقارتها
قصر من الساج عالٍ ذو أساطين(١٧)

ففي هذه الامثلة ـ كما ترى ـ وصف سريع خاطف للقصر أو القصور التي تعرّض الشعراء لها : ففي المثال الاول لا نجد شيئاً ذا بال يتصل بالوصف، وانما اكتفى الشاعر بذكر اسم القصر فحسب ، ثم الاشارة الى مكانه الانيس وظله البارد وغدواته الطيبة ، وفي المثال الثاني ، اشارة خاطفة ايضاً الى وصف القصر الذي نعته الشاعر بانه مشيد ذو

(١٤) خرشنت : خرّش الغصن : ضربه بالمحجن يجتذ به اليه ، يريد بذلك تحريكه للاسراع .
(١٥) تستن : تضطرب .
(١٦) كان من حق نون (المزورين) الفتح ، ولكن الشاعر كسرها شذوذاً .
(١٧) معجم البلدان ١/٤٦٢ . الحراقة : سفينة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو .

اسس ، يتغنى الحمام على أعاليه • وفي المثال الثالث ، وصف مقتضب لا يخلو من المبالغة للقصر الذي شبه بالملك ـ ادلالاً بحسنه ـ بالنسبة لقصور الارض الاخرى ، كما فيه الماح الى طيب تربته واتساع فنائه • وفي المثال الرابع ، اشارة سريعة الى جمال القصر وشموخ سقوفه ، وفي المثال الخامس ـ في قصور الصالحية ـ شيء من الوصف اكثر تفصيلاً من الامثلة السابقة، وان كان سريعاً عاماً أيضاً • وفي المثال الأخير ، اشارة سريعة الى وصف القصور التي شاهدها الشاعر ، وما تخفيه في حجراتها من الجواري الحسان ، كما فيه اشارة الى ما تتحلى به تلك القصور من الزخارف والنقوش ، وما تموج به من حركات الزائرين والمزورين ، واشارة كذلك الى القصور المشيدة على بعض الحراقات ولعله كان يريد بذلك ما يسمى با (لزو) •

وان نظرة عجلى الى اوصاف الشعراء لقصور سامراء ومقارنتها بالامثلة السابقة لتبين لنا مدى سذاجة الاوصاف في الامثلة المتقدمة بالنسبة الى ما وصلت اليه أوصاف الشعراء لقصور هذه المدينة(١٨) •

والذي يخيل الينا ان هناك أكثر من سبب واحد جعل هذا التمايز بين الوصفين واضحاً وكبيراً ، من ذلك ان الاوصاف المتقدمة للقصور ـ على ما يبدو ـ جاءت عرضاً في اثناء القصائد التي أنشأها اصحابها في معرض المدح أو التشوق الى الاوطان ، في حين ان الغالبية العظمى من الاوصاف لقصور سامراء كانت هي الغاية ، وأما ما جاء خلال ذلك من مدح أو سواه ، فكان شيئاً ثانوياً ، ذلك لان الخلفاء أنفسهم كانوا يوعزون الى الشعراء بوصف قصورهم وما يشيدونه من عمران •

ومن ذلك أيضاً كثرة القصور الفخمة في هذه المدينة كثرة مفرطة ،

---

(١٨) انظر على سبيل المثال ، وصف القصر الهاروني ووصف الغرد والصبيح والجعفري والكامل ، وانظر كذلك وصف (الزو) •

مما هيأ مادة وفيرة للشعراء ، أضف الى ذلك الطاقات الفنية الخصبة للشعراء الذين كانوا ينتجعون خلفاء هذه المدينة ، ولعل الشـــاعر البحتري خير نموذج لذلك

اما القصور التي سنحاول التكلم عليها فهي :

قصـــور المعتصم :

أشارت بعض المصادر الى ان المعتصم قد بنى وعمر ثمانية قصور[١٩]. بيد أننا لم نعثر خلال بحثنا ، الا على اربعة من هذه القصور فقط وهي :

الوزيرى والعمري :

أشار اليهما اليعقوبي في كتـــاب البلدان في معرض كلامــه على بناء سامراء فقال : « ثم احضر (اي المعتصم) المهندسين ، فقال : أختاروا أصلح هذه المواضع ، فاختاروا عدة مواضع للقصور ، وصيّر الى كل رجل من اصحابه بناء قصر ، فصير الى خاقان عرطوج ابي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني ، والى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمري والى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيرى »[٢٠] وأشار الى الوزيرى كذلك الطبري في المناظرة التي جرت بين أحمد بن أبي دواد والافشين ، حيث أتهـــم الأخير بممالأته أحـــد أخصام المعتصم ، وبعد نقاش وجدال تيقن ابن أبي دواد من انحراف الأفشين عن سنن الاسلام فطلب الى بغا الكبير ان يتعهده ، فقلب بغاذيل القباء على رأسه ، ثم أخذ بمجامع القبـــاء من عند عنقه ، ثم أخرجه من باب الوزير الى محبسه[٢١] .

---

(١٩) انظر : فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢/٥٣٣ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٥١ .

(٢٠) كتاب البلدان ص٢٤ .

(٢١) تاريخ الطبري ١٠/٣٦٧ .

كما أشار الى العمري في موضعين ، فقال في حوادث سنة ٢٢٤هـ ، وفيها تزوج الحسن بن الافشين اترنجة بنت اشناس ودخل بها في (العمري) قصر المعتصم في جمادي الآخرة[٢٢] • وقال عند الكلام على مبايعة المستعين « فبايعوه وقت العشاء الآخرة من ليلة الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ويكنى أبا العباس فاستكتب أحمد بن الخصيب ، واستوزر أتامش ، فلما كان يوم الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخرة صار الى دار العامة من طريق «العمري» بين البساتين وقد ألبسوه الطويلة وزي الخلافة »[٢٣] •

قصر الجص :

ذكره ياقوت فقال : « قصر عظيم قرب سامراء ، فوق الهاروني بناه المعتصم للنزهة[٢٤] • وذكره ابن سرابيون عند وصفه لنهر الاسحاقي فقال : يحمل من دجلة من غربيها نهر يقال له الاسحاقي ، أوله أسفل من تكريت بشيء يسير ، يمر من غربي دجلة ، عليه ضياع وعمارات ويمر بطيرهان ويجيء الى قصر المعتصم بالله المعروف بقصر الجص »[٢٥] • ولا تزال هناك خرائب شاخصة على بعد عدد من الكيلومترات شمال محطة قطار سامراء الحالية في الموضع المعروف « بالحويصلات » يظن أنها بقايا قص الجص المذكور ؛• ويشغل هذا القصر مع حديقته وسوره الخارجي مساحة من الارض تبلغ عشرات الالوف من الامتار المربعة[٢٦] • ومما هو جدير بالذكر أن هذه القصور الثلاثة لم ترد في شعر أحد من الشعراء •

الجوسق :

ويعد من أهم القصور التي أنشأها المعتصم ، حيث اتخذه الخليفة

---

(٢٢) تاريخ الطبري ٣٦٢/١٠

(٢٣) المصدر نفسه ٨٢/١١

(٢٤) معجم البلدان ٣٥٦/٤

(٢٥) انظر : ري سامراء للدكتور أحمد سوسه ٨٤/١ وبلدان الخلافة ص٧٩ •

(٢٦) انظر : ري سامراء ٨٧/١

مقراً لسكناه • ويقع على ضفة نهر دجـلة الشرقية ، جنوبي دار العامـة ، مطلاً على الحير وقد ذكره عدد من المؤرخين ، فقال اليعقوبي فيه : « ثـم ارتحل (أي المعتصم) من القاطول الى سر من رأى فوقف في الموضـع الذي فيه دار العامة وهناك دير للنصارى ، فاشترى من أهل الدير الارض واختط فيه ، وصار الى موضع القصر المعروف « بالجوسق » على دجلـة فبنى هناك عـدة قصور للقواد والـكتاب وسماها بأسمائهم »[٢٧] • وقال الطبري في حوادث سنة (٢٦٩) « ولا ربع خلون من شعبان رد اسحاق بن كنداج المعتمد الى سامراء فنزل «الجوسق» المطل على الحير »[٢٨] • وهذا القصر هو الذي عهد المعتصم الى خاقان بن عرطوج والد الفتح بن خاقان القيام ببنائه ، ولعل هذا هو السبب في تسمية هـذا القصر أحيانا بالجوسق الخاقاني[٢٩] وفي هذا القصر حبس الافشين[٣٠] كما فيـه توفي المعتصم ودفن[٣١] وبقي هذا القصر بعد المعتصم يتوارثه أبناؤه وأحفاده من الخلفاء• وقد أقام فيه المهتدي عند مبايعته بالخلافة سنة خمس وخمسين ومائتين حولاً كاملاً[٣٢] ، كما نزله المعتمد عند رجوعه الى سامراء سنة ٢٦٩هـ •

وحين حاول المكتفي العودة الى سامراء ضربت له المضارب بالجوسق المذكور ، حيث كان ينوي البقاء فيه ، ثم عدل عن ذلك ورجع الى بغداد[٣٣]

وجاء ذكر « الجوسق » في الشعر أيضاً • فقال البحتري من قصيدة يمدح بها المعتز ويصف قصر الساج :

---

(٢٧) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٠٧ طبعـة النجف ، وانظـر : مروج الذهب ٤/٦٣ •

(٢٨) تاريخ الطبري ١١/٣٠١

(٢٩) انظر : كتاب البلدان لليعقوبي ص٢٤

(٣٠) انظر : تاريخ الطبري ١٠/٣٦٥

(٣١) انظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢١٢ ، ومروج الذهب ٤/٦٣

(٣٢) انظر : كتاب البلدان ص٣٢

(٣٣) انظر : ري سامراء لاحمد سوسه ١/٧٧

يغشى العيون الناظرات اذا بـدا
قمـر مطالعـه رباع الجوسق[٣٤]

وقال في القصيدة نفسها :

فاذا بلغت بـه البديع ، فانمـا
أنزلت دجلة في فناء الجوسق[٣٥]

وقال أيضـاً :

فالزو والجوسق الميمـون قابلـه
غنج الصبيح الذي يدعى بصناج[٣٦]

وذكره ابن المعتز وأشار الى خرابه فقال :

فتلـك أطـلال لهـم قفـارا
تـرى الشـياطين بهـا نهـارا
بالتـل والجوسـق والقطائـع
كـم ثـمّ من دار لهم بلاقـع[٣٧]

وأشار بعضهم الى خرابه أيضاً فقال :

هذي ديار ملوك دبروا زمنـاً
أمر البلاد ، وكانوا سـادة العـرب
مضى الزمان عليهم بعـد طاعتـه
فانظر الى فعله بالجوسق الخرب[٣٨]

وبنى المعتصم الى جانب القصور ايوانات في البرية للنزهة في أيـام الربيع ، وقد أشـار الى ذلك محمد بن عبدالملك الزيات وأجاد في تشبيهها

---

(٣٤) ديوان البحتري ٢/٢٥٣

(٣٥) المصدر نفسه ٢/٢٥٤

(٣٦) المصدر نفسه ١/٤٣١ طبعة الصيرفي

(٣٧) ديوان ابن المعتز ص١٥٣

(٣٨) معجم البلدان ١/٤١٠

بالسوام المبرك ، فقال :

وشيّدها حُدْباً تخــال ظهورهــا
من الجانب الاقصى سواماً مُبرّكا
أعدَّ لها نَــوْر الربيــع وظلّــه
ويومــاً يرجّــي خيره من تبركــا
فما أدرك النَوْر الربيعي يومــه
ولا عَرَفات بعد ذلك أدركــا[٣٩]

• • •

قصر الواثق « الهاروني » :

وهو القصر الوحيد ــ على ما يبدو ــ الذي ابتناه الواثق لنفسه ، اذ لم تشر المراجع المختلفة الى ما للواثق من القصور سواه • يقع هذا القصــر على نهر دجلة ، وقد ذكره كثير من المؤرخين والبلدانيين فقال فيه اليعقوبي : « فبنى الواثق القصر المعروف بالهاروني على دجلة ، وجعل فيــه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية وانتقل اليه »[٤٠] • وكرر هذا الوصف أيضاً في تاريخه ، ولكنه أضاف اليه قوله « وكان من أحسن القصور »[٤١] •

وقال الطبري في حوادث سنة ٢٢٩ مشيرا الى هذا القصر : « ذكر عــن عزون بن عبدالعزيز الانصاري أنه قال : كنا ليلة في هذه السنة عند الواثق فقال لســت أشتهي الليلة النبيذ ، ولكن هلموا نتحدث الليلة ، فجلس في رواقه الاوسط في الهاروني في البناء الاول الذي كان ابراهيم بــن رياح

---

(٣٩) ديوان محمد بن عبدالملك الزيات ص٥٣

(٤٠) كتاب البلدان ص٢٩ ولكنه قال في ص٣٠ « وولى جعفر المتوكل ابن المعتصم ، فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم »

(٤١) تاريخ اليعقوبي ٣/٢١٦

بناه ، وقد كان في أحد شقي ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء ، بيضاء ، كأنها بيضة الاقدر ذراع فيما ترى العين حولها في وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب ، وكانت تسمى قبة المنطقة وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة »[٤٢] • وقال ياقوت فيه : « قصر قرب سامراء ، ينسب الى هارون الواثق بالله وهو على دجلة ، بينه وبين سامراء ميل ، وبازائه بالجانب الغربي المعشوق »[٤٣] • وكانت وفاة الواثق في قصره الهاروني هذا[٤٤] ، كما أن قبيحة أم المعتز كانت تسكنه حين بويع لابنها بالخلافة[٤٥] وما تزال الى اليوم آثار قصر تقع على نهر دجلة في الجهة الشمالية الغربية من دار الخليفة وفي الموضع المعروف حالياً « بالكوير » ويظن أنها أطلال القصر الهاروني الذي بناه الواثق • وقد نقلت مديرية الآثار العراقية قاعدة حوض كبير الى دار الآثار العربية ببغداد من أنقاض القصر المذكور[٤٦] •

وقد وصف علي بن الجهم هذا القصر مرتين : الاولى في زمن الواثق حيث أشار اليه اشارة خاطفة ، ولم يقف عنده طويلا ، ويبدو أن انشغاله بمدح الخليفة طغى على وصفه لهذا القصر ، فلم يرسم لنا صورة واضحة عنه ، وكل ما ذكره ، أنه قصر تحار العيون فيه ، وتقصر الاوصاف عنه ، وانه مطل على النهر ، وله روضة فيحاء ، وانه بني في عهد الخليفة ، وسمي بأسمه فقال :

---

(٤٢) تاريخ الطبري ١١/١٠

(٤٣) معجم البلدان ٥/٣٨٨ وسيأتي ذكر المعشوق وهو قصر من قصور المعتمد فيما بعد •

(٤٤) فتوح البلدان للبلاذري ص٣٦٤ •

(٤٥) انظر تاريخ بغداد ٢/١٢٢

(٤٦) انظر : سامراء لمديرية الآثار القديمة ص ٦٩ـ٧٠ ، وري سامراء لاحمد سوسه ١/٧١ ـ ٧٤ •

بـان بقرب الخليفة التحف
مَحَلٌ صدق وروضة أنُف

دار تحار العيون فيها ولا
يبلغها الواصفون ان وصفوا

لم تنتسب قبله الى أحد
ولا تحلت من الألى سلفوا

البحر والبر في يدي ملك
تُشرق من نُور وجهه السَّدَف

اختارها الله للامام الذي
يُنصف من نفسه وينتصف

قد علم الناس ان بالملك الوا
ثق بالله يَشْرف الشرف

تبارك الجامع القلوب على
طاعته والقلوب تختلف

ما نجف الحيرة الذي أصف
ولا حنينٌ ولا الفتى القصف

ان اوحش الربع من حنين كما
أوحش من بعد خُلَّة سَرِف

فاللهو باق وفي مخارق للاسما
ع من كل هالك خلف[٤٧]

أما الثانية ففي زمن المتوكل ، حيث انتقل هذا القصر اليه في جملة

(٤٧) ديوان علي بن الجهم ص١٢_١٥

ما انتقل من مخلفات الواثق بعد وفاته . وقد أشار ابو الفرج الاصفهاني الى ذلك فقال : أخبرني علي بن العباس قال : حدثني محمد بن عبدالسلام قال : رأيت مع علي بن يحيى المنجم قصيدة علي بن الجهم يمدح المتوكل ويصف الهاروني [٤٨] ومما يؤيد ان هذه القصيدة قيلت في زمن المتوكل قول ابن الجهم فيها :

تبوأت بعدك قعر السجون

وقد كنت أرثي لزوارها

حتى أن المتوكل غضب حين سماعه لهذا البيت ، وعلق على ذلك بقوله : هذا بما كسبت يداه ومعلوم ان ابن الجهم حبس ونفي الى خراسان في زمن الخليفة المتوكل [٤٩] .

وهناك من يرى ان القصيدة ، انما قيلت في وصف الجعفري احد قصور المتوكل [٥٠] . كما أشار بعضهم الى انها قيلت في ابنية المتوكل فحسب [٥١] . والظاهر ان المتوكل قد ادخل بعض التحسينات والاضافات الى قصر الهاروني هذا ، بدليل قول المسعودي في المروج : ويقال انه (أي المتوكل) أنفق على الهاروني والجوسق والجعفري اكثر من مائة الف الف درهم [٥٢] . وحاول ابن الجهم في هذه المرة ان يكون وصفه للقصر اكثر عمقاً وشمولاً ، فأشار الى بنائه الضخم ، وعلو صحونه

(٤٨) الاغاني ٩/١١٤

(٤٩) انظر مروج الذهب ٤/١١١ ووفيات الاعيان ٣/٤٠

(٥٠) انظر : ظهر الاسلام لاحمد أمين ١/٩٦ . نستبعد أن تكون هذه القصيدة قد قيلت في الجعفري المذكور ، ذلك لان ابن الجهم الذي أطلق سراحه ـ بأمر المتوكل ـ من منفاه في خراسان ، في حدود سنة (٢٤٠هـ) قد رجع الى بغداد فاستوطنها ، وانقطعت صلته بسامراء وخلفائها منذ ذلك الحين ، ونحن نعرف أن بناء الجعفري في المتوكلية بدأ سنة (٢٤٥هـ) ـ أنظر ديوان علي بن الجهم ص١٤ـ١٥ . وانظر ص٢٦٠ من هذا البحث .

(٥١) انظر زهر الاداب ١/١٩٨

(٥٢) مروج الذهب ٤/١٢٢

الشاهقة ، وقبته الذاهبة في السماء ، ذات اللمعان والبريق حتى لتكاد العيون الناظرة اليها تستبين منابت اشفارها ، ولعل هذه القبة هي التي اشار اليها الطبري في تاريخه والتي قال عنها : « انها كانت مغشاة بالذهب واللازود »•وأشار ابن الجهم كذلك الى شرفات هذا القصر والى ما كان فيها من زخارف وفسيفساء ، كما أشار الى النخيل المثمرة التي كانت على مقربة منه ، وذكر ايضاً ان لهذا القصر نافورة عظيمة • ويبدو انه كان عظيما حتى ان ابن الجهم عده مفخرة للمسلمين يفخرون بها على غيرهم من الامم الاخرى ، كالفرس والروم •

وواضح ان الشاعر تهيأ له ان يرسم لنا صورة جميلة دقيقة لهذا القصر، وان كانت ظاهرية ، وواضح كذلك ان من اهم خصائص ابن الجهم في قصيدته هذه انصرافه الكلي الى الوصف ، حتى ليمكننا القول أن قصيدته هذه وحدة متماسكة لا خلل فيها •

وعلى الرغم من ان الشاعر كان في اغلب احواله يجنح الى الخيال المقبول ، الا انه قد جمح به الخيال مرة ، فاخرجه عن الحد المقبول الى الاحالة ، وذلك في قوله :

وان اوقدت نارها بالعرا
ق أضاء الحجاز سنانارها

ويخيل الينا ان ابن الجهم يعد في طليعة الشعراء الذين مهدوا الطريق لغيرهم في اوصاف القصور • كما نظن انه اول من وصف الفوارة (النافورة) هذا الوصف الرائع الجميل ، فقال :

ومـا زلت أسمع ان الملوك
تبنى على قدر أخطارها
وأعلم أن عقول الرجال
يُقْضى عليها بآثارها

فللروم ما شاده الأولون
وللفرس مأثور احرارها

فلما رأينا بناء الامام
رأينا الخلافة في دارها

وكنا نعدُّ لها نخوة
فَطَأمنتَ نخوة جبارها

صحون تسافر فيها العيون
وتَحسِر عن بُعْد اقطارها

وقبة ملك كأن النجو
م تفضي اليها بأسرارها

تخِرُّ الوفود لها سُجَداً
اذا ما تجلت لأبصارها

اذا لمعت تستبين العيو
ن فيها منابت أشفارها

وان أوقدت نارُها بالعرا
ق أضاء الحجاز سنا نارها

لها شرفات كأن الربيع
كساها الرياض بأنوارها

نظمن الفسيفس نظم الحلى
لعون النساء وأبكارها

فهن كمصطبحات برزنَ
بفصح النصارى وافطارها

فمنهن عاقصة شعرها
ومصلحةٌ عقد زنارها

وسطح على شاهق مشرف
عليه النخيل بأثمارها

اذا الريح هبتْ لها اسمعتْ
غناءَ القيان بأوتارها

وفوارةٍ ثأرها في السماء
فليست تُقصِّر عن ثأرها

تراها اذا صَعِدت في السماء
تعود الينا بأخبارها

تردّ على الْمزْن ما انزلت
على الارض من صوب مدرارها (٥٣)

* * *

قصور المتوكل :

كان المتوكل اكثر خلفاء بني العباس حباً للبناء ، وشغفاً بالعمارة حتى بلغ به الامر ان كان يدور على العمال بنفسه ، ليتحقق من جدهم في العمل ونشاطهم فيه (٥٤) • فأستطاع بذلك ان يشيد ويوسع عدداً كبيراً من القصور • وقد كلفته تلك المباني الفخمة والقصور الضخمة اموالا طائلة ، وجهداً كبيراً •

واشار كثير من المصادر ـ وان لم تتفق فيما بينها على مبلغ معين ـ الى ما انفقه المتوكل من تلك الاموال على ابنيته وقصوره • فقال الشابشتي : أنه أنفق عليها « مائتي ألف واربعة وسبعين الف الف درهم • ومن العين

(٥٣) ديوان علي بن الجهم ص٢٨ـ٣١ وانظر : عيون الاخبار لابن قتيبة ١/٣١٣ـ٣١٤ ونهاية الارب للنويري ١/٢٨٧ •
(٥٤) أنظر ص ١٧ـ١٨ من هذا البحث •

مائة الف دينار • تكون قيمة الورق بصرف الوقت مع ما فيه من العين ثلاثة عشر الف الف دينار وخمسمائة الف الف وخمسة وعشرين الف دينار »[٥٥] وقال الحصري : « ولم ينفق أحد من خلفاء بني العباس في البناء ما أنفقه المتوكل ، وذلك أنه أنفق في أبنيته ثلاثمائة ألف ألف[٥٦] • وقال ياقوت : « ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الابنية الجليلة مثل ما بناه « المتوكل » وبعد ان سرد اسماء القصور التي بناها الخليفة المذكور أشار الى ان كلفة تلك القصور قد بلغت « مائتي الف الف واربعة وتسعين الف الف درهم[٥٧] • وقال النويري « حكى المؤرخون انه انفق في بنائها « أي القصور » مائة الف دينار وخمسون الف الف عينا ومائتا الف الف وثمانية وخمسون الف الف وخمسمائة الف درهم[٥٨]• وأما تلك القصور فهي :

البركة :

ذكره الشابشتي في الديارات[٥٩] والنويري في نهاية الارب[٦٠]•

الوحيد :

ذكره ياقوت وأشار الى ان النفقة عليه بلغت الفي الف درهم[٦١] •

البهو :

ذكره الشابشتي في الديارات[٦٢] ، وياقوت في معجم البلدان

---

(٥٥) الديارات ص١٠٢
(٥٦) زهر الاداب ١/١٩٨ وانظر ري سامراء ١/١٠٤ ـ ١٠٥ •
(٥٧) معجم البلدان ٣/١٧٥
(٥٨) نهاية الارب ١/٤٠٦
(٥٩) انظر الديارات ص١٠٢
(٦٠) انظر نهاية الارب ١/٤٠٦
(٦١) انظر معجم البلدان ٣/١٧٥ ـ وانظر دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٣
(٦٢) انظر الديارات ص١٠٢

وأشار الى ان كلفة بنائه بلغت خمسة وعشرين الف الف درهم [٦٣].

القلائـــد :

ذكره ياقوت فقال « انفق عليه المتوكل خمسين الف دينار ، وجعل فيها ابنية بمائة الف دينار [٦٤] . وجاء ذكره في الديارات ونهاية الارب باسم « القلاية »[٦٥] ومما ينبغي الاشارة اليه أن هذه القصور لم ترد في شعر احد من الشعراء .

القصـــر :

ذكره كل من الشابشتي في الديارات والنويري في نهاية الارب[٦٦] وجاء ذكره في الشعر .

فقال المعتمد :

يـــا طـــول ليـــلي بفـــم الصلّح
اتبعـــت خســـراني بالربـــح
لهفي عـــلى دهر لنـــا قـــد مضى
بالقصر والقـــاطول والشلح [٦٧]

وقال ابن المعتز :

سقى الله نهر الكرخ ما شاء جوده
فـــاني به حتى الممـــات مكلف
ولا حرم « القصر » الخليج وجسره
وقصـــر لاشناس عليه مشرّف[٦٨]

---

(٦٣) انظر معجم البلدان ٣/١٧٥
(٦٤) معجم البلدان ٣/١٧٥
(٦٥) الديارات ص١٠٢ ، نهاية الارب ١/٤٠٦
(٦٦) انظر الديارات ص١٠٢ ونهاية الارب ١/٤٠٦
(٦٧) الديارات ص٩٨ الطبعة الثانية .
(٦٨) ديوان ابن المعتز ص٢٣٧

وقال ايضاً :

سأثني على عهد المطيرة « والقصـــر »
وأدعو له بالساكنين وبالقطـر[٦٩]

الجوسق :

ذكره المسعودي فقال : « وقد قيل : انه لم تكن النفقات في عصر من الاعصار ولا وقت من الاولاقات مثلها في أيام المتوكل • ويقال انه أنفق على الهاروني والجوسق والجعفري أكثر من مائة ألف ألف درهم[٧٠] وعده ياقوت في جملة قصور المتوكل أيضاً، وأشار الى انه كان في ميدان الصخر ، كما ذكر ان كلفته بلغت خمسمائة الف درهم[٧١] ومر بنا عند الكلام على قصور المعتصم ان الجوسق كان من اهم قصوره ، وعلى هذا فمن المحتمل أن يكون جوسق المتوكل هنا غير الجوسق الآنف الذكر • وقد أشرنا هناك الى ما قـاله بعض الشعراء فيه ، فلا حاجة الى اعادته هنا[٧٢] •

التـــل :

أشار اليه ياقوت ، وذكر أنه أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم[٧٣] • كما ذكره عبدالله بن المعتز ، وأشار الى ما أصابــه والقصور الاخرى من الخراب والدمار[٧٤] •

---

(٦٩) المصدر نفسه ص٣٥

(٧٠) مروج الذهب ١٢٢/٤

(٧١) انظر معجم البلدان ١٧٥/٣

(٧٢) أنظر ري سامراء ٧٨/١ وذيل الديارات ص ٢٣٢ وص٢٢٦ — ٢٢٧ من هذا البحث •

(٧٣) انظر معجم البلدان ١٧٥/٣

(٧٤) أنظر ص٢٢٧ من هذا البحث •

الغـــريب :

ذكره ياقوت فقال : ان النفقة عليه بلغت عشرة آلاف الف درهم[٧٥] وعده النويري في جملة قصور المتوكل في سامراء [٧٦] .

المليـح :

ذكره ياقوت وأشـــار الى ان النفقة عليه بلغت خمسه آلاف ألف درهم[٧٧] . كما ذكره النويري في نهاية الارب[٧٨] . وجاء ذكره فيقول البحتري من قصيدة يمدح بها المتوكل :

واستُتِمَ الصبيح في خير وقـت
فهـو مغنـى أنس ودار مقـــام

ناظـر وجهـة المليـح فلـو يسـ
ـطيع حيـــاه معلنـــاً بالســـلام

ألبســـا بهجـة ، وقابل ذا ذاك
فمـــن ضاحـك ومن بســـــام

كـــالمحبين لو أطـاقـا التقـــــاء
افرطـــا في العنـــاق والالتزام [٧٩]

اللـؤلـؤة :

أشار اليه اليعقوبي في تاريخه ، ولم يسمه فقال : « ان المتوكل بني في الماحوزة قصراً لم يســمع بمثله »[٨٠] وذكره كذلك الطبـري في

---

(٧٥) انظر معجم البلدان ٣/ ١٧٥
(٧٦) انظر نهاية الارب ١/٤٠٦ وذيل الديارات ص٢٣٤
(٧٧) انظر معجم البلدان ٣/ ١٧٥
(٧٨) انظر نهاية الارب ١/ ٤٠٦
(٧٩) ديوان البحتري ٢/ ٣٩٧
(٨٠) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٤

تاريخه فقال : وبني (أي المتوكل) فيها (اي الماحوزة) قصراً سماه لؤلؤة لم ير مثله في علوه »[٨١] . وتبع الطبري في قوله هـذا ابن الاثير في تاريخه الكامل ، وابن تغري بردى في النجوم الزاهرة[٨٢] . وذكره الشابشتي في الديارات ايضاً [٨٣] . وأشـــار ياقوت الى ان كلفة بنائه بلغت خمســـة آلاف الـف درهم [٨٤] . ويرجح بعض الدارسين ان الاطلال الكائنة جنوبي القصر الجعفري والواقعة عـلى ضفة نهر دجلة ، خـــارج سور المتوكل هي مكـــان قصر اللؤلؤة المذكورة[٨٥] .

الشـــاه :

ذكره اليعقوبي في تاريخه بهذا الاسم [٨٦] وأشار اليه الشابشتي في الديارات باسم « الشاة »[٨٧] . أما ياقوت فقال فيه ما نصه « الشاه والعروس ، قصران عظيمان بناحية سامراء ، أنفق على عمارة الشاه عشرون الف الف درهم ، وعلى العروس ثلاثون الف الف درهم ، ثم نقضت في أيام المستعين ووهب نقضانها لوزيره أحمد بن الخصيب فيما وهب » [٨٨] .

العروســـ :

ذكره ابو الفرج الاصفهاني فقال : « لما عقد المتوكل لولاة العهودمن

---

(٨١) تاريخ الطبري ١١/٥٦
(٨٢) انظر الكامل في التاريخ ٥/٢٩٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٢٠
(٨٣) الديارات ص١٠٢
(٨٤) انظر معجم البلدان ٣/١٧٥ وذيل الديارات ص٢٣٤
(٨٥) انظر ري سامراء ١/١٣٥
(٨٦) انظر تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٣
(٨٧) انظر الديارات ص١٠٢
(٨٨) معجم البلدان ٣/١٧٥

ولده ركب بسر من رأى ركبة لم ير أحسن منها ••• وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العروس واذن للناس فدخلوا اليه »[٨٩] وأشار ياقوت اليه عند كلامه على قصر الشاه ، كما أشار اليه كل من اليعقوبي في تاريخه [٩٠] • والشابشتي في الديارات[٩١] والنويري في نهاية الارب [٩٢] أما صاحب النجوم الزاهرة ، فذكر ان بناءه كان في سنة ٢٣٧ وفيها كان اكتماله ، وأشار الى ان النفقة عليه بلغت ثلاثين ألف ألف درهم ايضاً[٩٣] •

أما في الشعر فلم يرد له ذكر او وصف اللهم الا فيما المح اليه ابراهيم الصولي عند مدحه للمتوكل ، وذلك حيث يقول :

ولما بدا جعفر في الخميس
بين المطل وبين العروس

بدا لابساً بهما حلة
ازيلت بها طالعات النحوس [٩٤]

وكذلك في قوله من ابيات يمدح بها المتوكل ايضاً :

تأملْ سماء أظلت عليك
فيها مصابيحها تزهر

(٨٩) الاغاني ٩/٣٠-٣١
(٩٠) انظر تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٣
(٩١) انظر الديارات ص١٠٢
(٩٢) انظر نهاية الارب ١/٤٠٦
(٩٣) انظر النجوم الزاهرة ٢/٢٩٠
(٩٤) ديوان ابراهيم الصولي في الطرائف الادبية ص١٣٤ وانظر الاغاني ٩/٣١

وأرض نقابلها بالعرو
س والبرج شمسها جعفر[٩٥]

البديع :

أشار اليه اليعقوبي في تاريخه [٩٦] والشابشتي في الديارات [٩٧] وذكره ياقوت في المعجم فقال : « البديع ، اسم بناء عظيم للمتوكل بسر من رأى »[٩٨] وأشار اليه النويري في نهاية الارب[٩٩] ونقض هذا القصر في زمن المتوكل ، وحمل ساجه الى الجعفري • وقد أشار الطبري الى ذلك في حوادث سنة ٢٤٥هـ فقال : « وأمر المتوكل بناء الماحوزة وسماها الجعفري ، وأقطع القواد واصحابه فيها وجد في بنائها وتحول الى المحمدية ليتم امر الماحوزة ، وأمر بنقض القصر المختار والبديع وحمل ساجهما الى الجعفري »[١٠٠] وورد اسم هذا القصر في شعر البحتري مرتين : الاولى في قوله من قصيدة له يمدح بها المتوكل :

تؤم القصور البيض من ارض بابل
بحيث تلاقى غردها وبديعها [١٠١]

---

(٩٥) ديوان ابراهيم الصولي ص١٣٣ وانظر العقد الفريد ٥/٤٢١

(٩٦) انظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٣

(٩٧) انظر : الديارات ص١٠٢

(٩٨) معجم البلدان ١/٣٥٩ ، وانظر : مراصد الاطلاع لابن عبدالحق ص٦٥ والقاموس المحيط ٢/٣

(٩٩) انظر : نهاية الارب ١/٤٠٦

(١٠٠) تاريخ الطبري ١١/٥٦ ، وانظر ذيل الديارات ص٢٣١

(١٠١) ديوان البحتري ص١٢٩٧ طبعة الصيرفي • جاء في ديوان البحتري طبعة بيروت ١/٩ كلمة « غربها » مكان « غردها » وفسرت الكلمة بأنها نوع من الشجر ، ولا معنى لها هنا والصواب ما أثبتناه •

والثانية في قوله من قصيدة يمدح بها المعتز :

فاذا بلغت به البديع ، فانما
انزلت دجلة في فناء الجوسق (١٠٢)

والجدير بالملاحظة ان قول البحتري هذا يشير الى ان قصر البديع كان قائما في عهد المعتز ، الامر الذي يناقض ما ذهب اليه الطبري في قوله الآنف الذكر . ويرجح بعض الدارسين لآثار سامراء ، ان الاطلال الشاخصة في الحلبة القديمة ـ حلبة بيت الخليفة ـ الواقعة في جنوبي « تل المخالي » المعروف محليا « تل العليق » هي من بقايا قصر البديع المذكور (١٠٣) .

الشبداز :

أشار اليه اليعقوبي في تاريخه (١٠٤) . وذكره ياقوت في المعجم فقال: « شبداز » : بكسر أوله ، وسكون ثانيه ، ثم دال مهملة ، وآخره زاي ، ويقال : « شبديز ، بالياء المثناة من تحت : قصر عظيم من ابنية المتوكل » (١٠٥) وذكره ياقوت في موضع آخر من معجمه باسم « الشيدان » وقال : ان كلفة بنائه بلغت عشرة آلاف الف درهم (١٠٦) وأشار اليه الشابشتي في الديارات واسماه « السندان » (١٠٧) وجاء ذكره في قول البحتري من قصيدة يمدح بها المتوكل ويصف قصر الصبيح :

---

(١٠٢) ديوان البحتري ٢/٢٥٤

(١٠٣) أنظر : ري سامراء ١/١٢٤ـ١٢٥

(١٠٤) انظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٣

(١٠٥) معجم البلدان ٣/٣١٩

(١٠٦) المصدر نفسه ٣/١٧٥ وانظر ظهر الاسلام لاحمد أمين ١/٩٩

(١٠٧) انظر : الديارات ص١٠٢

ان خير القصور أصبح مزهـــواً
بكـــرهِ العـــدى لخير الانـــام

جـــاور الجعفري وانحـــاز شبدا
ز اليــه ، كالراغب المعتام[108]

المختـــار :

أشار اليه الشـابشتي في الديارات[109] ، وذكره ياقوت في المعجم مرتين قال في الاولى : ان النفقة عليه بلغت خمسة آلاف الف درهم[110] وقال في الثانية : انه « قصر كان بسامراء من ابنية المتوكل ... وكانت فيه صور عجيبة من جملتها صورة بيعة فيها رهبان واحسـنها صورة شهـــار البيعة »[111] بيد ان ياقوت أشار في سياق حديثه عن هذا القصر ما يفهم ان القصر المذكور كان مشيدا في زمن الواثق ، قال : « ذكر ابو الحسن علي بن يحيى المنجم عن ابيه قال : أخذ الواثق بيدي يوما وجعـل يطوف الابنية بسامراء ليختار بها بيتا يشرب فيه ، فلمـــا انتهى الى البيت المعروف بالمختار استحسنه ، وجعل يتأمله وقال لي : هل رأيت أحسن من هذا البناء؟ فقلت : يمتع الله امير المؤمنين ، وتكلمت بمـا حضرني »[112] وأشـــار ياقوت في حديثه الى ان الواثق بعد أن شرب وانتشى قام فكتب على احـد جدران القصر المذكور هذه الابيات :

مـــا رأينـــا كبهجـة المختار
لا ولا مثـــل صـــورة الشّهار

---

(١٠٨) ديوان البحتري ٢/٣٩٨
(١٠٩) الديارات ص١٠٢
(١١٠) معجم البلدان ٣/١٧٥
(١١١) المصدر السابق ٥/٧٠ والشّــهار : لفظـة سـريانية بمعنى السهار ، وهو عند النصارى من يتولى صلاة الليل في الكنائس .
(١١٢) معجم البلدان ٥/٧٠

مجلس حُفَّ بالسرور وبالنر
جس والآس والغنا والزمار

ليس فيه عيب سوى ان ما فيه
سيفنى بنازل الاقدار

ثم قال : ان راوي القصة وهو والد علي بن يحيى المنجم مر بعد سنيات بسامراء فرأى بقايا هذا البيت وعلى حائط من من حيطانه مكتوب :

هذي ديار ملوك دبروا زمناً
أمر البلاد ، وكانوا سادة العرب

مضى الزمان عليهم بعد طاعته
فانظر الى فعله بالجوسق الخرب

وبَزْكوار وبالمختار قد خلتا
من ذلك العز والسلطان والرتب(١١٣)

وقد أشرنا عند الكلام على قصر البديع ، ان المتوكل امر بنقضه وحمل ساجه الى قصره الجعفري • وممن أشار الى هذا القصر كذلك النويري في نهاية الارب (١١٤) •

البرج :

أشاد المؤرخون بهذا القصر وما كان عليه من الفخامة والزينة فقال الشابشتي : « وكان البرج من احسن ابنيته ، فجعل فيه صورا عظاما من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة جعل فرشها ظاهرها ، وباطنها صفائح الفضة والذهب ، وجعل عليها شجرة ذهب ، فيها كل طائر يصوت ويصفر ،

---

(١١٣) انظر معجم البلدان ٥/ ٧١

(١١٤) انظر نهاية الارب ١/ ٤٠٦ ودائرة المعارف الاسلامية ١١/ ٨٣

مكللة بالجوهر ، وسماها طوبى (١١٥) وعمل له سرير من الذهب كبير ، عليه صورتا سبعين عظيمين ، ودرج عليها صور السباع والنسور وغير ذلك على ما يوصف به سرير سليمان بن داود عليه السلام ، وجعل حيطان القصر من داخل وخارج ملبسة بالفسيفساء والرخام المذهب » (١١٦) واشار الشابشتي الى ان جلوس المتوكل فيه كان سنة تسع وثلاثين ومائتين • (١١٧)

ووصف النويري هذا القصر بما يشبه وصف الشابشتي فقال«وكان البرج من احسنها • كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة عظيمة غشي ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة » (١١٨) أما كلفة بناء هذا القصر فقد ذكر كل من اليعقوبي والشابشتي انها بلغت الف الف وسبعمائة الف دينار (١١٩) بيد ان ياقوت الحموي أشار الى ان النفقة عليه بلغت عشرة آلاف درهم (١٢٠) ومن الغريب حقا ان لا يشارك الشعر كثيراً في وصف هذا القصر الجميل ، اذ لم يرد له ذكر على ما يبدو ، الا اشارات خاطفة في شعر ابراهيم الصولي وابى عباده البحتري ويظهر من ابيات الصولي ان هذا القصر كان على مقربة من قصر العروس • وقد اشار

---

(١١٥) لفظة سريانية بمعنى الغبطة والسرور ، انظر الديارات ص١٠٣

(١١٦) الديارات ص١٠٣

(١١٧) المصدر السابق ص١٠٣

(١١٨) نهاية الارب ٤٠٦/١

(١١٩) انظر تاريخ اليعقوبي ٢٢٢/٣ والديارات ص١٠٣ ونهاية الارب ٤٠٦/١

(١٢٠) انظر معجم البلدان ١٧٥/٣ • واضح ان ما ذكره ياقوت لا يمكن أن يفي ببناء هذا القصر ، ولعل ما ذكره في الاصل هو عشرة آلاف ألف درهم ، فسقطت كلمة « ألف » سهوا •

اليه الصولي مرتين اسماه في الأولى « المطل » وفي الثانية « البرج »[١٢١]. واما البحتري فاشار اليه مرتين ايضا ، واسماه فيهما (البرج المطل) قال من قصيدة يمدح بها المتوكل :

ولست بزوار الملوك على الوجى
لئن لم تُجل اغراضها ونسوعها

تؤم القصور البيض من ارض بابل
بحيث تلاقى غردها وبديعها

اذا اشرف « البرج المطل » رمينه
بابصار خوص قد ارثت قطوعها

يُضيء لها قصد السرى لمعانُه
اذا اسودّ من ظلماء ليل هزيعها[١٢٢]

وقال ايضاً من ابيات له في علة الفتح بن خاقان ويخاطب كاتبه ابا نوح :

فلا تحسبنْ تركي العيادةَ جفوةً
ولا سوءَ عَهْدٍ جاذبتني جواذبه

ومَنْ لي باذنٍ حين أغدو اليكما
ودونكما «البرج المطل» وحاجبه[١٢٣]

---

(١٢١) انظر الكلام على الحدائق والرياض .

(١٢٢) ديوان البحتري ١/٩-١٠

(١٢٣) ديوان البحتري ٢ل/٢٠٢ طبعة الصيرفي . ومن الجدير بالذكر أن شارح الديوان يرجع تاريخ هذه الابيات الى سنة ٢٣٣هـ ، وهو أمر بعيد الاحتمال ، اذا صح ما ذكره الشابشتي عن تاريخ جلوس المتوكل في هذا القصر .

وذكر النويري ان السرى الرفاء قال في البرج المذكور :

طـــائر في الهواء ، فالبر يســري
دون اعـــلاه والحمام يطـــير

فـاذا الغيم ، سار ، أسبـــل منــه
حلل دون جُدْره وســـــتور

واذا غـارت الكواكب صـــبحاً
فهــو الكوكب الـذي لا يغـور

وقال أيضاً :

منـــزل كـــالربيع حلت عليـــه
حاليـات الســحاب عقـدَ النطاق

يُمْتع العين في طرائف حســـن
تتحـــامى بهـــا عن الاطراق

بين ســـاج كـــأنه ذائب التبر
على مثـــل ذائـــب الاوراق

وقال ايضاً :

والقصر يبسم عن وجه الضحى فترى
وجه الضحى عندما ابدى له شَحِبا

يبيت أعـــلاه بالجـوزاء منتطقـاً
ويغتدي برداء الغيم محتجبـا(١٢٤)

ومن السهولة بمكان تفنيد مـــا ذهب اليــه النويري ، من ان هذه الاوصاف قيلت في القصر المذكور ، ذلك ان هذه الابيات تصف ـ كمـــا

(١٢٤) نهاية الارب ١/٤٠٦ـ٤٠٧

ترى ـ قصرا عامرا زاهيا ، والبرج كما مر بنا نقض في عهد المتوكل ، هذا من جهة ـ ومن جهة ثانية فان النويري تفرد بهذه الرواية ، ولم تشاركه المصادر الاخرى ، اذ لم يشر اي منها الى ان السرى زار سامراء في وقت من الاوقات • ومعلوم ان الرفاء كان من شعراء القرن الرابع الهجري ، وكانت سامراء في ذلك القرن قد مشى فيها الخراب والدمار حتى اصبحت قصورها ودورها اطلالا وآكاما تبعث في رائيها الحزن والاسى ، وعلاوة على ما تقدم فان ديوان السرى الذي بأيدينا لا يضم مما ذكره النويري سوى البيتين الاخيرين ، وهما من قصيدة يمدح بها ابا الغضنفر بن ناصرالدولة ويصف قصره وبستانه وهو ليس في سامراء بالطبع (١٢٥) •

الغـــرد :

ذكر ياقوت في معجمه ما نصه « الغرد » : قال نصر : بسكون الراء، ولم يزد في ايضاحه ، قال : وهو بناء للمتوكل بسر من رأى في دجلة ، انفق عليه الف الف درهم ، ولم يصح لي انا ضبطه ، وما أظنه الا الفرد والله اعلم (١٢٦) • واذا لم يكن ياقوت يعرف من امر هذا القصر الا انه واقع على دجلة • فان البحتري قد وصفه لنا وصفاً دقيقاً رائعاً ، وأشار الى انه كان على مقربة من نهر دجلة ، وكانت ارضه خضلة ، كما كان ابيض ساطع النور حتى ان العين لتنكص وتكل من ادامة النظر اليه ، وقد ارتفع عن القباب التي رفدت ميامنه ومياسره ، وأشار الى ما كان في اعلاه ، والذي كان يدور مع الريح ليبين اتجاهها وسيرها ، فقال من قصيدة يمدح بها المعتز ، وقد انتقل اليه هذا القصر في جملة ما انتقل اليه بعد استخلافه :

أحسِنْ بدجلة منظراً ومخَيمـــاً
والغرد في اكتاف دجلـــةَ منـــزلا

---

(١٢٥) أنظر ص ٢١٥ ـ ٢١٦ من هذا البحث •
(١٢٦) معجم البلدان ٤/١٩٢ـ١٩٣ وانظر المصدر نفسه ٣/١٧٥ •

خَضِلُ الفِناء ، متى وطئتَ ترابه
قلتَ : الغمام انهل منه ، فأسبلا

حشدت له الامواجُ فضل دوافع
أعْجلنَ دولابيه أنْ يتمهلا

تبيضّ نُقبته ، ويسطع نوره
حتى تكل العينُ فيه وتَنْكُلا

كالكوكب الدرّي أخلص ضوءُهُ
حلك الدجى ، حتى تألق وانجلى

رفدت جوانبَه القبابُ ميامناً
ومياسراً ، وسَفَلْن عنه وأعتلى

فتخاله ، وتخالهن ازاءَه
ملكاً تدين له الملوك ، مُمَثّلا

وعلى أعاليه رقيب ما ينى
كلفاً بتصريف الرياح ، مُوَكّلا

من حيث دارت دار يطلب وجهها
فعل المُقاتل جال ثم استقبلا

بِدَعٌ لبدْع في السماحة ما ترى
من أمره ، الا عجيباً مُجذلا (١٢٧)

كما جاء ذكرهذا القصر ايضا في قول البحتري من قصيدة يمدح بها المتوكل (١٢٨) .

---

(١٢٧) ديوان البحتري ١/١٦٣
(١٢٨) أنظر ص٢٤١ من هذا البحث .

بركوارا :

لم تتفق المراجع في اسـم هـذا القصر ، فقيل : بركوار (١٢٩) وبركوارا (١٣٠) وبزكوار (١٣١) وبركـوان (١٣٢) وبركوانـا (١٣٣) وبلكوارا (١٣٤) وبيركوار (١٣٥) ، واللفظـة فارسـية ومعناها الهانيء أو الهنى (١٣٦) .

وقد أشارت الى هذا القصر بعض المصادر القديمة ، فقال الشابشتي فيه : « وبالقادسية بني المتوكل قصره المعروف ببراكوار ، ولمـا فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز ، وجعل اعذاره فيه ، وكان من أحسن أبنيةالمتوكل وأجلها ، وبلغت النفقة عليه عشرين الف الف درهم » (١٣٧) . وقـال ياقوت « بَزْكوار : أسم بيت بناه المتوكل في قصر له بسر من رأى » (١٣٨) وقال في موضع آخر : وبلغت النفقة عليه عشرين الف الف درهم (١٣٩) وفي هذا القصر اقيمت دعوة الاسلام الثانية (١٤٠) . وهي الـدعوة التي

---

(١٢٩) الديارات ص٩٦

(١٣٠) انظر أخبار البحتري للصولي ص٩٤ والديارات ص١٠٢

(١٣١) انظر تاريخ الطبري ١١/٢٢٣ ، ومعجم البلدان ١/٤١٠

(١٣٢) انظر معجم البلدان ٣/١٧٥

(١٣٣) انظر نهاية الارب ١/٤٠٦

(١٣٤) انظر دائرة المعارف الاسـلامية ١١/٨٥ ، وذيـل الديارات ص٢٣١ وري سامراء ١/١٢٨

(١٣٥) إنظر ذيل الديارات ص٢٣١

(١٣٦) الديارات ص٩٦

(١٣٧) معجم البلدان ٣/١٧٥

(١٣٨) انظر ذيل الديارات ص٢٧٤

(١٣٩) معجم البلدان ١/٤١٠

(١٤٠) أنظر ص ٧٣ من هـذا البحث حيث أشرنا الى هذه الدعوة « الحفلة » وتسمى الثانيـة ، لان هنـاك دعوة سـبقتها وهي الدعوة التي أقيمت بمناسبة عرس المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل .

أقامها المتوكل بمناسبة اعذار ابنه المعتز • وكان ما جرى فيها من البذخ والاسراف ما انسى غيرها من الدعوات المشهورة • ووصف الشابشتي هذه الدعوة ، وما جرى فيها من أمور وصفاً دقيقاً شاملا (١٤١) •

ومن العجيب حقاً ، ان لا يشارك الشعراء في وصف هذا القصر وما كان عليه من الفخامة والروعة بل اكتفى بعضهم بالتلميح باسمه ، بعد أن مشى فيه الخراب والدمار (١٤٢) •

أما المصادر الحديثة المستندة على الحفريات التي اجريت فيإطلال هذا القصر فقد رسمت لنا صورة واضحة لهذا القصر ، وطراز بنائه وما اشتمل عليه من غرف وحدائق ومشتملات (١٤٣) حتى عده بعض الدارسين من أعظم المنشئات المعمارية لكبر مساحته وحجمه وكثرة الظواهر الفنية المعمارية فيه (١٤٤) •

الحير :

ذكر المسعودي ان المتوكل « أحدث في أيامه بنـاء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والاروقة » فقلد بذلك أحد ملوك الحيرة مما حمل الناس على اتباعه في ذلك رغبة منهم في الائتمام بفعله والسير على منواله (١٤٥) • وقال فيه ياقوت « الحير : بالفتح ، اسم قصر كان بسامراء ، انفق على عمارته المتوكل اربعة آلاف ألف درهم ، ثم وهب المستعين انقاضه لوزيره احمد بن الخصيب فيما وهب له (١٤٦) •

وأشارت الدراسات الحديثة لآثار هذا القصر الى انه يقع في الحد

(١٤١) انظر الديارات ص٩٦ وما بعدها •
(١٤٢) أنظر ص٢٤٤ من هذا البحث •
(١٤٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٥ وري سامراء ١/١٢٥
(١٤٤) ري سامراء للدكتور أحمد سوسه ١/١٢٧
(١٤٥) أنظر مروج الذهب ٤/٨٧ وانظر : ص٦٠ من هذا البحث •
(١٤٦) معجم البلدان ٢/٣٢٨ ومراصد الاطلاع ص٣٤٥

الجنوبي لحديقة حير الوحوش التي انشأها المتوكل • ويحتل مساحة كبيرة من الارض ، وأمامه بهو مستطيل على شكل دكة ، يشرف على بركة مربعة ذات مساحة فسيحة هي البركة الحسناء التي جاءت في شعرالبحتري، وخلف القصر ساحة واسعة مستطيلة مسورة من اللبن والطين ، وفي وسطها مصطبة اصطناعية تشرف على القاطول الاسفل من جهة وعلى القصر وحديقة الحيوانات من جهة أخرى (١٤٧) • وقد أشار الى هذا القصر البحتري في قوله من قصيدة يمدح بها المتوكل :

وأرى الدكتين بينهما افـ
ـواف روض كالوشي في الوانه
في ضروب من حسن نرجسه الغـ
ـض ومن آسه ومن زعفرانه
ذاك قصر مبارك تقصر الاعـ
ـين دون الرفيع من بنيانه (١٤٨)

وممن أشار الى هذا القصر الخليفة الراضي في قوله من قصيدة يذكر فيها سامراء ويشير الى ما أصاب قصورها من الخراب والاندراس :

والحير والقصر والقاطول جنتها
والجعفري بكف الدهر مزموم
منازل آنست دهراً فأوحشها
ظلم الزمان فمثلوم ومهدوم (١٤٩)

---

(١٤٧) انظر ري سامراء ٢/٢٩٨
(١٤٨) ديوان البحتري ١/٤٤ وري سامراء ٢/٣٠٠
(١٤٩) الاوراق للصولي ٢/١٨٢ وري سامراء ٢/٣٠٠ وقد وهم الدكتور سوسه بنسبته هذه الابيات للصولي •

ويظن بعض الدارسين ان هذا القصر بقي حتى اوائل القرن الرابع الهجري مستدلا على ذلك بشعر جحظة البرمكي ، كان قد نظمه حوالي سنة ٣٢٦ هـ في وصفه ، ذلك حيث يقول :

الاهل الى الغدران والشمس طلقة
سبيل ونور الخير مجتمع الشمل
ومستشرف للعين تغدو ظباؤه
صوائد الباب الرجال بلا نبل
الى شاطيء القاطول بالجانب الذي
به القصر بين القادسية والنخل (١٥٠)

وقد مرّ بنا عند الكلام على هذا القصر انه نقض في عهد المستعين ووهبت انقاضه الى احد وزرائه .

كما ان الابيات التي استشهد بها الدارس المذكور لا تعني ان القصر كان قائماً آنذاك ، اذ من المعلوم ان جحظة ـ اذا صح انه قال هذه الابيات حوالي سنة ٣٢٦هـ ـ كان في أواخر سني حياته ، اذ ان وفاته كانت في هذه السنة ، وان عمره قد نيّف على المائة ، وليس من المعقول أن يكون قد تردد على هذا القصر في هذه السنة وفي هذا العمر ، كما ان سامراء قد خربت واندثرت ولا شك في ان هذا القصر ـ اذا صح انه بقي ولم ينقض في عهد المستعين ـ قد أصابه الدمار والخراب في جملة ما اصاب امثاله من القصور . أضف الى ذلك ان ابيات جحظة هذه لا تدل على انه كان يصف القصر في هذه السنة ، فهي لا تعدو ان تكون ذكريات لبعض القصور والمواضع التي كان يرتادها في شرخ شبابه وعنفوان نشاطه !

---

(١٥٠) انظر معجم البلدان ٢٩٧/٤ وري سامراء ٣٠٠/٢

الصبيح :

أشار اليه كل من الشابشتي في الديارات [١٥١] والنويري في نهاية الارب [١٥٢] واسماه ياقوت « الصبح » ، وقال : ان النفقة عليه بلغت خمسة آلاف الف درهم [١٥٣] واذا كانت المصادر الادبية والتاريخية قد اكتفت بهذه الاشارات عن هذا القصر فان الشعر كان اكثر منها تفصيلا وأدق تعبيرا ، وجاء كل ذلك في قصيدة البحتري التي يمدح فيها باني هذا القصر ومؤسسه الخليفة المتوكل • فقد أشار الى ان بناءه قد تم في أحسن الاوقات ، والى ان الخليفة قد اتخذه مقاما للسكنى ، ودارا للانس ، وبين انه كان يقابل قصراً آخر للمتوكل اسمه « المليح » كما اشار الى ان للقصر المذكور بركة حسناء ، كانت تستمد مياهها من جدول عليه دواليب يديرها النعام • وذكر ان هذا القصر كان يجاور قصرين آخرين للمتوكل هما : الجعفري وشبداز •

ويبدو ان البحتري قد اصيب بدهشة لما رآه من جمال البناء وعظمته حتى كاد يظن ان هذه القصور لجمالها وفخامتها لا يستطيع الانسان ادراكها الا بالتخيل والاوهام ، اذ انها كالاماني التي تخطر في الاذهان ، والاحلام التي تتراءى في المنام ، فقال :

قد صفا جانب الهواء ، ولذت
رقة الماء في مزاج المدام
واستتم الصبيح في خير وقت
فهو مغنى أنس ، ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يسـ
ـطيع حياه معلناً بالسلام

---

(١٥١) انظر الديارات ص١٠٢
(١٥٢) إنظر نهاية الارب ١/٤٠٦
(١٥٣) معجم البلدان ٣/١٧٥

البسا بهجـــة ، وقـــابل ذا ذاك
فمـــن ضاحك ومن بســــــام

كالمحبين ، لو أطـاقا التقـــــاء
أفرطـــا في العناق والالتـــزام

تُنفذ الريحُ جريَها بين قطريـــ
ـه ، فتكبـو من ونيـــة وسـآم

مُستمِد بجـدول من عُباب الـــ
ـسماء كالابيض الصَقيل الحسـام

واذ ما توســـط البركـــة الحـ
ـسناء القت عليــه صبغ الرخـام

فتـــراه كأنـــه مـــاء بحـــر
يخـــدع العينَ وهو ماء غمـــام

والدواليب اذ يـــدرن ، ولا نـا
ضحَ يمشي بهن غـــير النعـــام

بـــدع انشئت لاولى عبـــاد الله
بالركـــن ، والصفـــا ، والمَقام

ان خير القصـــور أصبح مزهواً
بكـــره العـــدا لخـــير الانـــام

جاور الجعفري ، وانحاز شـيبدا
ز اليـــه ، كالراغـب المعتـــام

حـِلل من منـازل الملـــك كالانـ
ـجم ، يلمعن في سواد الظـــلام

مفحمات تعيي الصـفات فمـا تد
رك الا ّ بالظـن والاوهـام
فكأنـا نحسـبها في الامـاني
أو نراهـا في طارق الاحـلام
غرف من بنـاء ديـن ودنيـا
يوجب الله فيـه أجـر الامـام
شـوقتنا الى الجنـان فزدنـا
في اجتنـاب الذنـوب والآثـام
وبهـا تشـرف الاوائـل ملكاً
وتبـاهى مكاثري الاسـلام(١٥٤)

وواضح أن البحتري لم يقف في وصفه عند هـذا القصر فحسب ، وانما سلك معه عدداً آخر من القصور التي كانت متجاورة ـ كما يبدو ـ مما جعل وصفه ينحو منحى ظاهرياً ، كأغلب أوصافه لقصور هذه المدينة. وكأني بالشاعر أراد أن تكون قصيدته هذه سجلا لتدوين أعمال الخلفـاء في هذا الشأن . ولا يخفى ـ مع ذلك ـ ما تنطوي عليه الابيات من براعـة تصوير البحتري ، وروعة تشبيهاته ، ودقة وصفه ، ورشاقة ألفاظه ، وهي خصائص اشتهر بها شاعرنا الفنان !

ويظن بعض الدارسين أن قصري الصبيح والمليح كانا يقعان في حـير الوحوش للمتوكل ، مستهدياً بما في قصيدة البحتري هـذه من اشارات ودلائل ، من ذلك ذكر الشاعر للبركة الحسناء ، وهي البركة الواقعة في الحير المذكور كما سنشير الى ذلك فيما بعد ، ومنه اشارته الى أن المكـان الذي أنشىء فيه هذان القصران كان من أمكنة الملوك الاوائل ، مما يحمل

(١٥٤) ديوان البحتري ٣/٢٠٠٥ـ٢٠٠٧ طبعة الصيرفي .

على الظن ، أن قصر المليح هو قصر الرشيد القديم على القاطول ، ثم جاء المتوكل فأعاد بناءه ، وأنشأ البركة والحير أمامه ، ثم أضاف اليه قصر الصبيح[(١٥٥)] • بيد أن البحتري قد أشار في القصيدة نفسها الى أن قصر الصبيح هذا كان يقابل قصر المليح ، كما كان يجاور قصر الجعفري والقصر الاخير - كما هو معروف - يقع في مدينة المتوكلية ، وبين المتوكلية وحير الوحوش بون شاسع[(١٥٦)] •

واذا علمنا أن الحاق البرك بالقصور ، ولا سيما قصور الخلفاء ، كان سنّة متبعة آنذاك ، فليس من المستبعد أن يكون البحتري قد أطلق اسم البركة الحسناء في قصيدته هذه على بركة أخرى ، غير البركة الكائنة في الحير المذكور ، ومما يرجح هذا أن هناك رواية أخرى للبيت الذي وردت فيه لفظة (الحسناء) وصفاً للبركة ، فقد روى مكانها لفظة « الخضراء »[(١٥٧)] •

ويخيل الينا أن البحتري لم يرد بقوله :

وبهـا تشرف الاوائل ملكاً   وتباهى مكاثري الاسلام

الاشارة الى موضع قصر الرشيد ، وانما هو يعني - بعد أن وصف القصور المتجاورة - وهي الصبيح والمليح والجعفري والشبداز - وعجب من فخامتها وروعتها - ان هذه المباني مما يفخر بها الخلفاء على غيرهم من الامم ، وقد أشار الى مثل ذلك البحتري أيضاً في قوله يصف القصر الجعفري :

---

(١٥٥) انظر ري سامراء للدكتور أحمد سوسه ٢/٣٠٢

(١٥٦) يبلغ طول مدينة سامراء ، كما ذكرنا في ص١٨ أربعة وثلاثين كيلومترا ، وتقع المتوكلية - التي فيها القصر الجعفري - على بعد عشرين كيلومترا من شمال سامراء الحالية ، ويقع حير الوحوش - الذي فيه قصر الصبيح المذكور - كما يقال - على بعد بضعة كيلومترات في الجنوب الشرقي منها • انظر : ري سامراء ١/١٢٩ •

(١٥٧) انظر : ديوان البحتري ٣/٢٠٠٥ طبعة الصيرفي

فرفعت بنياناً كأن مناره
أعلام رضوى ، أو شواهق صنبر

أزرى على همم الملوك وغض من
بنيان كسرى في الزمان وقيصر

وقد فعل مثل ذلك ـ قبله ـ علي بن الجهم في وصفه القصر الهاروني فقال :

وما زلت أسمع أن الملوك تبني على قدر أخطارها
فللروم ما شاده الاولون وللفرس مأثور أحرارها
فلما رأينا بناء الامام رأينا الخلافة في دارها

هذا ، مع أن قصر الرشيد في القاطول لم يكن من الفخامة والضخامة بحيث يمكن اتخاذه نموذجاً للمباهاة والمفاخرة !

كما أشار البحتري الى هذا القصر في قصيدة أخرى له أيضاً[١٥٨] .

قصر الايتاخية (في المحمدية) :

ذكره ياقوت وأشار الى أن كلفة بنائه بلغت عشرة آلاف ألف درهم[١٥٩] ويخيل الينا أن هذا القصر قد شيد في المحمدية التي أشارت بعض المصادر الى أنها كانت قرية بالقرب من سامراء ، وكانت تعرف بالايتاخية نسبة الى ايتاخ التركي ، ثم سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه المنتصر ، وكانت تعرف أولا بدير أبي صفرة ، وهم قوم من الخوارج . وقد اتخذها المتوكل مقراً يشرف منه على عملية بناء مدينته المتوكلية[١٦٠] .

---

(١٥٨) انظر ص٢٢٧ من هذا البحث
(١٥٩) معجم البلدان ٣/١٧٥
(١٦٠) انظر : ديوان البحتري ص١٠٧٥ طبعة الصيرفي هامش (٢) وري سامراء ١/١٣١

وذكر اليعقوبي في تاريخه المحمدية هذه في معرض كلامه على تدهور الحالة السياسية في عهد المعتز ، وذكر أنها كانت على مسافة ثلاثة فراسخ من قصور الخلفاء ، وأشار الى قصر فيها ولم يسمه ولعله قصر الايتاخية المذكور ، الذي بناه المتوكل . قال اليعقوبي : « وضعف أمر المعتز حتى لم يكن له أمر ولا نهي ، وانتقضت الاطراف وخرج بديار ربيعة رجل من الشراة ، يقال له مساور بن عبدالحميد ويعرف بأبي صالح من بني شيبان، ثم صار الى الموصل فطرد عاملها وسار حتى قرب من سر من رأى ، ونزل في المحمدية (ثلاثة فراسخ من قصور الخليفة) فدخل « القصر » وجلس على الفراش ، ودخل الحمام ، وندب له المعتز قائداً وجيشاً بعد قائد وجيش وهو يهزمهم حتى كثف جمعه وأشتدت شوكته »(١٦١) . ويظهر أن المحمدية المذكورة قد ازدهرت حالها وحسنت أمورها في عهد الخليفة المعتز ، وانه قد اتخذها مقراً للسكنى ومغنى للأنس والطرب لما كانت عليه من طيب المكان ، ووفرة المياه ، وقد أشار الى ذلك البحتري في قوله من قصيدة يمدح بها المعتز :

قد تمَّ حسن « المحمّديّة » بالبد
ر الذي بالضياء يَغمُرها

مشرقةٌ في العيون ضاحكةٌ
مبدأها أنس ومُحضَرها

تُبدي نسيمَ الكافور تُربتُها
اذا غدت والسماء تُمطرها

مغنى سرور بالسعد تنزله
ودارُ أنس باليمن تعمرها

---

(١٦١) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٣

وفارســـــباد اذ تكتنفهـــــا
مورق أشـجارها ومثمرهـــا

جنـــة عـدن متى حللت بهـــا
شهدت أن القاطول كوثرها(١٦٢)

الجعفري : وهو من أعظـم قصور المتوكل وأجلهـا ، بنـاه في موضع الماحوزة(١٦٣) سنة خمس واربعين ومائتين للهجرة ، وبلغت النفقة عليه ألفي ألف دينار(١٦٤) وهـذا القصر هو الذي قال فيـه أبو العيناء يخاطب المتوكل حين سأله عنه « ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وانت بنيت الدنيا في دارك »(١٦٥) وفيه قتل المتوكل سنة سبع واربعين ومائتين للهجرة(١٦٦) .

وشارك الشعر على عادته في تسجيل ما كان لهذا القصر من الفخامة والضخامة وما كان له من تأثير سيء على سامراء حين أنتقل الخليفة اليه والى المتوكلية(١٦٧) . وحين تبعه في ذلك عامة أهل سامراء فقال أبو علي البصير يصف حالة سامراء بعد الانتقال عنها ويحث الناس عـلى الارتحال الى المدينة الجديدة :

ان الحقيقــة غير ما يتوهـــم فأختــر لنفسك أي أمر تعـزم
أتكون في القوم الذين تأخروا عن حظهم أم في الذين تقدموا ؟
لا تقعدن تلوم نفسك حين لا يجـدي عليـك تلوّم وتنـدم
أضحت قفارا سر من را ما بها الا لمنقطـــع بـــه متلـــوّم

---

(١٦٢) ديوان البحتري ص ١٠٧٥ ــ ١٠٧٦ طبعة الصيرفي .
(١٦٣) وهي المدينة التي بناها المتوكل وسيأتي ذكرها فيما بعد .
(١٦٤) معجم البلدان ٢/١٤٣ .
(١٦٥) مروج الذهب ٤/٢٣٦ وأنظر معجم الادباء ٨/٢٨٨ .
(١٦٦) أنظـر : معجم البلدان ٥/٥٣ ، ٢/١٤٣ وكتـاب البلدان لليعقوبي ص ٣٢ ووفيات الاعيان ٣/٤٦٨ .
(١٦٧) وهي الماحوزة المشار اليها أعلاه .

تبكي بظاهر وحشة وكأنها ... ان لم تكن تبكي بعين تسجم
رحل الامام فأصبحت وكأنها ... عرصات مكة حين يمضي الموسم
وكأنما تلك الشوارع بعض ما ... أجلت اياد من البلاد وجرهم
كانت معاداً للعيون فأصبحت ... عظة ومعتبراً لمن يتوسم
وكأن مسجدها المشيد بناؤه ... ربع أحال ، ومنزل مترسم
واذا مررت بسوقها لم تثن عن ... سنن الطريق ولم تجد من يزحم
وترى الذرارى والنساء كأنهم ... خلف أقام وغاب عنه القيّم
فارحل الى الارض التي يحتلها ... خير البرية ان ذاك الاحزم
وانزل مجاوره بأكرم منزل ... وتيمم الارض التي يتيمم
أرض تسالمَ صيفها وشتاؤها ... فالجسم بينهما يصِح ويسأم
وصفت مشاربها وراق هواؤها ... والتذ برد نسيمها المتنسم
سهلية جبلية لا تحتوي ... حراً ولا قراً ولا تستوخم(١٦٨)

وعلى الرغم من افتقار القصيدة الى الخيال الشعري والابداع الوصفي ، فانها تنطوي على شيء غير قليل من تصوير حالة المدينة تصويراً دقيقاً بعد مبارحتها من قبل الخليفة وهجرانها من ساكنيها !

واما البحتري ـ شاعر سامراء الاول ـ فقد ذكر هذا القصر في عده مواطن من شعره ، فأشار في بعضها الى حسن اختيار موقعه ، ولطافة جوه ، وما كان عليه من السعة والشموخ ، حتى عانقت شرفاته قطع السحاب ، وحتى غض من بنيان كسرى وقيصر ، وأشار الى مياهه الثرة ، ورياضه الفيح ، كما أشار الى همة المتوكل في بناء هذا القصر وحماسته له ، فقال :

---

(١٦٨) معجم البلدان ٢/١٤٣ • وردت هذه الكلمة بالحاء المهملة ، ولا معنى لها هنا ، والصواب : تستوخم بالخاء المعجمة • وبلدة وخمة ووخيمة : اذا لم توافق ساكنها ، وقد استوخمها •

قد تم حسنُ الجعفري ، ولم يكن ... ليتمَّ الاّ بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار أنشئت ... في خير مَبدى للانام ومحضر
في رأس مُشْرفةٍ ، حصاها لؤلؤ ... وترابها مسك ، يُشاب بعنبر
مخضرّةٌ ، والغيثُ ليس بساكب ... ومضيئةٌ والليل ليس بمقمر
ظهرت لمخترق الشَّمال وجاورت ... ظُلَلَ الغمام الصائب المستغزر
تقديرُ لطفك واختيارُك أغنيا ... عن كل مختار لها ، ومقدِّر
وسخاءُ نفسك بالذي بَخلت به ... أيدي الملوك من التلاد الاوفر
وعلوُ همتك التي دلت على ... صغر الكبير ، وقلة المستكثر
فرفعتَ بنياناً كأن مناره ... أعلام رضوى ، أو شواهق صنبر
أزرى على همم الملوك ، وغض من ... بنيان كسرى في الزمان وقيصر
عالٍ على لحظ العيون ، كأنما ... ينظرن منه الى بياض المشترى
بانيه باني المكرمات ، وربه ... رب الاخاشب والصفا والمشعر
ملأت جوانبه الفضاء وعانقت ... شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ، ففناؤه ... من لجة غَمْر ، وروض أخضر
شجرٌ تلاعبه الرياح ، وتنثني ... أعطافه في سائح متفجر
فاسلم أميرَ المؤمنين مُسربلاً ... سربال منصور اليدين مظفر
واستأنف العمر الجديد ببهجة الـ ... ـقصر الجديد ، وحسنه المتخير
أعطيته محض الهوى وخصصته ... بصفاء ودّ منك ، غير مكدَّر
واسم شققت له من اسمك فاكتسى ... شرف العلو به ، وفضل المفخر
خَفَتَ الغبار ، وقد غدوت تريده ... وسرى الغمام بوابل متفجر
وتحلت الدنيا بأحسن حَلْيها ... وبدت بوجه ضاحك مستبشر
قد جئته فنزلت أَيمن منزلٍ ... وأممته ، فرأيت أحسن منظر
فاعمرهُ بالعمر الطويل ، ونعمةٍ ... تبقى بشاشتُها بقاء الاعصر (١٦٩)

---

(١٦٩) ديوان البحتري ١/٤٠ ـ ٤٢ .

ونعته في موضع آخر بالبناء العجيب ، والمنزل الانيس ، كما أشار الى ما يكتنفه من الرياض والزهور ، والى اختياره دارا للملك ، ومقرا للخلافة فقال :

أصبحت بهجة النعيم ، وأمست
بين قصر الصبيح والجعفرى

في البناء العجيب ، والمنزل الآ
نس ، والمنظر الجميل البهي

ورياض تصبو النفوس اليها
وتُحيّيا بنَورهن الجنّي

دار ملك مختارة لامام
أحرزت كفه تراث النبى(١٧٠)

وقال ايضاً من قصيدة له يمدح بها المتوكل ، واشار الى أحد قصوره ، ولم يسمه ولعله كان يريد به القصر الجعفري المذكور :

وأرى قصرك استبد مع الحـ
ـسن بفضلٍ ما أعطيته القصور

رقّ فيه الهواء ، واطرّد الـ
ـماء فساحت في ضفتيه البحور

طالعتك السعود فيه وتمت
لك فينا النعمى ودام السرور(١٧١)

---

(١٧٠) ديوان البحتري ٦٨/٢
(١٧١) المصدر السابق ص٩٠٣ طبعة الصيرفي ، وانظر ص٩٠١ من المصدر نفسه .

وظاهر ان الشاعر قد رسم صورة واضحة لهذا القصر العظيم • بيد أنه لم يتغلغل في داخله ، ليصور ما كان فيه من ضروب الفنون • وانما اكتفى بالوصف الظاهري له ، شأنه في اكثر اوصافه !

ويبدو أن البحتري لم يلتزم بوحدة الوصف ـ اذا صح التعبير ـ وانما كان يطعم وصفه بشيء من المديح للخليفة ، الامر الذي يفقد الوصف ـ كما نظن ـ بعض اتساقه وروعته •

وقد كرر الشاعر ـ في المثال الاول ـ أكثر من مرة ، القول بان هذا القصر كان شامخاً ذاهباً في اجواز الفضاء ! ولكن البحتري مع كل ذلك ، كان متمكناً من الوصف ، موفقاً في اجتباء اللفظ ، بارعاً في الخيال ، ماهراً في التصوير !

ولم يقتصر وصف البحتري لقصور سامراء في حالة عزها ومجدها ، وانما أمتد اليها في حالة خرابها ودمارها ، فهو بحكم مكوثه في ربوع سامراء واقامته بين أكناف خلفائها ، كان خليقا بـه أن يصور ما ينتاب تلك المدينة وقصورها من ازدهار وتقدم ، وما تتعرض لـه من نكبات وويلات • فوصف لنا ما أصاب القصر الجعفري بعد مقتل المتوكل وانتقال ولده المنتصر الى سامراء من تقوض واندراس وما آل اليه من الخراب والاندثار ، بعد ان كان مقر الخلافة وموئل الملك فقال :

محل على القاطول أخلق دائره
وعادت صروفُ الدهر جيشاً تغاوره

كأن الصَّبا توفى نذوراً اذا انبرت
تُراوحه أذيالها ، وتباكره

وربّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهدُه
ترقّ حواشيه ويورق ناضره

تغيَّـر حسـن الجعفري وأُنسـه
وقُوِّض بادي الجعفري وحاضره

تحملَ عنـه سـاكنوه فُجـاءه
فعـادت سـواءً دوره ومقابـره

اذا نحن زرناه أجد لنا الاسـى
وقد كان قبل اليوم يُبْهَجُ زائره

ولم أنس وحش القصر اذ ريع سربه
واذْ ذُعرت اطـلاؤه وجـآذره

واذْ صيح فيـه بالرحيل فهتكت
على عجـل اسـتاره وسـتائره

ووحشـته حتى كأن لم يُقم بـه
أنيسٌ ، ولم تحسن لعين مناظره

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقـة
بشاشتها ، والملك يُشرق زاهره

ولم تجمع الدنيا اليه بهاءهـا
وبهجتها ، والعيش غض مكاسره

فأين الحجاب الصعب ، حين تمنعت
بهيبتهـا أبوابـه ، ومقاصـره

وأين عميد الناس في كل نوبـة
تنوب، وناهى الدهر فيهم وآمره(١٧٢)

---

(١٧٢) ديوان البحتري ٥٤/١ .

والبحتري في قصيدته هذه ، صادق العاطفة فياض الشعور ، لانه يصف داراً كان يرتادها ، وله فيها ذكريات كثيرة ، بل أنه كان حاضراً فيها ساعة مقتل صاحبها ، وولي نعمته المتوكل ! ولعل الشاعر كان موفقاً في اختيار وزن القصيدة وقافيتها ، اذا اجتبى من البحور الطويل ، ومن القوافي الراء المنتهية بالهاء الساكنة ، ولا يخفى ما في ذلك من دلالة الحزن وشدة التأثير ، ومن هنا نجد ان وصفه لهذه الدار وما اصابها وصفٌ حيٌ مؤثر ، حتى لكننا نرى ما حل بها ماثلاً أمام نواظرنا •

وألمح البحتري في أبيات اخرى له الى حريق حل بأحد قصور المتوكل الذي كان في حوزة ابنه وولى عهده المعتز • بيد انه لم يفصح لنا عن اسم هذا القصر ، كما لم يتناول بالتفصيل ما حل به ، وانما اكتفى بالاشارة الخاطفة الى ذلك ، ويبدو من فحوى أبياته انه فعل ذلك تخفيفاً للامر ، وتسرية للهم الذي استحوذ على الخليفة وابنه ، ولهذا فقد اكثر في هذه الابيات من الدعاء للمتوكل والثناء عليه ، كما حاول ان يتخذ من هذا الحريق ، أمارة فأل حسنة ، لامتداد الخلافة ، وعز السلطان ، فقال :

مَنٌّ من الله مشكور واحسان
ونعمة كفرها ظلم وعدوان

يبني ويعمر ما يبنيه من أَمَمٍ
فالارض دار له ، والناس عبدان

ما كان قدر حريق ان نبيت له
وكلنا قلق الأحشاء حرّان

بل ما ألوم شفيقاً ان يداخله
وجد لذلك ، والانسان انسان

وربما جلب المكروه عافية
ترجى ، وأُردف بعد السوء إحسان

لا تنتقصْ لولي العهد أبهـــةً
ولا يكن منـــه للايام أذعـــان

تفـــاءل الناس واشـــتدت ظنونهم
والفأل فيه لبعض الامر تبيـــان

وأيقنــوا أن تنويـــر الحريق هو الـ
ـــدنيا يملّكها ، والنـــار سـلطان(*)

الجعفري المحدث : أشار الطبري في حوادث ســـنة ٢٤٨هـ الى ان المنتصر أظهر خلع أخيه : المعتز والمؤيد في القصر الجعفري المحدث(١٧٣)، كما أشار الى أن وفاة المنتصر كانت بسامراء بالقصر المحدث المذكور(١٧٤) • وأشار ياقوت الى ان من جملة قصور المتوكل قصرا يســمى « الجعفري المحدث » بلغت النفقة عليه عشرة الآف الف درهم(١٧٥) •

والمظنون ان هذا « الجعفري المحدث » كان في سامراء ، وان المتوكل قد ابتناه قبل أن يبتني قصره الجعفري المشهور في مدينتــه المتوكلية ، ومما يرجح هذا الظن اشارة الطبري السابقة اليه ، اذ المعروف أن المنتصر بعــد استخلافه لم يمكث في المتوكلية الا بضعة ايام عاد بعدها الى سامراء وهجر مدينة والده الجديدة(١٧٦) ، كما أنه خلع أخويه : المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعد مضي أربعين يوما من استخلافه(١٧٧) • هذا من جهــة ومن جهة أخرى قصيدة البحترى التي نظمها في المتوكل عند انصرافه من دمشق فقد أشار الى هذا القصر ، كما اشار الى مدينة ســامراء نفســها •

(*) ديوان البحتري ٢٢٥٦/٤ ـ ٢٢٥٧ طبعة الصيرفي •
(١٧٣) أنظر تاريخ الطبري ٧٥/١١ •
(١٧٤) أنظر المصدر السابق ٨١/١١ •
(١٧٥) أنظر معجم البلدان ١٧٥/٣ •
(١٧٦) أنظر تاريخ الطبري ٦٩/١١ •
(١٧٧) المصدر السابق ٥٧/١١ ـ ٧٦ •

ونحن نعلم أن سفر المتوكل الى دمشق كان في سنة ٢٤٣هـ(١٧٨) ، وأنه لم يمكث فيها الا مدة قصيرة ، رجع بعدها الى سامراء لاسباب سياسية واقتصادية معروفة(١٧٩) ، وان بناء الجعفري في المتوكلية كان في سنة ٢٤٥هـ(١٨٠) وليس من المعقول أن يشير البحتري في أبياته هذه الى قصر لم تكن فكرة انشائه قد اختمرت في ذهن المتوكل بعد .

اما ابيات البحتري التي أشار فيها الى هذا القصر ، والى ما كان عليه من طيب المكان ورقة الليل ، وبرد الضحى ، واعتدال الأصيل ، فهي :

وقد لبست بغداد أحسن زيها
لاقباله ، واستشرفت لعدوله
ويثنيه منها شوقه ونزاعه
الى عرض صحن «الجعفري» وطوله
الى منزل فيه أحباؤه الألى
لقاؤهم أقصى مناه وسوله
محل يطيب العيشَ رقة ليله
وبردُ ضحاه ، واعتدال أصيله
لعمري لقد آب الخليفة جعفر
وفي كل نفس حاجة من قفوله
دعاه الهوى من سرّ من راء فانكفا
اليها انكفاء الليث تلقاء غيله

(١٧٨) أنظر تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٤ ، تاريخ الطبري ١١/٥٥ ومروج الذهب ٤/١١٤ والنجوم الزاهرة ٢/٣١٤ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٤٨ .

(١٧٩) أنظر أول الفصل الرابع من هذا البحث .

(١٨٠) معجم البلدان ٢-١٤٣ و ٢٦٠ من البحث .

على انها قد كان بدّل طيبهـا
ورُحّـلَ عنهـا أنسها برحيله

وافراطها في القبح عند خروجه
كافراطها في الحسن، عند دخوله(١٨٢)

مدينة المتوكليـة :

ومن أعمال المتوكل العمرانية بناؤه مدينة له شمال سامراء ، مدينـة والده المعتصم ، وقد اختلفت المصادر القديمة في اسم هـذه المدينة ، فقيل « الماحـوزة »(١٨٣) « والماخـورة »(١٨٤) « والجعفريـة »(١٨٥) « والمتوكلية »(١٨٦) .

واما بدء البناء في هذه المدينة فكان في سنة ٢٤٥هـ حيث أمر المتوكل المهندسين أن يختاروا موضعا لها ، فوقع اختيارهم على موضع يقال لـه الماحوزة ، وهو الموضع الذي قيل ان المعتصم حاول ان يبني مدينة فيـه . فأمر المتوكل بحفر نهر يتوسط مدينته الجديدة وألقى في حفر هـذا النهر أثنى عشر ألف عامل ، ومدّ الشارع الاعظم من دار اشناس التي بالكرخ والتي صارت اخيرا الى الفتح بن خاقان ـ الى قصور مدينته هذه ، وجعل

---

(١٨٢) ديوان البحتري ١/٥٠ـ٥١ .

(١٨٣) أنظر : تاريخ الطبري ١١/٥٦ـ٧٢ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٥/٢٩٨ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ .

(١٨٤) أنظر مروج الذهب ٤/١٣٠ .

(١٨٥) أنظر كتاب البلدان ص٣١ وتاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٤ والتنبيه والاشراف للمسعودي ص٣١٣ وتجارب الامم لمسكويه ٦/٥٥٢ .

(١٨٦) أنظر فتوح البلدان للبلاذرى ص٣٦٤ وتاريخ الطبـري ١١/٥٦ ومعجم البلدان ٥/٥٣ و ٣/١٧٥ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٥ـ٢٩٨ ونهاية الارب للنويري ١/٤٠٦ .

دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ، واقطع ولاة عهوده وابناءه وقواده وسائر الناس ، فشيدت القصور وبنيت الدور ، وكان المتوكل يدور بنفسه فمن رآه قد جد في البناء أجازه وأعطاه فجد الناس في ذلك وارتفع البناء في اقل من سنة • وبنى المتوكل فيها مسجدا جعل له مئذنة « ملوية » على غرار مئذنة مسجده الجامع في سامراء ، ثم انتقل اليها بعد أن تكامل بناؤها في أول يوم من المحرم سنة ست وأربعين ومائتين ونقل اليها دواوين ملكه حتى أثر ذلك في سامراء تأثيرا سيئاً ولكنه لم يمكث في مدينته الجديدة هذه الا بضعة أشهر حتى قتل من قبل الاتراك في قصره المعروف بالجعفري وذلك في سنة سبع واربعين ومائتين •

وحين ولى ابنه المنتصر الخلافة بعده ـ أمر بالانتقال الى سامراء ، كما أمر الناس بهجر المتوكلية ونقض قصورها ، وحمل الانقاض الى سامراء : فخربت المتوكليـة وتقوضت وأصبحت قصورها أطلالاً وعمائرهـا آكامـاً توحش الناظر اليها ، وتبعث فيه الحزن والاسى(١٨٧) •

ولم يتخلف الشعر عن صنوه النثر ، في اطراء هذه المدينة والاشادة بها وكان فارس هذا الميدان الذي لا يشق له غبار ـ الشـــاعر البحتري بالطبع ، فقد أشار الى اكتمال محاسن المتوكلية والى لمعان قصورها الشامخة، وبرها الواسع ذي الازهار والاوراد فقال :

أرى المتوكليـــة قـــد تعـــالتْ
محاســـنها ، وأكملت التمامـــا

---

(١٨٧) أنظر كتاب البلدان ص٣٠ وما بعدها وتاريخ اليعقوبـــي ٣/٢٢٤ ـ ٢٢٦ وفتـوح البلدان ص٣٦٤ وتـاريخ الطبري ١١/٥٦ـ٦٠ ومعجم البلدان ٢/١٤٣ وغيرها من المراجع •

قصـــور كالكواكب لامعـــــات
يكـدْن يُضئن للســاري الظلامـا
وبرٌّ مثلُ بُرْدِ الوشــي فيـه
جنى الحَــوْذان يُنشر والخزامى
اذا بـــرز الربيع لـــه كســته
غوادى المزن ، والريح النعامــى
غرائب من فنـون النبت فيهـــا
جنى الزهـــر الفرادى والتؤامـــا
تضاحكهـا الضحى طـوراً وطوراً
عليهــا الغيث ينسجم انســجاما(١٨٨)

وأشار في موضع آخر الى لطافة مناخها ، ورقة نسـيمها ، واتســاع فنائها وكثرة مائها كما أشار الى المسجد الفسيح الذي بناه المتوكل فيهـا فقـــال :

يهنيـــك في المتوكليـة أنهـــا
حسن المصيف بهـا وطاب المربع
فيحـاءُ مشــرقةٌ يرق نســيمُها
ميث تُدرِّجها الريـاح وأجـرع
وفســيحه الاكناف ضاعف حسنها
برٌّ لهـا مفضى ، وبحر متـــرع

---

(١٨٨) ديوان البحتري ١/٣٩ • النعامى : ريح الجنوب •

قد سُرَّ فيها الاولياء ، اذ التقــوا
بفناء منبرها الجديد ، فجمعوا[189]

قصور المعتز : سار المعتز على السنن الذي نهجه والده المتوكل في ابتناء القصور وتشييد العمائر ، فبنى لنفسه قصورا عظيمة ، ذات روائــع وبدائع ، تفنن في انشائها وأبدع في تزيينها ، وكان لوالدته قبيحة أثــر لا يجحد في هذا المضمار[190] .

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض المصادر قد نسبت الى المعتز بعض قصور والده المتوكل ، من ذلك قصر الغــرد الذي بنــاه المتوكل ووصفه البحتري وصفا رائعا في قصيدة له يمدح بها المعتز ايام خلافته ، وهـــذا القصر وغيره بلا شك قد انتقل في جملة ما انتقل الى المعتز بعد الاستخلاف وقد أشرنا اليه عند الكلام على قصور المتوكل[191] وعلى هذا فســـوف لا نسلكه في جملة قصور المعتز التي سنتحدث عنها الآن ، والتي من أهمها قصرا « الكامل والساج » أو الدكة .

الكامل : من الغريب حقاً أن تغفل كتب التاريخ والجغرافية والادب هذا القصر فلا تتحدث عنه أو تشير الى ما فيه من عجائب وغرائب ، أشار اليها الشعراء فيما وصفوه به من شعر ، وكل ما جاء فيهــا عنه لمحـــات خاطفة ، لا ترسم للقارىء صورة واضحة عنه . من ذلك ما رواه الصولى في كتابه أخبار البحتري ، قال :

« حدثني أبو الغوث قال : حدثني أبي قال : لما بنى المعتز الكامل دخلت عليه فأنشدته :

لو كان يُعتب هاجــر في واصل   أو يســـتقاد لمغـرم من ذاهـــل

---

(١٨٩) ديوان البحتري ٤٣/١ .
(١٩٠) أنظر ص٢١٧ من هذا البحث .
(١٩١) أنظر ص ٢٤٨ـ٢٤٩ من هذا البحث .

حتى أتيت على آخرها ، فقال لي : يا وليد ما أنشدتني قط الا اطربتني ولا رأيتك الا سررت للمُلك ببقائك ، فقبلت الارض وقلت : عبدكم الذي أعتقتموه وسائلكم الذي أغنيتموه[١٩٢] ومن ذلك ما أشار به ياقوت عند ترجمته لعلي بن يحى المنجم قال : « وقلده المعتز القصر الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة الآف دينار واقطعه ضيعة »[١٩٣] هذا كل ما حدثتنا عنه المراجع القديمة .

اما الشعر فكان على النقيض من ذلك ، فقد وصف لنا البحتري هذا القصر وصفا دقيقاً شاملا ، ولولا وصفه له لجهلنا أمره جهلا تاما . فبين أنه كان شامخا هائلا ، ذاهبا في السماء ، وكانت جدرانه مصنوعة من الزجاج وسقوفه مطلية بالذهب ، وأرضه مبلطة بالرخام ، وكانت دجلة ترفده بالماء ، كما كان له بستان فينان ، ذو أشجار مثمرة وأخرى غير مثمرة فقال :

لما كَمَلتَ رويةً وعزيمة
أعملت رأيك في ابتناء الكامل
وغدوتَ من بين الملوك مُوفقاً
منه لأيمن حِيلةٍ ومنازل
ذُعِرَ الحمامُ وقد ترنمَ فوقه
من منظر خطِرِ المزلة هائل
رُفعتْ لمخترق الرياح سموكه
وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج ، بجّوه
لجج يمجن على جُنوب سواحل

---

(١٩٢) أخبار البحتري للصولي ص١٠٦ـ١٠٧ .
(١٩٣) معجم الادباء ١٥/١٧٣ .

وكأن تفويف الرخام ، اذا التقى
تأليفـه بالمنظـــــر المتقـــابل

حُبُكُ الغمـام ، رُصفن بين مُنَمّـر
ومسيّـــر ومقـارب ومشـاكل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نـوراً يُضيء على الظلام الحافل

فترى العيون يجلن في ذي رونق
متلهب العـالي أنيـق السـافل

وكأنما نُشـرتْ عـلى بسـتانه
سـيراءُ وشـي اليُمنـة المتواصـل

أغنتـه دجلـة اذ تلاحق فيضـها
عن صوب مُنسجم الرباب الهاطل

وتنفسـت فيـه الصـبا فتعطفت
أشـجاره من حُـوّل وحوامـل

مشـيَ العذارى الغيد رحن عشيةً
من بين حاليـة اليدين وعـاطل

والخير يُجمَعُ والنشاط لمجلسٍ
عالى المحل ، من السـماحة ، آهل

وافيتـه والوردَ في وقتٍ معـاً
ونزلتَ فيـه مع الربيع النـازل

وغـدا بنوروز عليـك مُـارك
تحويـلُ عـامٍ أثـر عام حائل

مُليته ، وعَمرتَ في بحبوحة
من دار ملكك، الف حول كامل[١٩٤]

وغير خاف ما في هذه الابيات من لطف الخيال وروعة التشبيه ، وبراعة التصوير وجمال الفن ، وموسيقى الالفاظ ، وبخاصة وصفه لحيطان القصر ورخامه وسقوفه ، وهي خصائص اشتهر بها شاعرنا البحتري في أوصافه لقصور هذه المدينة ومعالمها الأخرى . بل ان مكنة الشاعر الفنية في الوصف جعلتنا نستسيغ حتى المبالغة التي يجنح اليها احيانا والتي يمليها الخيال عادة ..

والبحتري في هذه القصيدة قد التزم بوحدة الوصف ، ولم يطعمه بشيء من المديح كما فعل في غير هذا المكان . كما انه لم يكتف بالوصف الظاهري للقصر ، وانما حاول أن يصور ما كان في داخله ايضاً .

وللبحتري أبيات أخرى يصف بها قصراً للمعتز لم يذكر أسمه ، وانما أسماه البناء الجديد والذي يخيل الينا انه يصف بها الكامل نفسه ، اذ هناك اشارات تدل على ذلك منها : أنه يصفه بالفخامة والعلو ، وأنه مبني فوق صرح ممرد من قوارير « زجاج » وانه رغيب التأليف والتمريد وانه نزله في وقت الربيع ، وهذه الاوصاف ذكرها كما مر بنا في وصفه للكامل، وعلى الرغم من أن وصف القصر بالفخامة والعلو أمر طبيعي لدى الشعراء وخاصة في أوصافهم لقصور سامراء ، الا ان هذه الاشارات في وصف هذا القصر تقرب كثيرا من أوصاف القصر « الكامل » قال البحتري :

بارك الله للخليفة في الفتـ ح الجنوبي ، والبناء الجديد
خبر مبهج وبنيان يُمْنٍ في منيفٍ ، عند السماك ، مشيد
فوق صرح ممرّد من قواريـ ـر ، غريف التأليف والتمريد

---

(١٩٤) ديوان ١/١٤٩ـ١٥٠ .

لو بدا حسنه لجن سليما ن لخروا من رُكّع وسجود
قد عددنا اليوم الذي جئته فيـ ـه ، لافراط حسنه ، يوم عيد
زرته تلو غرة الشهر بالطيـ ـر الميامين والنجوم السعود
في زمان كأن نرجسه الغض سموط من لؤلؤ وفريد
بين نور من الربيع يحييـ لك ، وعهد من الشتاء حميد(١٩٥)

الساج : وهو قصر آخر من قصور المعتز ، لم تذكر عنه المصادر القديمة ما يكفي لاعطاء فكرة واضحة عنه ، ولولا وصف البحتري له لما عرفنا الشيء الكثير من أمره وترى بعض الدراسات الحديثة ، ان اطلال قصر « الدكة » الماثلة في الحدود الشمالية الغربية لساحة الحير هي بقايا « قصر الساج » المذكور مسترشدة بما في ابيات البحتري في وصف هذا القصر من دلائل واشارات • وذكرت هذه الدراسات ان للقصر بركة مدورة كانت تستمد مياهها من جدول خاص ، كما كانت له ساحة امامية فسيحة جدا(١٩٦) • أما البحتري فأشار الى بستان هذا القصر وما كان فيه من صنوف الازهار والاوراد ، وما اشتمل عليه من الاشجار المزهرة والمثمرة والمورقة ، كما اشار الى أنه كان مبنيا داخل قلعة بيضاء كبيرة تكتنفها المياه ،

---

(١٩٥) ديوان البحتري ١٠٨/١ وأنظر في الادب العباسي للدكتور مهدي البصير وهو يرى ان البحتري يصف في هذه الابيات قصرا آخر غير الكامل ص٢٦٢ ومما يجدر ذكره أن شارح ديوان البحتري أشار في تعليقه على هذه الابيات بقوله « لعله يشير هنا الى القضاء على فتنة الطالبي ثم الى « الزو » الذي وصفه في الابيات ١٤ــ١٦ من القصيدة ٤١٥ • وهو نوع من السفن عظيم يبنى فيه قصر » ديوان البحتري ص٧٢٩ وص ١٠٥٣ طبعة الصيرفي • ومما تنبغي الاشارة اليه اننا ــ حين نقرأ أبيات البحتري في هذه السفينة والتي أشار اليها الشارح لا نجد فيها ما يطابق أو يقارب ما في هذه الابيات ، بل أن هذه الاوصاف قريبة الشبه بما ذكره البحتري في القصر (الكامل) أنظر أبيات البحتري التي أشار اليها الشارح في (الزو) ص ١٦٦ من هذا البحث •

(١٩٦) أنظر رى سامراء للدكتور أحمد سوسه ١٢٢/١ •

وانه كان على مسافة من سامراء ، ولكنها غير بعيدة ، كما أشار الى جدول كان يربط بينه وبين قصر الجعفرى ، وأقترح أخيرا على المعتز ان يمد هذا الجدول ويوصله بقصر البديع فقال :

وأرى البسـاط وفي رغائب نبتـه
الوانُ وردٍ ، في الغصون مفتق
شـجر عـلى خُضَر ترف غصـونه
من مُزهـر ، أو مثمـر ، أو مـورق
وكأن قصـر الساج خُلةُ عاشـق
برزت لوامقهـا بوجـه مُونق
قصـر ، تكامل حسـنه في قلعـة
بيضـاء ، واسـطةٍ لبحر مُحدق
قدرّتـه تقديـر غـير مفرطٍ
وبنيتـه بنيـان غـير مشـفّق
ووصـلت بين الجعفـرى وبينـه
بالنهـر يحمل من جنوب الخندق
نهـر ، كأن المـاء في حَجَراتـه
افرند متـن الصـارم المتـألق
فاذا الريـاح لعِبن فيه بسـطن مـن
موجٍ عليـه مُـدرّج ، مترقرق
الحقـه ، يا خير الورى بمسـيره
وامـدد فضـول عُبابه المتدفـق
فاذا بلغت بـه البديـع ، فانما
أنزلت دجلة في فناء الجوسق(١٩٧)

(١٩٧) ديوان البحتري ٢/٢٥٤ .

قصور المعتمد :

كان المعتمد كأبيه المتوكل وأخيه المعتز مفتونا بالعمارة ، مشغوفا بالبناء فشيد عدداً من القصور الجليلة الفخمة ، حفظت لنا المراجع اسماء بعضها ، كما لا تزال اطلال قسم منها شاخصة الى اليوم ، تدل على ما كانت عليه من العظمة والضخامة أما هذه القصور فهي :

المشوق : لم تشر اليه المصادر القديمة ، ولولا ذكر البحتري له عند وصفه لقصر المعشوق لجهلنا أمره جهلاً تاماً . ويبدو من قول البحتري ان المعتمد قد أنشأ هذا القصر قبل انشائه قصر المعشوق ، قال البحتري :

لم أر كالمعشوق قصراً بدا
لاعين الرائين ، غير المشوق
هذاك قد برّز في حسنه
سبقاً ، وهذا مُسرع في اللحوق[١٩٨]

الاحمدي : سمّي هذا القصر بأسم الخليفة نفسه ، وجاء ذكره في كثير من المراجع ، فقال ياقوت « وعمرّ (أي المعتمد) قصرا آخر يقال له الاحمدي وقد خرب »[١٩٩] .

وأشار اليه ابن عبدالحق في المراصد فقال : « الاحمدي : قصر كان بسامراء عمّره أحمد المعتمد على الله »[٢٠٠] . وورد ذكره في شعر عبدالله ابن المعتز ، وذلك حيث يقول :

والاحمديّ اليه منتسب من قبل والمعشوق يعشقه[٢٠١]

---

(١٩٨) معجم البلدان ٥/١٥٦ .
(١٩٩) معجم البلدان ٥/١٥٦ .
(٢٠٠) المصدر السابق ١/١٨٤ .
(٢٠١) مراصد الاطلاع ص١٦ .

وأشار اليه الصولي في كتاب الوزراء في اثناء حديثه عن زيارة المكتفى لسامراء فقال : « وسار المكتفى بالله والعباس بن الحسن وأبو الحسن بن الفرات وانا في الصحبة (أي عبدالله زنجي راوي هذا الخبر) ووصلنا الى الاحمدي »(٢٠٢) وكتب بعض الادباء على أحد جدران هذا القصر ، بعد أن خرب البيتين الآتيين :

في الاحمدي لمن يأتيه معتبر
لم يبق من حسنه عين ولا أثر

غارت كواكبه ، وانهد جانبه
ومات صاحبه ، واستقطع الخبر(٢٠٣)

المعشوق :

وهو من أعظم قصور المعتمد وأضخمها بناه في أواخر أيام حكمه في سامراء في الجانب الغربي من دجلة • ويعرف هذا القصر الآن بين الناس باسم العاشق ، وما تزال اطلاله وآثاره شاخصة الى اليوم : وقد أشاد به كثير من المؤرخين القدامى فقال فيه اليعقوبي « وولى أحمد المعتمد بن المتوكل فأقام بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ، ثم أنتقل الى الجانب الغربي بسر من رأى ، فبنى قصرا موصوفا بالحسن سماه المعشوق ، فنزله فأقام به حتى أضطربت الامور فانتقل الى بغداد(٢٠٤) •

وقال ياقوت « المعشوق » اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية ، باق الى الآن ليس حوله شيء من العمران ، يسكنه قوم من الفلاحين الا انه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان من القصور غيره وبينه وبين تكريت مرحلة ، وعمّره

---

(٢٠٢) كتاب الوزراء ص٢٥٠ •
(٢٠٣) مأثر الكبراء في تاريخ سامراء للشيخ ذبيح الله ١/٤٦ـ٤٧ •
(٢٠٤) كتاب البلدان ص٣٢ •

المعتمد[٢٠٥] واختلفت الروايات في اسم الشخص الذي ندبه المعتمد للقيام ببناء هذا القصر فأشار الصابي في كتاب الوزراء الى ان الذى قام بهذا الامر هو محمد بن عبدالله بن خاقان ، قال في معرض ترجمته له ما نصه « أبو علي محمد بن عبدالله بن يحيى بن خاقان ، كان أكبر ولد أبيه ، وتقلد بعد وفاته ديوان زمام الخراج والضياع السلطانية في وزارة الحسن بن مخلد ، فلما صرف الحسن وتقلد سليمان بن وهب ، قلده نفقات ابنية المعتمد على الله بالمعشوق في الجانب الغربي الذي بسر من رأى »[٢٠٦] في حين ذكر ياقوت أن الذي ندب لهذا الامر هو علي بن يحيى المنجم ، فقال في ترجمته له « ووصله (أي المعتمد) وقلّده ما كان يتقلد من أعمال الحضرة ، وقلده بناء المعشوق فبنى له أكثره »[٢٠٧] .

ويبدو أن بناء المعتمد لقصره هذا في منطقة نائية ، كان مدعاة لحمل البعض على التماس عذر أو سبب لذلك ، فقد أشار بعضهم الى ان الخليفة المعتمد قد تزوج بأمرأة أعرابية بدوية من نجد ، وكان كثير الشغف بها ، شديد الميل اليها ، غير انها كانت تبدو على الدوام كئيبة حزينة ، وحين سألها المعتمد عن بواعث هذا الحزن والكآبة على الرغم مما هي فيه من بحبوحة العيش ، وغضارة الحياة ، أجابته بأن كل ما هيء ، لها من أسباب الراحة والنعيم لا يساوي ما كانت تألفه في بيتها البسيط من الشعر ، وما تسمعه من أصوات الغنم ورغاء الابل الى غير ذلك مما تراه وتشهده في حياة البادية الساذجة . فعجب المعتمد منها ، وعزم على ابتناء قصر لها في غربي دجلة ، وفي منطقة نائية ، سماه « معشوقا » وأمر أصحاب البادية أن يرسلوا اغنامهم وجمالهم حول القصر ، فما كادت الاعرابية ترى ذلك حتى تذكرت أهلها وحنت الى مهدها ، فأجهشت بالبكاء وأنشأت تقول :

---

(٢٠٥) كتاب الوزراء ص ٢٨٤ .
(٢٠٦) معجم البلدان ٥/١٥٦ .
(٢٠٧) معجم الادباء ١٥/١٧٤ .

وما ذنب أعرابية قذفت بها
صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنت احاليب الرعاة وخيمة
بنجد فلا يقضى لها ما تمنت
اذا ذكرت ماء العذيب وطيبه
وبرد حصاه آخر الليل أنت
لها أنة عند العشاء وأنة
سحيراً ، ولولا أنتاه لجنت

فلما سمع المعتمد أبياتها ، رقّ لها ، فأرسلها الى أهلها في البادية ، ولم يقطع علاقته بها(٢٠٨) • وظاهر ان هذه القصة التي قد صيغت على شكل أسطورة لا تقوم على أساس من الصحة • اذ لم تشر المراجع التي ترجمت للمعتمد على أنه تزوج أعرابية من هذا النوع أو غيره • كما ان هذه الابيات قد وردت في مصادر أخرى منسوبة الى أحد الاعراب(٢٠٩) • وأشارت بعض المراجع الى ان كلاً من الواثق واسحاق الموصلي قد صنع في هذه الابيات الحانا وغناها(٢١٠) • ويبدو أن قصص الاعراب في هذه المدينة ، قد أكثر الناس من صنعها ونسبتها اليهم ، وقد مرّ بنا مثل ذلك عند الكلام على من تردد على هذه المدينة من أولئك الاعراب •

أما الدراسات الحديثة المستقاة من أعمال الحفر والتنقيب ، فقد اشارت الى أن هذا القصر مستطيل الشكل ، وذو ساحة فسيحة مسورة ، كما ان هناك خندقا واسعا يحيط بالقصر كله ، يستمد مياهه من قناة جوفية •

---

(٢٠٨) انظر محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لمحيي الدين بن العربي ٢/٣١ ، ومآثر الكبراء في تاريخ سامراء ٢/٢ •
(٢٠٩) أنظر الاغاني ٨/١٦٠ وزهر الاداب ص١٠٠١ ومعجم الادباء ٦/٤١-٤٢ •
(٢١٠) أنظر الاغاني ٨/١٦٠ •

وشارك الشعر في ذكر هذا القصر ووصفه ، فقال البحتري :

لا زال معشوقك يسقى الحيا
من كل دانى المُزن واهى الخروق
فما خلونا مذ رأيناه من
فتح جديد ، وزمان أنيق
أشرفَ نظّارا الى ملتقى
دجلةَ ، يلقاها بوجه طليق
وطالعَ الشمس ، على موعد
بمثل ضوء الشمس عند الشروق
لم أر كالمعشوق قصراً بدا
لأعين الرائين ، غيرَ المشوق
هذاك قد برّز في حسنه
سبقاً ، وهذا مسرع في اللحوق(٢١١)

وقال ابن المعتز :

بدر تنقل في منازله
سعد يصبحه ويطرقه
فرحت به دار الملوك فقد
كادت الى لقياه تسبقه
والاحمدي اليه منتسب
من قبل والمعشوق يعشقه(٢١٢)

---

(٢١١) ديوان البحتري ١/١٨٤ .

(٢١٢) معجم البلدان ٥/١٥٦ وانظر ديوان ابن المعتز ص١٤٨ ومما تجدر الاشارة اليه أن البيت الاخير غير مثبت في الديوان .

وقال أبو العنبس الصيمري يهجو طباخ المعتمد ، ويشير الى هـــذا القصر والى انه كان في بقعة نائية :

يـــا طيـــب أيامـــي بمعشـــوق
ونحن في بعـد عن الســـــوق

اذا طلبت الخبـــز مـن فـارس
ينفخ لـي صـالح فـي البوق[(٢١٣)]

قصور أخرى :

أشارت بعض المراجع القديمة الى قصور أخرى في سامراء لم تسـم بأنيها ولم تتحدث عنها بشيء من التفصيل . منها :

القصر الأحمر : أشار اليه الطبري في حـوادث سنة ٢٥٦هـ مرتين : الاولى عند كلامه على دخول موسى بن بغا الى سامراء في عهد المهتدى فقال :

« ذكر أن دخول موسى بن بغا سامراء بمن معه كان يوم الاثنين لاحـدى عشرة ليلة خلت من المحرم من هذه السنة ، فلما دخلها أخـذ في الحير وعبأ أصحابه ميمنة وميسرا وقلبا في السلاح ، حتى صار الى باب الحـير مما يلي الجوسق والقصر الاحمر وكان ذلك يوما جلس فيه المهتدى للناس للمظالم »[(٢١٤)] والثانية عند كلامه على مقتل صالح بن وصيف ، قال : ذكر أن سبب ذلك كان أن المهتدي لما كان يوم الاربعاء لثلاث بقين من المحـرم سنة ٢٥٦هـ ، أظهر كتابا ذكر ان سيما الشرابي زعم أن أمرأة جـاءت به مما يلي « القصر الاحمر » ودفعته الى كافور الخادم الموكل بالحرم وقالت له ان فيه نصيحه ...[(٢١٥)] .

---

(٢١٣) الفهرست لابن النديم ص٢٢٢ ومعجم الادباء ١٨/١٠ .
(٢١٤) تاريخ الطبري ١١/١٩١ .
(٢١٥) تاريخ الطبري ١١/١٩٣ وانظر رى سامراء ١/٧٧ .

قصر الصوامع :

أشار اليه الطبري في حوادث سنة ٢٥٥هـ ، فقال : دفن (اي المعتز) مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع[٢١٦] .

وهناك قصور أخرى لاتباع الخلفاء ووزرائهم ، اشارت اليها بعض المراجع القديمة منها :

قصر اشناس :

كان واقعاً في الموضع المعروف بالكرخ ، وانتقل أخيرا الى الفتح بن خاقان وزير المتوكل وخدينه[٢١٧] . ويبدو ان هذا القصر كان على جانب من الضخامة والفخامة ، ومن المرجح أن يكون البحتري أراد بأبياته التي يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف مقاصيره ، قصر أشناس المذكور ، وقد أشار فيها الى أنه يقع على نهر دجلة ، وأنه كان محفوفاً بالرياض الغن، كما ذكر أن شرفاته عالية ذاهبة في السماء ، وان قبابه كانت بيضاً ساطعة ، فقال :

تلفت من عُليا دمشق ، ودوننا
للبنان هضبٌ كالغمام المعلّق

الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعد ما
ذممت مقامي بين بُصرى وجلّق

الى معقليْ عزي وداريْ اقامتي
وقصدِ التفاتي بالهوى وتشوقي

مقاصيرُ ملك اقبلت بوجوهها
على منظر من عَرض دجلة مونق

---

(٢١٦) تاريخ الطبري ١٦٢/١١ ، وانظر الوافي بالوفيات للصفدي ٢٩٢/٢ .

(٢١٧) انظر ص٢٧٠ من هذا البحث .

كأن الرياض الحُو يكسين حولها
أفانين من أفواف وشى ملفق

اذا الريح هزت نَورهن تضوعت
روائحه من فار مسك مفتّق

كأن القباب البيض ، والشمس طلقة
تضاحكها ، انصاف بيض مفلّق

ومن شُرُفات في السماء ، كأنها
قوادمُ بيضان الحمام المحلّق

رباع من الفتح بن خاقان لم تزل
غنى لعديم ، أو فكاكاً لمرهق(٢١٨)

وممن أشار اليه كذلك من الشعراء ، عبدالله بن المعتز(٢١٩) .

بين قصور سامراء وايوان كسرى :

ويجمل بنا في اعقاب الكلام على قصور سامراء ان نشير الى وصف البحتري لايوان كسرى في قصيدته السينية الشهيرة ، التي ليس للعرب سينية مثلها ـ كما يقول ابن المعتز(٢٢٠) ، لانطوائها على كثير من الامور الفنية ، المتصلة بموسيقى الالفاظ وانتقائها من جهة ، وبداعة التصوير ، ولطف الخيال من جهة اخرى(٢٢١) ـ لعلنا نقف على شيء من أثر هذه المدينة وقصورها التي وصفها البحتري في سينيته هذه !

من المعلوم ان البحتري أنشأ هذه القصيدة بعد مقتل ولى نعمته المتوكل

(٢١٨) ديوان البحتري ١/٩١ .
(٢١٩) أنظر ص٢١ من هذا البحث .
(٢٢٠) اخبار البحتري ص٧٢ .
(٢٢١) انظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص٨٠ وما بعدها .

ـ بغض النظر عن السنة التي نظمها فيها ـ وخراب مدينته ، وقصره الجعفري ،وبعد أن لقى جفاء من قبل أحد خلفائها[٢٢٢] ، أو من بعض من كان يختلف اليهم من ممدوحيه[٢٢٣] • وقد أشار البحتري الى ذلك في الابيات الاولى من القصيدة فهذه القصيدة اذن ، وليدة ما مرّ بالشاعر من انفعالات نفسية في اعقاب مقتل ولي نعمته المتوكل في سامراء ، ومن ازورار بعض ممدوحيه عنه •

ويخيل الينا ان الدُربة الطويلة التي مارسها البحتري في وصف قصور هذه المدينة ومعالمها ، قد رشحت لقصيدته السينية في ايوان كسرى هذه ، ويخيل الينا كذلك ان البحتري قد استعان ببعض الصور والاوصاف التي وردت في قصائده الوصفية لقصور سامراء في تضمين بعض ابيات قصيدته هذه ، ولتبيان ذلك يحسن بنا ان نشير هنا الى شيء من ذلك • قال في وصف الجعفري بعد خرابه :

تحمل عنه ساكنوه فجاءة
فعادت سواء دوره ومقابره
ووحشته حتى كأن لم يقم به
أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة
بشاشتها ، والملك يشرق زاهره

وقال في السينية :

فكأن الجرماز من عدم الانـ
ـس واخلاله بنيّة رمس[٢٢٤]

(٢٢٢) أنظر : في الادب العباسي للدكتور مهدى البصير ص ٢٦٦ الطبعة الثانية •
(٢٢٣) أنظر : ديوان البحتري ١١٥٣/٢ هامش (٩) •
(٢٢٤) الجرماز : الايوان •

لو تــــراه علمت ان الليالــــي
جعلت فيــــه مأتمـــاً بعد عرس

وقال في وصف عدد من قصور سامراء :

حلل من منــازل الملك كالأنجـــ
ـــم يلمعن فــي ســواد الظـــلام
مفحمـــات تعيـــي الصفات فمـــا تد
رك الا بالظـــن والأوهـــــام
فكأنــــــا نحســــها في الأمانـــي
أو نراهـــــا في طارق الأحـــلام

ويقرب من هذا المعنى قولــه في السينية ، متعجباً مما رآه من براعــة التصــوير :

يغتلــــى فيهــم ارتيابــى حتـــــى
تتقـــرّاهمُ يـــــداى بلمـــس

وقال في وصف الجعفري :

فرفعت بنيانـــاً كـــأن منــــاره
أعلام رضوى أو شواهق صـــنبر
أزرى على همم الملوك وغض من
بنيــان كسرى في الزمان وقيصر
عالٍ على لحظ العيون ، كأنمـــا
ينظرن منـــه الى بياض المشـــتري
ملأت جوانبـــه الفضـــاء وعـــانقت
شـــرفاته قطـــع الســـحاب الممطر

وقال في وصف قصر أشناس الذي صار الى الفتح بن خاقان :

كأن القباب البيض والشمس طلقة
تضاحكها ، أنصاف بيض مفلّق

ومن شرفات في السماء كأنها
قوادم بيضان الحمام المحلّق

وقال في السينية :

وكأن الايوان من عجب الصنـ
ـعة جَوْب في جنب أرعن جلس

مشمخر تعلو له شرفات
رفعت في رؤوس رضوى وقدس

لابسات من البياض فما تبـ
ـصر منها الا غلائل برس (٢٢٥)

غير أن البحتري ـ على الرغم من استعانته ببعض الصور والاوصاف التي جاءت في ثنايا أوصافه لقصور سامراء وتضمين سينيته شيئاً منها ـ قد انفرد بأمور أخرى في هذه السينية من حيث الفن والابداع مما لا مجال لتفصيله هنا !

البرك :

لم يفت خلفاء بني العباس في سامراء أن يلحقوا بقصورهم ما هو ضروري لزيادة جمالها ، وقضاء ساعات اللهو فيها ، فأنشأوا لذلك البرك الفسيحة الجميلة ، وربما جعلوا لكل قصر بركة خاصة ، وقد ذكر اليعقوبي أن المعتصم حين اختط سامراء « بنى العمارات قصورا » وصيّر في

---

(٢٢٥) الجوب : الخرق أو النحت • الارعن : الجبل • الجلس : الجبل العالي • المشمخر : العالي • رضوى وقدس : جبلان • الغلائل : جمع غلالة ، وهي شعار يلبس تحت الثوب • البرس : القطن •

كل بستان قصرا فيه مجالس وبرك وميادين(٢٢٦) • وكان لهـذه البرك مداخل للمياه ، كما كان لهـا مخارج لتصريفها ، وكثيرا ما كانت تحف بالرياض الغن ، والاشجار الوارفة كمـا كانت تزود بالدكات الكبيرة ، والمصطبات الاصطناعية الفسيحة ، ليتسنى لجلساء الخليفة وندمائه الجلوس عليها ، كما كان لبعضها مقصورات خاصة بحرم الخليفة وجواريه(٢٢٧) • وتفننوا في تزيين هذه البرك بالصور البديعـة والتماثيل الجميلة ، فجعلوا فرش بعضهـا مكللة بالجوهر ، كمـا غشـوا ظاهرها وباطنها بصـفائح الفضة(٢٢٨) • ولم يكتفوا بنوع واحد من البرك ، بل حـاول بعضهم أن يتخذ له بركة مسقوفة يتمتع بها في أوقات النهار ، وأخرى مكشوفة يتخذه للاستمتاع في ساعات الليل • من ذلك بركتا بيت الخليفة الليلية والنهارية اللتان أنشأهما المتوكل ، وكانت تسمى احداهما بالزندان أو الهبية أو هاوية السباع(٢٢٩) •

وكثيراً ما كان الخلفاء يجلسون على هذه البرك في أوقات الفصـول المختلفة فيتمتعون بمشاهد المطر ويتلذذون بغناء المغنين ، ويتفكهون بدعابات المضحكين والملهين من ذلك ما رواه البحتري قال : « دخلت على المتوكـل وهو جالس على البركة والمطر يقع فيها فيعمل حجى » فقال : قل في هذا شيئاً ، ولم أكن صاحب بديه فاعتزلت فقلت أبياتي :

---

(٢٢٦) كتاب البلدان ص٢٩ •

(٢٢٧) أنظر قصيدة البحتري في وصف بركة المتوكل فيما بعد وقول علي بن الجهم في بركة القصر الهاروني أيضا •

(٢٢٨) أنظر الديارات للشابشتي ص١٠٣ ونهاية الأرب ١/٤٠٦ وص ٢٤٥ من هذا البحث •

(٢٢٩) أنظر رى سامراء للدكتور أحمد سوسة ١/٢٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٢٨٠ والديارات ص١٢١ •

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع ، لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الاسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الارض بعيش رغد من وشى أنوار الربى في برد
كأنما غدرانها ، في الوهد يلعبن من حبابها بالنرد[٢٣٠]

ومن ذلك ما رواه أبو الفرج الاصفهاني من أن عثعث المغني قال : دخلت يوماً على المتوكل وهو مصطبح وابن المارقي يغنيه في قوله :

أقاتلتي بالجيد والقد والخد وباللون في وجه أرق من الور

وهو على البركة جالس ، وقد طرب واستعاد الصوت مراراً ، وأقبل عليه ، فجلست ساعة ثم قمت (لحاجة) فصنعت هزجا في شعر البحتري الذى يصف فيه البركة :

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

....

فما سكت ابن المارقي سكوتاً مستوجباً حتى اندفعت أغني هذا الصوت ، فأقبل عليّ وقال لي أحسنت وحياتي أعد فأعدت فشرب قدحاً ولم يزل يستعيدنيه ويشرب حتى اتكأ ، ثم قال للفتح : بحياتي ادفع اليه الساعة ألف دينار وخلعة تامة واحمله على شهري[٢٣١] ، فاره بسرجه ولجامه فانصرفت بذلك أجمع[٢٣٢] .

ومن ذلك ما ذكره ابن عبد ربه من أن البحتري روى حكاية قال

---

(٢٣٠) أخبار البحتري ص٩١ . وأنظر ديوان البحتري ٢/٦٤ .
(٢٣١) الشهرى : ضرب من البراذين .
(٢٣٢) الاغاني ١٣/٢٩ .

فيها : كنا عند المتوكل على الله يوماً ، وبين يديه عبادة المخنث فأمر به فألقى في بعض البرك في أيام الشتاء ، فابتل وكاد يموت برداً ، قال : ثم أخرج من البركة وكسى ، وجعل في ناحية من المجلس . فقيل له : ياعبادة ، كيف أنت وما حالك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين جئت من الآخرة ، فقال له : كيف تركت أخي الواثق ؟ قال : لم أجز بجهنم ، فضحك المتوكل وأمر له بصلة[٢٣٣] . ومثل هذا ما كان يفعله المتوكل بأبي العبر أحد الشعراء الحمقى ، اذ « كان يرمي به في المنجنيق الى البركة ، فاذا علا في الهواء يقول : الطريق ، جاءكم المنجنيق حتى يقع في البركة ، فتطرح عليه الشباك ويصطاد ... »[٢٣٤] .

أما الدراسات الحديثة المستقاة من أعمال الحفر والتنقيب ، فقد زودتنا بكثير من المعلومات عن أبعاد هذه البرك ومساحاتها ، وعن أشكالها ومواضعها ، فأشارت تلك الدراسات الى أن البركة الحسناء التي وصفها البحتري تتكون من « منخفض اصطناعي مربع الشكل ، يبلغ طول كل من أضلاعه زهاء مائتي متر ، وعمقه عن مستوى الارض المجاورة ثلاثة أمتار تقريبا[٢٣٥] . في حين كانت بركة القصر الجعفري في المتوكلية مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها نحواً من مائة وعشرين مترا ، وعرضها زهاء ثمانين مترا »[٢٣٦] .

وشارك الشعر في الاشادة بهذه البرك ، ووصف ما كانت عليه من السعة والعمق ، واللطافة والحسن ، وقد أشار أبو الفرج الاصفهاني الى أن لابي العبر الهاشمي أشعاراً حميدة في المتوكل يصف فيها قصره وبرج الحمام والبركة كثيرة المحال ، مفرطة السقوط ، مما حدا به الى اطراحها

---

(٢٣٣) العقد الفريد ٦/٤٣٠ .
(٢٣٤) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢/٣٥٦ .
(٢٣٥) رى سامراء للدكتور أحمد سوسة ٢/٣١٠ .
(٢٣٦) أنظر المصدر السابق ٢/٣٣٧ .

واغفل ذكرها في كتابه[٢٣٧] .

وممن وصف هذه البرك وأشاد بها علي بن الجهم ، فقد رويت له أبيات يصف بها البركة المحتفرة في القصر الهاروني ، قصر الواثق المشهور، وأشار فيها الى ما كان يحف بها مما تشتهيه النفوس ، وتحار به العقول ، كما أشار الى الرياض المحدقة بها ، والامواج المتلاطمة في فنائها ، والشاعر هنا يكتفي برسم صورة ظاهرية عامة للبركة ، فهو لم يحاول أن يتعمق في تصويرها تصويراً دقيقاً ، كما فعل البحتري في البركة الجعفرية فقال :

أنشأتها بركة مباركةً   فبارك الله في عواقبها
حُفت بما تشتهي النفوس لها   وحارت الناس في عجائبها
لم يخلُق الله مثلها وطناً   في مشرق الارض أو مغاربها
كأنها والرياض محدقة   بها عروس تجلى لخاطبها
من أي أقطارها أتيت رأيـ   ـت الحسن حيران في جوانبها
للموج فيها تلاطم عجب   والجزر والمد في مشاربها
قدّرها الله للامام وما   قدّر فيها عيباً لعائبها
أهدت اليها الدنيا محاسنها   وأكمل الله حسن صاحبها[٢٣٨]

ولعل اهم ما قيل في وصف هذه البرك قصيدة البحتري المشهورة ، التي يصف بها بركة المتوكل ، والتي عدّها بعض النقاد من روائع الشعر العربي في هذا الشأن [٢٣٩] وقد أشار البحتري فيها الى سعة هذه البركة ،

---

(٢٣٧) أنظر الاغاني ٢٠/٩٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٣٢٣ .

(٢٣٨) ديوان علي بن الجهم ص٣٢ .

(٢٣٩) أنظر : أخبار البحتري للصولي ص٧٢ ، والفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ص٧٧ .

وجمال صنعها ، وما يطرأ على مياهها حين تضربها ريح الصبا ، او تنعكس عليها اشعة الشمس ، او تتراءى لها النجوم في الليل ، وأشار الى السمك السابح في مياهها ، وصورة الدلفين التي نقشت على جدرانها والى الرياض والبساتين التي تكتنفها ، والدكتين العظيمتين المنشأتين فيها، فقال :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات اذا لاحت مغانيها
بحسبها انها من فضل رتبتها ... تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها ... في الحسن طوراً وأطواراً تباهيها
أما رأت كالىء الاسلام يكلؤها ... من ان تعاب ، وباني المجد يبنيها
كأن جن سليمان الذين ولوا ... ابداعها ، فأدقوا في معانيها
فلو تمر بها بلقيس عن عرض ... قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها
تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريّق الغيث أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً ، حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنقضّ في جو خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها ... اذا انحططن ، وبهو في أعاليها
صور الى صورة الدلفين يؤنسها ... منه انزواء بعينيه يوازيها
تغنى بساتينها القصوى برؤيتها ... عن السحائب ، منحلاً عزاليها
كأنها ، حين لجت في تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها
وزادها رتبة من بعد رتبتها ... ان اسمه يوم يدعى من أساميها

محفوفة برياض ، لا تزال ترى ريش الطواويس تحكيه وتحكيها
ودكتين كمثل الشعريين غـدت احداهمابازا الاخرى تساميها(٢٤٠)

ومن الواضح ان البحتري قد نجح في وصفهلهذه البركة ، فقد وفق في الملاءمة بين الالفاظ والمعاني ، كما أبدع في تشبيهاته التي بثها في ثنايا القصيدة ، ولم يكن اختياره للقافيـة ، بأقل مهارة من اجتبـائه للالفاظ والصور البيانية الاخرى !

ومن غير شك ان وصف حركة المياه المتدفقـة الى داخل البركـة وتشبيهها بحركة الخيول المنطلقـة من حبل السـباق ، وتشبيه تلك المياه ـ جارية صافية في قنوات البركة ـ بسبائك الفضة المنسـابة في قوالبها ، لا يخلو من روعة الحركة ، وجمال التصوير • كما لا يخلو من المهارة والبراعة وصفه لما يطرأ على ماء البركـة حين يتعرض للريح او تتساقط عليه اشـعة الشمس ، او قطرات المطر ، او حين تطل عليـه النجوم في الليل ! ولعل ما في تشبيهه للسمك المحصور في هذه البركة من الطرافة ، وما في تصويره لحركاته التي كان يقوم بها في ارجائها من البراعة ، خير ما يبوئه مركزاً فريداً بين الشعراء • ويخيل الينا ان احداً من الشعراء لم يسبقه في هذا المجال ، ومن أجل هذا كله يخيل الينا كذلك ، ان البحتري يعد الممهد الاول لهذا الضرب من الفن الوصفي •

المساجد والمآذن :

ما كاد رأي المعتصم يقر على اتخاذ سامراء عاصمة جديدة لدولته ، حتى اختط فيها مسجدا جامعا الى جانب ما اختطه من قصور وأسـواق ، كما طلب الى اصحابهالذين اقطعهم في الكرخ، ان يبنوا المساجد والاسواق

---

(٢٤٠) ديوان البحتري ١/٣٥ـ٣٦ ، وانظر : زهر الآداب ١/١٩٧ـ١٩٨ ، ونهاية الارب ١/٢٨٥ـ٢٨٦ •

هناك ايضاً [٢٤١] • وحين ولي المتوكل الخلافة ، وجـد ان المسجد الجامع الذي بناه والده قد ضاق بالناس ، فهدمه وبني عوضاً عنه مسجدا جامعاً آخر في اول الحير ، في مكـان فسيح ، بعيد عن المنازل والقطائع والاسواق ـ وجعل فوارة ماء لا ينقطع ماؤها وهي قطعة من الحجر كبيرة كانت تعرف « بقصعة فرعون » كما جعل الوصول اليـه من ثلاث طرق واسعة [٢٤٢] • وقد لبست جـدرانه بالميناء ، كما فرش به [٢٤٣] وامدتنا الدراسات الحديثة المستندة ـ على اعمال الحفر والتنقيب بالكثير من الأمور المتعلقة بهذا المسجد الجامع ، فأشارت الى انه مستطيل الشكل ، يبلغ طوله مائتين واربعين مترا وعرضه مائة وثمانية وخمسين مترا كما يبلغ ارتفـاع الجدران زهاء عشرة امتار وقـد دعمت تلك الجـدران باربعين برجا من الخارج • كما كان له واحد وعشرون بابا وكان في هذا المسجد خمسـة وعشرون رواقا ، تشتمل على اربعمائة وثمانية وثمـانين عموداً [٢٤٤] • ومما يجدر ذكره ان جدران هذا المسجد الجامع ما تزال قائمة الى اليوم • ولهذا المسـجد الجامع مئذنة (ملوية) مخروطية الشـكل ، تقع على بعد خمسة وعشرين مترا منه ، ما تزال قائمة الى الآن ، ويبلغ ارتفاعها اثنين وخمسين مترا [٢٤٥] وكانت تعد من عجائب الـدنيا [٢٤٦] • ويقال ان المتوكل كان يصعد هذه المئذنة على حمار مريسي [٢٤٧] •

---

(٢٤١) أنظر كتاب البلدان لليعقوبي ص٢٤ •

(٢٤٢) المصدر السابق ص٢٦ ، ٣٠ وانظر معجم البلدان ٣/ ١٧٥ •

(٢٤٣) أنظر أحسن التقاسيم ص١٢٢ وخلاصة الذهب ص١٦٢ •

(٢٤٤) أنظر ري سامراء ١/ ١١٠

(٢٤٥) أنظر سامراء لمديريـة الآثـار القديمـة ص٤٣ـ٤٤ وبلـدان الخلافة الشرقية ص٧٩ـ٨٠

(٢٤٦) أنظر نزهة الجليس للمكي ١/ ١١٩ ، وآثار البلاد للقزويني ص٣٨٥ وخلاصة الذهب ص١٦٢

(٢٤٧) أنظر ثمار القلوب للثعالبي ص٤٢١

وأشار سبط ابن الجوزي الى ان بناء هذا المسجد كان في سنة ٢٣٢هـ (٨٤٩م) كما كان الانتهاء منه في سنة ٢٣٧هـ (٨٥٦م)[٢٤٨] وبلغت النفقة عليه خمسة آلاف الف درهم كما ذكر ياقوت[٢٤٩] أو ثلاثمائة ألف وثمانية الآف ومائتين واثنى عشر دينار كماذكر صاحب الشذرات[٢٥٠].

ويمتاز هذا المسجد عن المساجد الاسلامية الاخرى بفسحته وضخامته من جهة ، وبمئذنته الغريبة من جهة اخرى[٢٥١] . وقد نقل احمد بن طولون الذي عاش فترة من حياته في سامراء طراز بناء المسجد ومئذنته الى مسجده الجامع الذي ابتناه في مصر[٢٥٢] . ومن الجدير بالذكر ان فوارة هذا المسجد وهي التي كانت تعرف « بقصعة فرعون » قد نقلت الى بغداد في سنة ٦٥٣هـ وبقيت هناك حتى سنة ٦٥٧هـ حيث كسرت وحطمت[٢٥٣] كما حمل كثير من اخشاب المسجد المذكور الى مسجد السلطان ملكشاه الذي انشأه في بغداد سنة ٤٨٥هـ[٢٥٤] .

ومن الغريب ان يتجاهل الشعراء هذا المسجد العظيم ومئذنته الغريبة ، فلا يكلفون انفسهم الاشادة به او الاشارة اليه ، اللهم الا ما ذكره ابن ولاد المصري ، حين قدم الى العراق وزار سامراء فعجب بمئذنتها السامقة فقال

---

(٢٤٨) أنظر شذرات الذهب لابن العماد ١/٨٧ ، وسامراء لمديرية الآثار ص٤٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ١/٨٥ .

(٢٤٩) أنظر معجم البلدان ٣/١٧٥

(٢٥٠) أنظر شذرات الذهب ٢/٨٧ من الغريب حقا أن تحتسب النفقة على البناء الى حد اثنى عشر دينارا في عصر لم يلتفت فيه الى الالوف .

(٢٥١) أنظر سامراء لمديرية الآثار القديمة ص٤٩

(٢٥٢) أنظر ٦٠ من هذا البحث .

(٢٥٣) أنظر الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص٣٠٦

(٢٥٤) أنظر خريدة القصر لعماد الدين الاصفهاني ١/١٩٦ حاشية رقم (٣) .

فيها هذين البيتين :

ســـامية في الجو مثل الفرقـــد
قـــاعدة فيـــه وان لم تقعـــد

تكـــاد من تحويه ان لم يبعـــد
يغرف من حوض الغمام باليد (٢٥٥)

وهناك مســـجد جامع آخر بناه المتوكل في مدينتـــه الجـــديدة المتوكلية(٢٥٦) ، يعرف الآن باسم جامع ابى دلف ، وهو يشبه المســجد الجامع الذي بناه المتوكل في سامراء شبها كبيرا ، فهو مستطيل الشكل ، وله صحن مكشوف محاط من جهاته الاربع بأروقة ، كما له مئذنة (ملوية) على غرار مئذنة المسجد الجـــامع في سامراء ، يبلغ ارتفاعها تسعة عشر مترا (٢٥٧) . وقد اشار البحتري الى هذا المسجد في قوله من قصيدة يمدح بها المتوكل ويصف المتوكلية :

وفســيحة الأكناف ضاعف حسنها
بـرٌ لهـا مفضـىً ، وبحر مترع

قـد سُرَّ فيهـا الاوليـاء إذْ التقوا
بفناء منبرها الجديد ، فجمعُوا(٢٥٨)

وبنى المعتز مسجداً آخر عظيماً لم تشـر اليه المراجع ، وانما تفرد بذكره البحتري فأشار الى هذا المسجد الجديد الذي ـ كما يبدو من قول البحتري ـ اختاره المعتز في منطقة قريبة من منازل النـاس ، بحيث يسّر

(٢٥٥) معجم الادباء ٢٠١/٤ الهامش
(٢٥٦) أنظر كتاب البلدان ص٣٠
(٢٥٧) أنظر ري سامراء ١٣٧/١ وما بعدها
(٢٥٨) ديوان البحتري ٤٣/١

للشيوخ وللمتعبين الوصول اليه فقال :

يا ابن عم النبي أمتعت بالعمـــر ومُلّيت نعمة الامتاع
يعلم الله كيف حمد الموالى ما تعاني من شأنهم وتراعي
أعظموا المسجد الجديد فأبدوا وأعدوا في الشكر عنه المذاع
رحت خير البانين واخترت بالامس لخير البيوت خير البقاع
لتجيبَ الأذان فيه رجالٌ من قريب ، كما تجيب الداعي
قصُرت خطوةُ الكبير ، ولاقى مُتعب فضلَ راحة واتداع
في رفيع السموك يعترف الغيم له بالسمو والارتفاع[٢٥٩]

حلبات الفروسية :

انشأ الخلفاء العباسيون لهم في سامراء عدة ساحات « حلبات » للفروسية كانوا يخرجون اليها ليستمتعوا بما يجري فيها من العاب ومسابقات ، وجعلوا فيها أماكن مرتفعة ليطلوا منها ويشرفوا على تلك المسابقات والالعاب .

وقد المحت المراجع القديمة الى تلك الحلبات دون الخوض في تفصيلاتها ، اما المصادر الحديثة ، فقد زودتنا بمعلومات وافية عن تلك الحلبات وابعادها ، فأشارت الى ثلاث منها ، ما تزال معالمها شاخصة الى اليوم :

أقدمها الحلبة التي تبدأ عند الحدود الشرقية لبيت الخليفة وتمتد شرقا الى داخل ساحة الحير بمسافة خمسة كيلو مترات ، اما محيطها فيبلغ حوالي احد عشر كيلو مترا تقريبا وهناك آثار بناية قريبة من الحلبة من جهة بيت الخليفة ، يظن انها كانت معدة للتفرج منهما على الالعاب

---

(٢٥٩) ديوان البحتري ١٥٢/١ .

والمسابقات التي تجري فيها (٢٦٠) • ولعل هذه البناية التي كانت تتخذ للتفرج والنظر الى الخيل هي التي اشار اليهـا الصولي في اخبار ابى تمام وذلك حيث يقول : « حـدثني عون بن محمد قال : حـدثني محمود الوراق قال : كنت جالسا بطرف الحير : حير سر من رأى ومعي جماعة لننظر الى الخيل ، فمر ابو تمام فجلس الينا ••• »(٢٦١) •

وتليها في القدم الحلبة التي تبدأ عند تل اصطناعي مخروطي الشكل يعرف محليا « بتل العليق » ولعله التل الذي حكت المصادر القديمة كيفية تكوينه ، وكانت تسميه « تل المخالي » (٢٦٢) وكان فوق التل المذكور بناء يظن بعضهم انه قصر التل الذي ورد في بعض المراجع القـديمة ، وكان هذا التل المرتفع يساعد النظارة على تتبع حركات الخيول من المسافات الكبيرة •

تبدأ هذه الحلبة كما قلنا عنـد تل العليق (المخالي) ، وتمتد الى الجنوب مسافة خمسة كيلو مترات تقريبا وتنتهي قرب المسجد الجامع الذي بناه المتوكل • ولم يبق من معـالم هـذه الحلبة سوى القسـم الشرقي فقط (٢٦٣) •

أما احدث هذه الحلبات وانسقها فهي الحلبة التي تقع في حدود الحير شمال شرقي المسجد الجامع بقليل ، وتتكون من اربع حلقات كبيرة حول مربع مركزي فيه دكة مرتفعة معدة لجلوس الخليفة وتفرجه مع وزرائه ، ويزيد طول الدورة الكاملة في هذه الحلقات على خمسة كيلو مترات • في

(٢٦٠) أنظر سامراء لمديرية الآثار القديمة ص٦٤ ، وري سـامراء ١/٧١ ، ١١٧

(٢٦١) أخبار أبي تمام ص١٤٧

(٢٦٢) أنظر مراصد الاطلاع لابن عبدالحق ص٩٧ـ٩٨ ، وخلاصة الذهب ٢/١٦٢

(٢٦٣) أنظر : سامراء لمديرية الآثار ص٦٥ وري سامراء ١/١١٧ •

حين ان البعد الاعظم من الدكة المركزية على طول هذه الحلبات يقل عن ستمائة متر (٢٦٤) .

ولعل هذه الحلبة هي التي أشار اليها الطبري في تاريخه فقال :«فوجه المهتدي محمد بن مباشر الكرخي فاشترى لهم الاسوقة ـ ومضى ابو نصر ابن بغا من فوره ذلك حتى عسكر في الحير بالقرب من موضع الحلبة »(٢٦٥) .

ووصف البحتري احدى المسابقات التي جرت في واحـــدة من تلك الحلبات ولعلها الحلبة الاخيرة ، فبدأ وصفه للخيل المعدة للجري، وشبهها ـ وهي مبكرة ـ بالنجوم اللامعة في الدياجير (٢٦٦) ، ثم أبدى اعجابه بما كانت عليه من الحسن ، وأشار بعـــد ذلك الى ممتطيها من الفرســـان (الغربان) . ووصف حركاتهم حين تجمح بهم خيولهم ، كما وصـف الخيول وهي جارية في ارض الحلبة ، وشبهها بالصقور الناهضة في سيورها، وأشار الى النقع الذي تثيره هذه الخيول من جراء جريها ، ثم وصف حالة النظارة عند مرور الخيول من امامهم ، وهي منحدرة ، وعلى وشك الانتهاء من الشوط والوصول الى اهدافها . وبيّن كيفية احتشادهم على سور هذه الحلبة حتى صاروا كالشُرُف له !

والحق ان وصف البحتري لهذه المســابقة ، وصف حي ، مشبع بالحركة ، وان كان مقتضباً ، فالشاعر لم يدع شيئاً مما يجب ان يقال في مثل هذه الاحوال دون ان يذكره او يشير اليه . قال :

يا حسنَ مبدى الخيل في بكورها تلــوح كالانجـم في ديجورهـــا

---

(٢٦٤) أنظر ري سامراء ١/١١٦ ، وسامراء لمديرية الآثار القديمة ص٦٢ــ٦٤ ، والجدير بالذكر أن هناك اختلافا كبيرا بين المصدرين في طول الدورة الكاملة وفي البعد الاعظم عن الدكة المركزية في هذه الحلبة .

(٢٦٥) تاريخ الطبري ١١/٢٠٧

(٢٦٦) يبدو من هذا أن المسابقات كانت تجري في الصباح الباكر .

كأنما أبدعَ في تشهيرها		مصوِّر حسَّنَ من تصويرها
تحمل غرباناً على ظهورها		في السَرق المنقوش من حريرها
ان حاذروا النبوة من نفورها		أهووا بأيديهم الى نحورها
كأنها والحبل في صدورها		أجادل تنهض في سيورها
مرت تباري الريح في مرورها		والشمس قد غاب ضياء نورها
في الرهج الساطع من تنويرها		حتى اذا أصغت الى مديرها
وانقلبت تهبط في حدورها		تصوَّب الطير الى وكورها
في حلبة تضحك عن بدورها		صار الرجال شُرَّفاً لسورها
أعطىَ فضل السبق من جمهورها		من فَضَلَ الامة في امورها
في فضلها ، وبذلها وخيرها		« جعفر » الذائد عن ثغورها
تبهى به وهو على سريرها		خلافة وُفّق في تدبيرها (٢٦٧)

★ ★ ★ ★

الحدائق والرياض :

لم يأل خلفاء بني العباس جهداً في انشاء الحدائق والبساتين ، وفي اتخاذ الرياض والجنائن في عاصمتهم الجديدة سامراء ، اذ ما كاد المعتصم ينتهي من تخطيط المدينة واقطاع القطائع حتى أمر بحمل الغروس المختلفة من سائر البلدان والامصار ، وكان لوفرة المياه ، وجودة التربة ، وملائمة المناخ ، اكبر الاثر في انجاح هذه الغروس من النخيل والبقول والرياحين ، فكثرت لذلك الجنائن والبساتين ، وانتشرت الاوراد والازهار (٢٦٨) وتلا المعتصم في الحكم ابناؤه واحفاده الذين كانوا شغوفين بالعمارة وكان يستتبع ذلك بطبيعة الحال الاهتمام بالرياض والحدائق التي لا بد منها ليستكمل

---

(٢٦٧) ديوان البحتري ص١٠٤٤ طبعة الصيرفي .
(٢٦٨) أنظر كتاب البلدان ص٢٨-٢٩

البناء جماله وروعته . فكان لكل قصر من قصور الخلفاء ووزرائهم وقوادهم رياض غن ، وبساتين فيح امتدت من المطيرة الواقعة في جنوب سامراء الى الدور الكائنة في شمالها(٢٦٩) . فكانوا يلجأون اليها في اوقات الاستجمام وساعات اللهو .

ولعل اكبر الحدائق التي انشئت في سامراء هي حير الوحوش للمتوكل (٢٧٠) ، وتقع هذه الحديقة خارج مدينة سامراء ، وهي مسورة بسور من الطين يحيط بها من جميع جهاتها وتحتل مساحة واسعة من الارض تبلغ حوالي ثلاثة وخمسين كيلو مترا . وما تزال آثار سور هذه الحديقة شاخصة الى اليوم (٢٧١) . وكانت تضم عددا كبيرا من الحيوانات المختلفة . وقد أشار اليعقوبي الى هذه الحديقة وسياجها وما كان فيها من انواع الحيوان ، فقال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبني خلفه حائطا غيره ، وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير الوحش والأيايل والارانب والنعام ، وعليها حائط يدور في صحراء واسعة » (٢٧٢) .

وكانت هذه الحديقة تضم الى جانب ذلك البركة الحسناء التي وردت في شعر البحتري ، كما كان فيها وبالقرب من البركة قصر جميل ما تزال آثاره شاخصة ، كان معدا لنزهة الخليفة وراحته (٢٧٣) .

وقد أشار كثير من الشعراء الى هذه الرياض والبساتين ، وما كانت تحويه من ضروب الازهار واصناف الاشجار ، التي كانت محيطة بالقصور

---

(٢٦٩) أنظر بلدان الخلافة الشرقية ص٧٨

(٢٧٠) كان للمعتصم حير للوحوش كما كان لابنه الواثق كذلك . أنظر الحيوان للجاحظ ٤/٤٢٢ .

(٢٧١) أنظر ري سامراء ١/١١٥ ، ٢/٢٩١-٢٩٢

(٢٧٢) كتاب البلدان ص٢٨ طبعة النجف

(٢٧٣) أنظر ري سامراء لاحمد سوسه ١/١١٥

او ممتدة امامها الى مسافات كبيرة . من ذلك ما قاله خالد الكاتب :

اسقني في جرائر وزقـــاق — لتلاقي السرور يوم التـــلاقي
من ســلاف كأن في الكأس منه — عبرات من مقلتي مشـــتاق
في رياض بســر من را الى الكر — خ ، ودعنـي من سـائر الآفـاق
بادكارات كـل فتـح عظيـم — لامام الهدى ابى اسحاق(٢٧٤)

ومنه قول الحسين بن الضحاك :

سر من را أسـر من بغـــداد — فاله عن بعض ذكرهـا المعتـاد
حبــذا مسرح لها ليس يخلو — أبـــداً من طريـــدة وطـراد
ورياض كأنمـا نشـــر الزهـ — ـر عليها محبَّـر الأبراد(٢٧٥)

ومن ذلـــك قول ابراهيم الصولي في قصري المتوكـل : العروس والبرج ، واشارته الى ما يقع ازاءهما من ارض مزدانة بالزهور والورود، وما يتخلل ذلك من المياه الثرة ، والطيور الصادحة والحيوانات الوحشـية ولعله كان يريد بذلك حير الوحوش للمتوكل :

تـأمل ســماء أظلــت عليـ — ـك فيهـا مصـابيحها تزهـر
وارض نقـــابلهـا بالعـــرو — س والبرج شمســهما جعفـر
ومَسحَبْ نـــور غـــداة الربيـــع — انفاسه المســـك والعنبـــر
خـــلال شـــقائقـــه أصفرُ — وأضعـــاف أصفره احمـــر
وللمـــاء مُطَّـــرد بينــه — يضيـــق بآذيِّه المصــــدر
وللنـــاطقـــات بأكنافـــه — دواعـــي اشـــتياق ومستعبـــر
يســاوقه البَـــرُّ من جـــانب — ومـــن جـــانب بحره الاخضر
مَجـال وحوش ومرقـــى أنيس — فيا عُرْف لهـــو ويا منظـــر

---

(٢٧٤) الاغاني ٢١/٣٢
(٢٧٥) معجم البلدان ٣/١٧٦ .

ويا حسـن دنيا ويا عز مُلـك يسوسهما السائس الاكبر[٢٧٦]

ومنه قول بعضهم يصف المطيرة :

سقياً ورعياً للمطيرة موضعاً انوارها الخيري والمنثور
فيها البهار معانقاً لبنفسج فكأن ذلك زائر ومزور
وكأن نرجسها عيون كحلت بالزعفران ، جفونها الكافور
تحيا النفوس بطيبها ، فكأنها وصل الحبيب ، يناله المهجور[٢٧٧]

اما البحتري فلعله اكثر الشعراء وصفا للرياض والزهور التي كانت تزين قصور الخلفاء والوزراء في سامراء . وقد مر بنا الشيء الكثير من ذلك عند الكلام على تلك القصور . ومما قاله في هذا الشأن ولم نشر اليه ، ابياته الآتية من قصيدة له يمدح بها الفتح بن خاقان وزير المتوكل وصديقه :

ذهبت جِدَّة الشتاء ووافا نا شبيهاً بك الربيع الجديد
أفق مشرق ، وجوٌّ أضاءت في سنا نوره الليالي السود
وكأن الحوذان ، والاقحوان الـ ـغض نظمان : لؤلؤ وفريد
قطرات من السحاب وروض نشرت وردها عليه الخدود[٢٧٨]

وقال يصف مبارزة الفتح بن خاقان للاسد الذي كان في جملة الحيوانات التي تضمها حديقة حير الوحوش للمتوكل ، ويشير الى الاجمة التي كان يرتادها هذا الاسد ، وما فيها من الاشجار والازهار :

غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقاء ومخلبـا

---

(٢٧٦) ديوان الصولي في الطرائف الادبية ص١٣٣ ، وانظر العقد الفريد ٥/٤٢١

(٢٧٧) آثار البلاد للقزويني ص٤٦١

(٢٧٨) ديوان البحتري ١/٧٦

يحصّنه من نهر نيزك معقل ... منيع ، تسامى روضه وتأشبا

يرود مغاراً بالظواهر مكتباً ... ويحتل روضاً بالاباطح معشبا

يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً ... يَبِص ُ وحوذاناً على الماء مذهبا

....

شهدت لقد انصفته يوم تنبرى ... له مصلتاً عضباً من البيض ، مقضبا

فلم ار ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً إذا الهيّابة النكس كذبا

هزبر مشى يبغي هزبراً ، وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا

أدلّ بشغب ثم هالته صولةٌ ... رآك لها امضى جنَانا ، وأشغبا

....

فلم يُغنه ان كرّ نحوك مقبلاً ... ولم ينجه ان حاد عنك منكّبا

حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولاحده نبا

وكنت متى تجمع يمينك تهتك الـ ... ـضريبةأو لاتبق ِ للسيف مضربا(٢٧٩)

وقال ايضا يصف الحيوانات في حديقة حير الوحوش للمتوكل ، ويشير الى عددها الكثير :

وطاعة ُ الوحش اذ جاءتك من خَرِق ... أحوى ، وأدمانة ٍ كُحل مآقيها

كالكاعب الر ُود يخفى ُ في ترائبها ... ر َد ْع العبير ويبدو في تراقيها

ألفان وافت ، على قد ْر ، مسارعة ... الى قبول الذي حاولته فيها

---

(٢٧٩) ديوان البحتري ١/٩٧–٩٨

ان سرتَ سارتْ وان وقفتها وقفت
صُوراً اليك بالحاظ تواليها
يُرعنَ منك الى وجه يَرَيْنَ له
جَلالة ، يُكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت
بالحير في عرصةٍ ، فسحٍ نواحيها
فنهرِ نيزك وِرْدٌ من مواردها
وساحةُ التل مغنى من مغانيها
لولا الذي عرفته فيك ، يومئذ
لما أطاعك وسط البيد عاصيها(٢٨٠)

★ ★ ★ ★

المتنزهات ومجالس اللهو :

أشرنا فيما سبق الى ان المدينة كانت تتألف من جانبين : جانب سامراء ويقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة ، وجانب آخر ويقع على الضفة الغربية من النهر(٢٨١) . كما أشرنا الى اهم الضواحي التابعة لها كالقادسية والقاطول والمطيرة(٢٨٢) ونزيد هنا فنقول : ان تلك الضواحي المتصلة والممتدة الى مسافات بعيدة كانت متنزهات لطلاب اللذة ، ومناخات لذوي اللهو والطرب ، لما اشتملت عليه من البساتين الفيح ، والرياض الغن ، والاديرة الكثيرة ، والحانات النظيفة .

وللشعراء والادباء الذين كانوا يختلفون الى تلك الضواحي وما فيها من الاديرة والحانات اشعار كثيرة ، سنشير اليها فيما بعد .

(٢٨٠) المصدر نفسه ١/٤٦ـ٤٧
(٢٨١) انظر ص ٢٠ ـ ٢١ من هذا البحث .
(٢٨٢) أنظر ص ٢٢ ـ ٢٣ من هذا البحث .

وقد اطرت كثير من المراجع هذه الضواحي ، وأشادت بما كانت عليه من الروعة واللطافة فقال القزويني في المطيرة : انها « من قرى سامراء اشبه ارض الله بالجنان من لطافة الهواء وعذوبة الماء وطيب التربة ، وكثرة الرياحين ، وهي من متنزهات بغداد ، يأتيها اهل الخلاعة »[٢٨٣] وأشار الشابشتي الى المنطقة الواقعة بين القادسية وسامراء فقال : « وبين القادسية وسر من رأى اربعة فراسخ ، والمطيرة بينهما ، وهذه النواحي كلها متنزهات وبساتين وكروم » ثم قال : « والقادسية من احسن المواضع وانزهها ، وهي من معادن الشراب ومناخات المتطربين ، جامعة لما يطلب اهل البطالة والخسارة »[٢٨٤] .

وكثيرا ما كان الخلفاء يتخذون مجالس شربهم في قصورهم او في البساتين الفسيحة ذات الازهار والاوراد ، والجداول والغدران ، ولا تخلو هذه المجالس في العادة من المغنين والمغنيات ،وارباب الفكاهةوالظرف. وكانوا يطلبون من الشعراء في كثير من الاحيان ان يصفوا تلك المجالس .

من ذلك ان الحسين بن الضحاك كان ليلة عند الواثق ، وقد شرب الخليفة وندماؤه حتى اذا مضى من الليل اكثره ، طلب اليه الواثق ان يبيت مكانه ، فلما اصبح ، قال له هل « وصفت ليلتنا الماضية وطيبها » فقال ابن الضحاك : لم يتيسر لي ذلك ، ولكنني سأقول فيها الآن ، فقال :

حثت صبوحي فكاهة اللاهي ... وطاب يومي بقرب اشباهي

فاستثر اللهو من مكامنه ... من قبل يوم منغص ناه

بابنة كرم من كف منتطق ... مؤزر بالمجون تياه

يسقيك من طرفه ومن يده ... سقي لطيف مجرب لاه

---

(٢٨٣) آثار البلاد ص٤٦١

(٢٨٤) الديارات ص٩٦

كأساً وكأساً كان شاربها حيران بين الذكور والساهي[٢٨٥]

وظاهر ان وصف الخليع هذا يعيد الى الاذهان اوصاف ابي نواس لمجالس الشرب التي كان يرتادها في بغداد وضواحيها !

ومن ذلك ايضاً قول اسحاق الموصلي يصف مجلس شراب للواثق ، كان قد اصطحب فيه مع الندماء والمغنين ، وأشار فيه الى مباكرته هذا المجلس ، الذي أقيم حول غدير ماء ، والطير ما تزال في اوكارها ، ثم وصف هذا الغدير وقال انه لم ير مثله ، وان ماءه يجري مسترسلاً فوق حصى كالكافور ، وكان النسيم ينسج اعلى متنه سطوراً وحصيرا ، وقد حفَّ به الشَّرْب والندماء ، واداروا بينهم الكؤوس المختلفة ، ثم استمعوا الى غناء المغني المشهور ـ يربدبه الموصلي نفسه ـ فطاروا به فرحاً وسروراً ، وامضوا يوماً سعيداً لا تكدير فيه ، فقال :

ومجلس باكرته بكورا والطيرُ ما فارقت الوكورا
والصبح لم يستنطق العصفورا على غدير لم يكن دعثورا
لم تر عيني مثله غديرا يجري حَباب مائه مسجورا
على حصى تحسبه كافورا تسمع للماء به خريرا
ينسج اعلى متنه سطورا نسيمُ ريح قد ونت فتورا
حتى تخال متنه حصيرا والشرب قد حفوا به حضورا
وأمروا الساقي ان يديرا كأسهم الاصغر والكبيرا
وأعملوا البَمَّ معا والزيرا وجاوبت عيدانُهم زميرا
وقربوا المغني النحريرا مقدَّماً في خدمة مشهورا
فهم يطيرون به سرورا ولا ترى في شربهم تقصيرا

---

(٢٨٥) الاغاني ٧/٦٠ طبعة دار الكتب

ولا لصفو عيشهم تكديرا ولا لخلق منهم نظيرا(٢٨٦)

ومن ذلك قول علي بن الجهم يصف مجلسا من مجالس شرب المتوكل :

حبذا مجلس تدور علينا فيه كأسان بين ناي وعود
من شراب يعافه المسلم العف وتحظى به أكف اليهود(٢٨٧)

ومن ذلك قول البحتري يصف مجلسا من مجالس الشرب ،ولعله احد مجالس الخليفة المتوكل :

قلوب شجتهن الخدود الملائح وساق بدا كالصبح والليل جانح
يدير كؤوساً من عقار كأنها من النور في ايدي السقاة مصابح
فللراح ما تجري عليه دماؤهم وللشوق ما ضُمت عليه الجوانح
ونُدمان صدق في جوار خليفة غدا بين كفيه الندى والصفائح(٢٨٨)

ومنه قول عبدالله بن العباس يصف مجلس شراب للمنتصر ، في موضع يقال له قراح النرجس ، كان المنتصر مصطبحاً به •

يا طيب يومي في قراح النرجس
في مجلس ما مثله من مجلس
نسقى مشعشعة كأن شعاعها
نار تشب لبائس مستقبس(٢٨٩)

ومن ذلك ما رواه الشابشتي من ان المعتز كان يشرب في بستان مملوء

---

(٢٨٦) المصدر نفسه ٥/١٠٥ـ١٠٦
(٢٨٧) ديوان علي بن الجهم ص٣٣
(٢٨٨) ديوان البحتري ص٤٨١ طبعة الصيرفي
(٢٨٩) الاغاني ١٧/١٣٠

بالنمام . وبين النمام شقائق النعمان ، فأقبل يونس بن بغا ، صديق المعتز وخدينه ، وعليه قباء اخضر ، فقال المعتز :

شبهت حمرة خده في ثوبه
بشقائق النعمان في النمام

ثم قال لندمائه : اجيزوا ، فبدر بنان المغني ، فقال :
والقد منه اذا بدا متثنياً
كالغصن في لين وحسن قوام

فقال : غن فيه الآن ، فعمل لحناً وغناه (٢٩٠) .

ومنه قول البحتري في وصف مجلس من تلك المجالس ، كان قد دعي اليه :

شاهدت أيام السرور فلم اجد يوماً يسر كيوم دعوة يونس (٢٩١)
أدنى مزار وسط احسن بقعة وأجل زوار لابهى مجلس
في روضة خضراء يشرق نورها تسقى مجاجات الغيوم البجس
فخر الربيع على الشتاء بحسنها وكفى حضور الورد فقد النرجس
لا تسقياني بالصغير ، فانه يوم تليق به كبار الاكؤس (٢٩٢)

ويبدو ان القاطول كان من المتنزهات المحببة لدى الشعراء ،يترددون اليه ويشربون بين رياضه وزهوره في ايام الربيع الجميلة ، وقد أشار الى ذلك البحتري في قوله :

لا أقرب الراح أو تجلو السماء لنا
شمس الربيع ، وتبهى الروضة الانف

---

(٢٩٠) أنظر الديارات ص١٠٦ والاغاني ٩/٣١٨-٣١٩ طبعة دار الكتب ، وبدائع البدائه للازدي ص٥٣ .

(٢٩١) هو يونس بن بغا صديق المعتز .

(٢٩٢) ديوان البحتري ١/١٧٨

ويفتق الورد خضراً عن معصفرةٍ
ويكتسى نوره القاطول والنجف(٢٩٣)

---

(٢٩٣) يخيل الينا أن المقصود با (النجف) هنا ، موضع بالقرب من القاطول (ديوان البحتري ١٣٩٧/٣ هامش ٣ طبعة الصيرفي) ، كان يشتهر بطيب التربة وصفاء الهواء ، وكان مرتاداً للخلفاء في أثناء النزهة والتصيد · ويبدو أن ياقوت الحموي قد وهم حين ظن أن المقصود بالنجف في قول اسحاق الموصلي :

ما ان أرى الناس في سهل ولا جبل
أصفى هواء ولا أعذى من النجف

الموضع المعروف بظهر الكوفة والذي فيه قبر الامام علي ـ رض ـ (معجم البلدان ٢٧١/٥ ، والاغاني ٣٥٦/٥ هامش ١ دار الكتب حيث شرحت الكلمة كما ظنها ياقوت) ·

والذي يحملنا على الظن بأن المقصود من كلمة (النجف) هنا ، موضع بالقرب من القاطول ، قول البحتري السابق ، اذ من غير المعقول أن يربط البحتري بين شربه للراح ، وبين اكتساء القاطول والنجف بالنور ، على ما بين الموضعين من البعد الشاسع ، فالمعقول ، أن يكون الموضعان متقاربين ليتسنى للشاعر التردد اليهما ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ما رواه الاصفهاني في أغانيه على لسان اسحاق الموصلي قال : « خرجت مع الواثق الى الصالحية (محلة ببغداد تنسب الى صالح بن المنصور) وهو يريد النزهة ، فذكرت بغداد وعيالي وأهلي وولدي فبكيت ، فقال لي : بحياتي أذكرت بغداد فبكيت شوقا اليها ؟ فقلت نعم ··· » الاغاني ٣٥٥/٥ دار الكتب ·

ثم روى الاصفهاني الخبر مرة أخرى وعلى لسان اسحاق أيضا ، فقال : « ما وصلني أحد من الخلفاء قط بمثل ما وصلني به الواثق ، ولقد (انحدرت) معه الى (النجف) فقلت له : يا أمير المؤمنين ، قد قلت في النجف قصيدة ، فقال هاتها ، فأنشدته :

يا راكبَ العيسِ لا تعجل بنا وقفِ
نُحيِّ داراً لسعدى ثم ننصرفِ

حتى أتيت على قولي ··· فقال صدقت يا اسحاق ، هي كذلك ··· و (انحدر) الى (الصالحية) ··· فذكرت الصبيان وبغداد فقلت ··· » ·

وهاتان الروايتان تدلان على أن الصالحية كانت أقرب الى بغداد من

هنـاك تجميع شمل كأن مفترقـا
منا ، وتأليف رأى كان يختلف(٢٩٤)

النجف ، وأن النجف المذكور يقع بين بغداد وسامراء ، وقول اسحاق ولقد (انحدرت معه الى النجف) دليل على ان الانحدار كان من سامراء ، ثـم قوله ـ بعد أن وصف النجف للواثق بشعره ـ (وانحدر ـ أي الواثق ـ الى الصالحية) دليل على ان الانحدار كان من النجف الى بغداد ، اذ لـو كان المقصود بكلمة (النجف) الموضع المعروف بظاهر الكوفة ، لقال ولقد (أصعد الى الصالحية) •

أما أبيات اسحاق في النجف هذا ، فهي :

ما ان أرى الناس في سـهل ولا جبل
أصفى هـواء ، ولا أعذى من النجف
كأن تربتـه مسـك يفـوح بـه
أو عنبـر دافـه العطـار في صـدف
حفت ببر وبحـر مـن جوانبهـا
فالبـر في طـرَف ٍ والبحـر في طرف
وبـين ذاك بسـاتين يسيح بهـا
نهـر يجيش بجاري سيله القصف
وما يـزال نسـيم من أيامنـه
يأتيـك منهـا بريّـا روضة أنف
تلقاك منـه قبيل الصـبح رائحـة
تشفي السقيم اذا أشفى عـلى التلف
لو حله مدنف يرجـو الشفاء بـه
اذاً شـفاه من الاسـقام والـدنف
يؤتى الخليفـة منـه كلمـا طلعت
شمس النهـار بأنـواع من التحف
والصيد منـه قريب ان هممت بـه
يأتيـك مؤتلفـاً في زي مختلـف
فيالـه منزلاً طـابت مسـاكنه
بحيز ٍ من حـازَ بيتَ العز والشرف

(٥/ ٢٧١ معجم البلدان) •

(٢٩٤) المصدر نفسه ص١٣٩٧ طبعة الصيرفي

ومنه قول عبدالله بن العباس الربيعي ـ وكان قد خرج مع جماعة من أصدقائه الى القاطول فأظلتهم غمامة وهم يشربون :

محمد قد جادت علينـا بمائهـــا
سـحابة مـــزن برقهـــا يتهلل

ونحن على القاطـول في متربـــع
ومنزلنـــا فيــه المنـــابت مبقـــل

فمـــر فائزاً يشـدو اذا ما سقيتني
أعن ظاعن الحي الاولى كنت تسأل

ولا تســقنـي الا حلالاً فانني
أعاف من الاشـيـاء ما لا يحلل(٢٩٥)

ولعبدالله بن المعتز ذكريات جميلة في ربوع سامراء وضواحيها ، اذ كثيرا ما كان يتردد على المطيرة والقادسية والكرخ في سامراء، وله فيها جميعا أشعار كثيرة • من ذلك قوله في الكرخ :

سقى الله نهر الكرخ ما شاء جوده
فاني بـه حتى الممـات مكلف

ولا حرم القصـر الخليج وجسره
وقصـر لاشناس عليه مشـرّف

تدور علينا الراح من كف شـادن
له لحظ عين يشتكي السقم مدنف

كأن سلاف الخمـر من ماء خده
وعنقودها من شعره الغض يقطف

(٢٩٥) أنظر : الاغاني ١٧/١٢٦ ، ٢٠/٨٣ ٠

أتعذلنــي في يوسف وهو من ترى
ويوسف أبلاني ويوسف يوسف(٢٩٦)

وقوله في القادسية ، وفيه اشارة الى ما كانت عليه من الكروم المعرشة ومواطن القصف واللهو :

يا رب يوم قــد مضــى بالقادسـية لـو يــدوم
فــي ظل كرم لا يطــ ـوف به الهجير ولا السموم
وسـماؤه الورق الجديد وأرضـه الورق الهشيم
ويحثنــي بالكأس سـاق لحظ مقلتــه سـقيم
أغــرى بقبلتــه كمــا يغــرى بمرضعة يتيـم
يا من يلوم على الهـوى دعنــي فذا داء قديم(٢٩٧)

وله في المطيرة والقادسية المذكورة اشعار أخرى سنذكرها عند الكلام على الاديرة •

والى جانب هذه المجالس الحافلة باصناف اللذائذ والمسرات ، وأنواع الازهار والاوراد مجالس أخرى ، لا يجـد فيها الندمـاء ما ينشدون من جمال المكان ووفرة الطعام ، وكثرة النقول وروعة الغنـاء ، وهي مجالس أولئك الكتاب أو الوزراء الذين يتعرضون للنكبة والمصادرة ، والذي منها هذا المجلس الذي يصفه لنا أبو عبادة البحتري وصفاً دقيقاً مؤثراً في قوله :

ويـــوم بالمطيــرة أمطرتنــا
سـماءٌ ، صوبُ وابلها عُقــار
نزلنــا منزل الحسن بن وهب
وقد درست مغانيــه القفــار

(٢٩٦) ديوان ابن المعتز ص٢٣٧ـ٢٣٨ القصر المشرّف : المطوّل
(٢٩٧) المصدر نفسه ص ٢٤٦ •

تلقيتـــا الشـــتاء بـــه ، وزرنـــا
بنـــات اللهو ، اذ قرب المـــزار
أقمنـــا أكلنـــا أكل اســـتلاب
هنـــاك ، وشـــربنا شـــرب بدار
تنازعنـــا المدامـــة ، وهي صـــرف
واعجلنـــا الطبـــائخ ، وهـــي نار
ولم يك ذاك ســـخفاً ، غير انـــي
رأيت الشـــرب ، سخفهم الوقار
رضـــينا من مخـــارق وابن خير
بصـــوت الاثل ، اذ متع النهـــار
تزعزعـــه الشـــمال ، وقد توافـــى
على أنفاســـها قطـــر صـــغار
غـــداة دجنـــة للغيث ، فيهـــا
خـــلال الروض ، حج واعتمـــار
كأن الريح والقطـــر المناجـــى
خواطرهـــا ، عتـــاب ، واعتـــذار
كـــأن مـــدار دجلـــة ، حين جاءت
بأجمعها ، هلال ، أو ســـوار(٢٩٨)

• • •

(٢٩٨) ديوان البحتري ٢/٣٣٠-٣٣١ • هـــذه الابيات من قصيدة للبحتري يمدح بها الحسن بن وهب الذي نكب مع أخيه سليمان بن وهب في عهد الخليفة الواثق ، إذ ألزمهما بدفع أموال طائلة ، وذلك في ســـنة ٢٢٩هـ • أنظر : ديوان البحتري ص١٥٨ ، ٩٥٩ الحواشي طبعة الصيرفي •

الاديـــرة :

انتشرت الاديرة والحانات في ربوع سامراء وضواحيها انتشاراً كبيرا وبخاصة في المطيرة والقادسية • وكانت تلك الاديرة ببساتينها الفســيحة وأبنيتها المريحة ، وقاعات شرابها الباردة ونظافة خماريها من القساوسة ، وجمال سقاتها من الفتيات ، مجتمع أهل البطالات ، ومقصد طلاب اللذات من السامرائيين والبغداديين(٢٩٩) • وكثيرا ما كان الادباء والشعراء يختلفون الى تلك الاديرة وحاناتها ، فيقيمون في أكنافها الأيام والليالي ، يشـربون خمورها المعتقة ، ويتغزلون بسقاتها اللطاف ، وخماراتها الحسان • وقـد حفظت لنا كتب الادب الشـيء الكثير مما قاله الشـعراء والادباء في تلك الاديرة وحاناتها ، وما كانوا يلقونه من التمتع واللذة في ربوعها •

وربما كانت هذه الاديرة الانيقة ، وحاناتها النظيفة سببا في دفع بعض الخلفاء لان يتخذ له ولحاشيته حانات خاصة بهم ، فقد قيل : ان الخليفـة الواثق عقد له حانتين : احداهما في دار الحرم ، والاخرى على الشط ، واختار لادارتها خمارين خاصين يجمعون بين المهارة واللطافة والكياســة والظرافـة(٣٠٠) •

وكثيرا ما كان الواثق يتردد الى حانة الشط المذكورة ، فيصطحب معه ندماءه من الشعراء والمغنين والملهين • ومما يروى في هـذا الشأن • أنه أمر ندماءه يوما بالقيام الى حانة الشط فشرب بها وطرب ، وأمر لجميع من حضر معه ذلك اليوم بالصلات السنية والهدايا الجليلة • وكان في جملة من حضر معه ذلك اليوم الحسين بن الضحاك ، فقال في هذه الحانة ابياته المشـــهورة :

---

(٢٩٩) أنظر : الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٢٠/٢٧٦

(٣٠٠) أنظر الحان الحان لعبدالرحمن صدقي ص٣٠ـ٣١

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا
عودي بيوم سرور كالذي كانا

لا تفقدينا دعابات الامام ولا
طيب البطالة اسراراً واعلانا

ولا تخالعنا في غير فاحشة
اذا يطرّبنا الطنبور أحياناً

وهاج زمر زنام بين ذاك لنا
شجواً فأهدى لنا روحاً وريحانا

وسلسل الرطل عمرو ثم ّعمّ به السقـ
ـيا فالحق أولانا بأخرانا

سقياً لشكلك من شكل خصصت به
دون الدساكر من لذات دنيانا

حفت رياضك جناتٌ مجاورةٌ
في كل مخترق نهراً وبستانا

لازلتِ آهلة الاوطان عامرة
بأكرم الناس أعراقا واغصانا(٣٠١)

وأما الاديرة الواقعة بالقرب من سامراء وضواحيها ، فأهمها :

دير عبدون :

وكان بالقرب من المطيرة ، وسمى بهذا الاسم نسبة الى عبدون بن مخلد اخي صاعد بن مخلد وزير الموفق ، وذلك لكثرة اختلافه اليه واقامته فيه وعنايته بعمارته(٣٠٢) . وكثيرا ما كان الادباء والشعراء يترددون اليه ،

(٣٠١) الاغاني ٦/١٩١

(٣٠٢) أنظر معجم البلدنا ٢/٥٢٢ ، ووفيات الاعيان ٢/٢٦٧

ويلمون بصاحبه عبدون ، وممن كان يختلف اليه أبو عبادة البحتري فقد أشار الى الدير المذكور عند زيارته وابن خرداذبه ، عبدون في يوم فصح قـــال :

أبلـغ لديك « عبيدالله » مألكـــة
وما بــدار « عبيدالله » من بعـــد
أضحت «بقُطرّبَّل » والدير حلتــه
وما يجاور بيت النـار ذا العُمُد
لم تدر ما بي وما قد كان بعدك من
نفاستي لك في « عبدون » أو حسدي
أغرُ أحسَبُ نُعماه الجليلة من
ذخائري لصروف الدهر أو عُددي
اذا مضى اليوم لانلقـاه فيه مضـــى
سرورُنا وترقبنـــا مجـــيء غـد
إن فات في السبت ان نزدار سـيدنا
فلا تفتنا لشـيء زورة الاحـــد(٣٠٣)

ولعبدالله بن المعتز أبيات يذكر فيها هذا الدير وموقعه ، ويشـير الى رهبانه ذوى المسوح السود ، المزنرين على الاوساط ، المكللين الرؤوس بالشعور ، والذين يرتلون صلواتهم في غرة الفجر ، ويشـير كذلك الى فتيانهم الملاح وما كان يجرى بينه وبينهم من العبث والمجون ، ويبدو ان ابن المعتز قد حذا في إبياته هذه جذو النواسي في بعض مجونياته ، قال :

سقى المطيرة ذات الظل والشجر
ودير عبـدون هطـال من المطـر

(٣٠٣) ديوان البحتري ص٥٥٤ طبعة الصيرفي

فطالما نبهتني للصبوح بها
في غرة الفجر والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير في صلاتهم
سود المدارع نعّارين في السحر
مزنرين على الاوساط قد جعلوا ،
على الرؤوس أكاليلاً من الشعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل
بالسحر يطبق جفنيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استقاد له
طوعاً واسلفني الميعاد والنظر
وجاءني في قميص الليل مستتراً
يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
فقمت أفرش خدى في الطريق له
ذلاً ، وأسحب اذيالي على الاثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
مثل القلامة قد قدت من الظفر
وكان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر(٣٠٤)

ولابن المعتز أبيات أخرى يشير فيها الى دير بالمطيرة ولم يسمه ، ولعله كان يريد به دير عبدون المذكور ، قال :

(٣٠٤) ديوان ابن المعتز ص٤ ، وانظر معجم البلدان ٢/٥٢٢

وفتيـــان لهــو غــدوا للصــبوح
وقــد قدح الليل فجراً واورى

ندامــى فــلا ذا يمــاري لـــذا
ولا ذاك يجلس عـن ذاك دورا

بديـر المطـــيرة نقـرى المـدام
لـدى القس لمـــا اتينـاه زورا

اذا ما (طعنـا) بطـــون القنـــان
ســاردم الكرم عنهن ســـورا(٣٠٥)

وله في المطيرة أيضـا :

ألاحـى ربعـــاً بالمطـيرة أعجمـا
فلو كلـّمتْ أرض اذاً لتكلمـــا

ويـوم ذعرت الوحش فيــه بسابح
اذا ما دنت خيل الطراد تقدمـــا

وان شئتُ غادتنــي السقاة بكأسها
وقد فتح الاصباح فــي ليلة فمـا

فخلف الدجى والفجر قد مد خيطه
رداء موشـــى بالكواكب معلمـــا

وغزلان ناس لم يـُرَيْنَ سوانحاً
يـُسارقن لحظاً أو سلاماً مكتـّما

---

(٣٠٥) ديوان ابن المعتز ص٢٢٩ شرح محيي الدين الخيــاط ٠ في الديوان « اطعن » وهو خطأ ٠

تغنى عليهن المناطقُ كلما
مشين فما يتركن قلباً مسلّما

مزجن زماناً بالعيون عيوننا
كما شعشع الساقي الرحيق المختما

ورحن الينا بالعشي كأنما
ثني مشيهُن الخيزرانَ المقوما(٣٠٦)

وله فيها وفي بعض الاماكن التي كان يرتادها :

إن أذكر الكرخ لا أنسى المديرات
وبالمطيرة أيامي وليلاتي

منازل لم يضر عنقود كرمتها
ان لم يكن بقرى هيت وعانات

حتى اذا تمَّ أهدته معاصره
للشمس بين دساكير وحانات

وظل خماره يكسوه طينته
فلانساً ركبت في غير هامات(٣٠٧)

ولعبدالله بن محمد بن عبدالملك الزيات ـ وكان يقيم في المطيرة يشرب في حاناتها ويستمتع بانغام جاريته شمول ـ أبيات له كتب بها الى جحظة البرمكي يقول فيها :ـ

شربنا بالمطيرة ألف يوم
صبوحاً قبل ان يبدو النهار

(٣٠٦) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص١٣١ـ١٣٢
(٣٠٧) المصدر نفسه ص١٨٠

وأفنينا العقار بها جهاراً
فلم يصبح بحانتها عقار
وضجّ البائعون بها وقالوا :
أناس يشربون أم البحار ؟
هم ناس ولكن أي ناس
لصحبة مثلهم خلع العذار

فرد عليه جحظة بقوله :

لي من تذكرى المطيره
عينٌ مُسهّدة مطيره
سخِنت لفقد مواطن
كانت بها قدماً مريرة
أيام للايام احسـ
ـان وأفعال نضيره
أيام نحوي حيث كنـ
ـت لعاشق كفّ مشيره
في فتية لم يعرفوا
لدوام نيلهم ذخيره(٣٠٨)

ومن ذلك قول عبدالله بن العباس الربيعي أيضاً في وصف ما كان يلقاه واخوانه في المطيرة من الانس والشرب :ـ

يا طيب نومي بالمطيرة معملاً
للكأس عند محمد بن الحارث
في فتية لا يسمعون لعاذل
قولا ، ولا لمسوف أو رائث(٣٠٩)

---

(٣٠٨) أنظر ذيل الامالي والنوادر ص٩٧
(٣٠٩) الاغاني ١٢٦/١٧ ، الرائث : المبطىء

وظاهر ان هذه الامثلة تشير بوضوح الى ما كانت عليه المطيرة من طيب المكان ووفرة الشراب ، الامر الذي جعلها موطناً ومرتاداً لذوى القصف واللهو والمجون !

دير مرماري (أو مرمار) :

وكان يقع في جنوب سامراء بقليل ، بالقرب من قنطرة وصيف[٣١٠]. وقد ذكره الشابشتي في الديارات ، وأشار الى انه كان عامرا كثير الرهبان تحفه الكروم والاشجار ــ وكان من المواضع النزهة والبقاع الطيبة الحسنة[٣١١].

وكان الخليفة المعتز يختلف اليه ، ويقيم فيه بضيافة رهبانه وقساوسته الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم في حسن خدمته، وجميل تكريمه[٣١٢] كما كان مرتادا لذوى القصف واللهو من الادباء والشعراء[٣١٣] وفي هذا الدير يقول الفضل بن العباس بن المأمون :

أنضيت في سر من را خيل لذاتي
ونلت فيها مُنى نفسي وشهواتي

عمرت فيها بقاع اللهو منغمساً
في القصف ما بين أنهار وجنات

بدير مرمار اذ نحيى الصبوح به
ونعمل الكأس فيه بالعشيات
بين النواقيس والتقديس آونة
وتارة بين عيدان ونايات

---

(٣١٠) انظر الديارات ص١٠٤ هامش (٣)
(٣١١) انظر الديارات ص١٠٤
(٣١٢) المصدر نفسه ص١٠٤ ، ١٠٥
(٣١٣) انظر معجم البلدان ٢/٥٣٦

وكم به من غزالٍ أغيدٍ غـزل
يصيدنا باللحـاظ البابليـات[٣١٤]

دير السوسي :

وكان من الاديرة اللطيفة الواقعة في قادسية سامراء ، على الضـفة الغربية من نهر دجلة ، وكثيرا ما كـان الناس يقصـدونه ويشـربون في بساتينه، اذ كان من مواطن السرور واللهو ومواضع القصف واللعب[٣١٥]. وجاء ذكره في قول عبدالله بن المعتز :

علّلانـي بصـوت ناى وعـود
واسقيانـي دم ابنـة العنقـود

يـا ليالـي بالمطـيرة فالكـر
خ ودير السوسي بالله عـودى

كنت عنـدى أنموذجـات من الجـ
ـنة لكنهـا بغـير خلـود

أشـرب الراح وهي تشرب عقلي
وعلى ذاك كـان قتـل الوليد[٣١٦]

ولابن المعتز أبيات أخرى يذكر فيها القادسية ، ويشير الى ما كـان فيها من الكروم المعرشة والمياه الغزيرة . وما كان يتمتع به من قصف ولهو وما يلقاه من عناية الخمارة القبطية ذات العيون الساحرة والمناطق الذهبية . ومن المحتمل أن يكون قد أراد بأبياته هذه دير السوسي المذكور : قال :

---

(٣١٤) انظر الديارات ص١٠٤ ، ومعجم البلدان ٢/٥٣٦
(٣١٥) انظر الديارات ص٩٦ ، ومعجم البلدان ٢/٥١٨
(٣١٦) انظر أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص١٨٧ والديارات ص٩٦ ومعجم البلدان ٢/٥١٨ .

كم غـدوة وعشـيّه نعمـت بالقادسـيه
وكـم هجير وقتنـي من حـرّ شمس ذكيـه
معرشـات كـروم أبناؤهـا حبشـيه
لم يبق من وهج الشـ ـمس بينهـن بقيـه
يسـكرن أنهار مـاء زرقـاً عذاباً نقيـه[317]
تحكـى ذوائبهـا فـي رواحهـا والمجيـه
عقاربـاً شـائلات اذنابهـا محميـه
تـدب فـوق زجـاج مصقولـة طبريـه
وان أردت سـقتنى خمـارة قبطيـه
ترنـو بعين غـزال سـحّارة بابليـه
جـاءت الـيّ تهادى عشـية شـاطريه
فـي قرطـق خصـرته منـاطق ذهبيـه
قـد زردت فـوق فرع مـن فوقـه شمسيه
يـا طيب ذلك عيشـاً لـو صـالحتني المنيـه
سـقياً لعصـر شـبابي اذ لمتـى سـبجيه
وإذ أمـدّ ردائـي بقامـة خطيّـه
فالآن آنسـت للعـذ ل واسـتمعت الوصـيه
وبيضـتْ شـعرات فـي مفرقـي فضيه[318]

(٣١٧) يسكرن : يملأن

(٣١٨) ديوان ابن المعتز ص٢٥٣ـ٢٥٤ ، يبدو أن ابن المعتز يريـد بلفظة (شمسية) هنا ، الشعر الكثيف الذي كللت به هـذه الساقية فرعها · ويبدو أن هذه اللفظة مولدة ·

وواضح ان قصيدة ابن المعتز هذه ـ بما اشتملت عليه من خفة الوزن ، وبراعة التشبيه ، وجمال الوصف ـ تعكس لنا صورة صادقة ـ وان لم تكن جديدة ـ لما كان يجده الشعراء في اكناف تلك الحانات والاديرة من ضروب اللهو والعبث ، وبخاصة من أولئك الخمارات والسقاة الذين كانت تعج بهم تلك المقاصف !

دير السوسن :

وكان بالقرب من سامراء وجاء ذكره فيما رواه ياقوت في معجمه من أن أحمد بن أبي طاهر قصد أحد الكتاب في سامراء ، بشعر يمدحه فيه ، وبعد أن نال جائزته قفل راجعا الى بغداد ، وبينما هو على مسافة فرسخ من سامراء ، اذا بالسماء تأخذه بأمر عظيم من المطر ، فالتجأ مع غلامه الرومي الذي كان من جملة ما وهب له ، الى دير يسمى « السوسن » فاستقبل من راهب الدير الذي طلب اليه أن يبيت عنده ليشرب ويقصف وينتظر سكون المطر ، وجفاف الطريق ، فمكث أحمد ليلته في الدير والغلام يسقيه والراهب ينادمه(٣١٩) وقد وصف لنا ابن ابي طاهر ذلك في قوله :

سقى سر من را وسكانها
وديراً لسوسنها الراهب
سحاب تدفق عن رعده الـ
ـصفوق وبارقه الواصب
فقد بت في ديره ليلة
وبدر على غصنٍ صاحبي
غزال سقاني حتى الصبا
ح صفراء كالذهب الذائب

---

(٣١٩) انظر معظم الادباء لياقوت ٣/٩٥ـ٩٦

علـى الورد من حمـــرة الوجنتـ
ـين وفي الآس من خضرة الشارب
ســــقاني المدامـــــة مســـتيقظاً
ونمت ونـــــام الى جانبـــــي

••••••

فيـا رب تب واعف عـن مذنب
مقــــرّ بزلتــــه تائـــب(٣٢٠)

عمر نصر :

وكان بسامراء وكثيرا ما كان الحسين بن الضحاك يختلف اليـــه فيشرب فيه ويقصف ، وقد وصف لنا في احدى قصائده زيارة من زياراته لذلك الدير ، فأشـــار الى انه قد حرك سواكن صـــب كان قد أقلع عن الغواية ، وأقصر عن المجون ، وأشار كذلك الى الصلوات التي كان يقيمها الرهبان والاساقف في مذبح ذلك الدير وفنائه ، ووصف احتفال خمـار الحانة برواده من الشرب ، وما كان يبديه لهم من عناية واهتمام • ولم ينس أن يصف جمال قد الخمّار ، وحسن تثنيه ، وسحر الفاظه ، وطيب ريقته ، كل ذلك بلفظ رشيق ، ومهارة في الوصف وقدرة على التصوير ، فقـــال :

يا عمر نصر لقد هيجت ساكنة
هاجت بلابل صب بعد اقصـــار
للـــه هاتفـــة هنّت مرجعــــة
زبــور داود طــوراً بعــد أطوار

---

(٣٢٠) معجم الادباء ٣/٩٧ــ٩٨

يحثهـا دالـق بالقدس محتنك
من الاسـاقف مزمور بمزمـار
عجت أسـاقفها في بيت مذبحهـا
وعجّ رهبانهـا فـي عرصـة الدار
خمـار حانتهـا ان زرت حانته
أذكـى مجامرهـا بالعود والغـار
يهتـز كالغصن في سُلْب مسـوّدة
كأن دارسـها جسـم من القـار
تلهيك ريقتـه عن طيب خمرتـه
سـقياً لذاك جنى من ريق خمّار
أغـرى القلوب به الحاظ ساجية
مرهاء، تطرف عن اجفان سحار(٣٢١)

دير فثيون :

وكان بسامراء أيضاً . ذكره ياقوت : فقال : « دير بسر من رأى حسن نزه ، مقصود لطيبه وحسن موقعه » قال فيه بعض الادباء :

يا رب ديـر عمرتـه زمنـاً
ثـالث قسيسـه وشماسـه
لا أعدم الكأس من يدى رشـأ
يزرى على المسـك طيب أنفاسـه
كأنـه البدر لاح فـي ظلم الليـ
ـل اذا حـلّ بين جلاسـه

(٣٢١) معجم البلدان ١٥٥/٤ ، وانظر الحـان الحـان لعبدالرحمن صدقي ص٦١

كأن طيب الحياة واللهو والـ
ـلذة طراً جُمعن في كاسه

في دير فثيون ليلة الفصـ
ـح والليل بهيم نـاء بحراسه(٣٢٢)

وأشار جحظة البرمكي في أبيات له الى أديرة وحانات سامراء التي كان يختلف اليها فيشرب واصحابه في أكناف رهبانها وقساوستها ، فقال :

الاهل الى دير العذارى ونظرة
الى الخير من قبل الممات سبيل ؟

وهل لي بسوق القادسية سكرة
تعلل نفسي والنسيم عليل ؟

وهل لي بحانات المطيرة وقفة
أراعى خروج الزق وهو حميل ؟

الى فتية ما شتت العذل شملهم
شعارهم عند الصباح شمول

وقد نطق الناقوس بعد سكونه
وشمعل قسيس ولاح فتيل

يريد انتصاباً للمقام بزعمه
ويُرعشه الادمان فهو يميل

يغنى وأسباب الصواب تمده
وليس له فيما يقول عديل(٣٢٣)

---

(٣٢٢) معجم البلدان ٢/٥٢٥
(٣٢٣) المصدر نفسه ٢/٥٢٢

كما أشار في أبيات أخرى ، يذكر فيها القاطول والقادسية ، الى ما كان يلقاه من قصف ولهو في الحانات المبثوثة هناك ، والى ما كانت عليه تلك المواطن من كثرة الطير ووفرة الصيد ، كما وصف لنا تغليس الشرب الى الحانات ، وما كانت تفعله الخمرة فيهم ، وهي أمور رددها كثيرا أبو نواس واضرابه من شعراء الخمر والحانات ، فقال :

ألاهل الى الغدران والشمس طلقة
سبيل ونور الخير مجتمع الشمل

ومستشرف للعين تغدو ظباؤه
صوائدَ الباب الرجال بلا نبل

الى شاطيء القاطول بالجانب الذي
به القصر بين القادسية والنخل

الى مجمع للطير فيه رطانة
يُطيف به القناص بالخيل والرَجْل

فجاءته من عند اليهودي انها
مشهرّة بالراح معشوقة الأهل

وكم راكب ظهر الظلام مغلّس
الى قهوة صفراء معدومة المثل

اذا نفذ الخمار دناً بمبزل
تبينت وجه السكر في ذلك البزل

وكم من صريع لا يدير لسانه
ومن ناطق بالجهل ليس بذى جهل

ترى شرس الاخلاق من بعد شُربها
جديراً ببذل المال والخُلق السهل

جمعت بها شمل الخلاعة بُرهـةً
وفرقّت مالا غير مصغ الى العذل

لقد غنيت دهـراً بقربـي نفيسـةً
فكيف تراها حين فارقها مثلـي(٣٢٤)

* * *

مَواطن الصيد :

وكانت تلك الضواحي اضافة الى كونها متنزهات للمتطربين ، ومناخات لذوى القصف واللهو ، مواطن للصيد والقنص يقصدها الخلفاء في أوقات مختلفة لوفرة ما فيها من أنواع الطيور : كالاوز والدراج وطير الماء وغير ذلـك .

وكثيرا ما كانوا يتخذون لذلك سفينة عظيمة تدعى « الزّو » يهيأ فيها للخليفة وحاشيته ما يحتاجونه من مجالس اللهو والشرب والطرب .

وقد حفظت لنا كتب الادب الكثير من أوصاف الشعراء للسفينة التي كان يتخذها الخلفاء لهذا الغرض ، ولما كان يجرى في تلك الحفلات من أمور ، ومما يروى في هذا الصدد ـ ان الواثق خرج يوما للتصيد بالقاطول في السفينة المعروفة بالزو فصـاد صيدا حسنا من الاوز والدراج وطير الماء ، ثم رجع فتغدى ودعا بالجلساء والمغنيين ـ وبعد ان انتشى وطرب سأل عمن ينشده من الشعراء في حفلة الصيد هذه ، فقام الحسين بن الضحاك ، فقـال :

سـقى الله بالقاطول مسرح طرفكا
وخصّ بسـقياه منـاكب قصـركا

حتى انتهى الى قوله :

---

(٣٢٤) معجم البلدان ٤/٢٩٧

تحيّن للدُراج في جنباته
وللغر آجال قُدِرْنَ بكفكا

حتوفاً اذا وجهتهن قواضباً
عجالاً اذا أغريتهن بزجركا

أبحت حماماً مصْعِداً ومصوّباً
وما رمت في حاليك مجلس لهوكا

تصرف فيه بين ناي ومسمعٍ
ومشمولة من كف ظبي لسقيكا

قضيت لبانات وانت مخيم
مريح وإن شطت مسافة عزمكا

وما نال طيب العيش الا مودّع
وما طاب عيش نال مجهود كدكا(٣٢٥)

ومن أوصاف الشعراء للسفينة المذكورة ، قول يزيد بن محمد المهلبي من أرجوزة له :

حتى اذا السرب انبرى فاجتهدا
حطت عليهن البزاة مَددا

تجمع فيها كل ما تبددا
تصيد بحراً وتصيد جددا

من كل ما أحببت أن تصيدا
سمكة أو طائراً أو أسدا(٣٢٦)

---

(٣٢٥) الاغاني ٦/١٧١
(٣٢٦) الموشح للمرزباني ص٣٤٣

ومنها أيضاً ، قول البحتري من قصيدة له يمدح بها المتوكل ، ويشير الى احدى حفلات الصيد التي قام بها الخليفة المذكور ، وما رافقتها من اصطحاب المغنين والعازفين وتهيئة مجالس الشرب واللهو .

هل العيش الا ماء كرم مُصفَّق
يرقرقه في الكأس ماءُ غمام

وعودُ بَنان حين ساعد شدْوه
على نغم الالحان نايٌ زُنام

أبى يومنا بالزو الا تحسناً
لنا بسماع طيب ومُدام

غنينا على قصر يسير بفتيةٍ
قعود على أرجائه وقيام

تظل البزاة البيض تخطف حولنا
جآجىء طير في السماء سوام

تحدّر بالدراج من كل شاهق
مخضبة أظفارهن ، دوامي

فلم أر كالقاطول ، يحمل ماؤه
تدفق بحر بالسماحة طام

ولا جبلاً كالزّو يوقف تارة
وينقاد امّا قدته بزمام(٣٢٧)

ومنها أيضا قول البحتري من قصيدة يمدح بها المعتز ويشير الى هذه السفينة :

---

(٣٢٧) ديوان البحتري ١٦/١

تعجبت من فرعون اذ ظن أنــه
الــه لان النيل من تحته يجرى
ولو شــاهد الدنيا وجامع ملكهــا
لقل لديــه ما يكثّر من مصــر
ولــو بصرت عيناه بالزو لازدرى
حقــير الذي نالت يداه من الامر
اذاً لرأى قصــراً على ظهر لُجة
يروح ويغــدو فوق أمواجها يجرى
تصــاد الوحوش في حفافىْ طريقه
وتستنزل الطير العوالى على قسر(٣٢٨)

وواضح من هذه الامثلة ان السفينة المذكورة كانت ـ كما اسلفنا ـ تتخذ للنزهة ولحفلات الصيد ، وان البزاة البيض المدربة كانت تستخدم لصيد الطيور والحيوانات الاخرى ، وجمح الخيال ببعضهم فزعم انها كانت تصطاد السمك ايضاً .

وواضح كذلك أن هذه السفينة كانت ضخمة عظيمة ، مما حــدا بالبحتري أن يسميها مرة قصراً عائماً ، واخرى جبلاً ينقاد بزمام ، بل ذهب الخيال به الى ان يفخر بها على فرعون وما ملكت يداه من أمر .

(٣٢٨) ديوان البحتري ١/١٧٢ .

الفصل الرابع

محاولات الانتقال عن سامراء :

حاول غير واحد من خلفاء بني العباس الذين اتخذوا سامراء عاصمة لهم الانتقال عنها الى مكان آخر ، في ظروف مختلفة ، وأزمان متباعدة • ولو أردنا أن نتلمس الاسباب التي دعت أولئك الخلفاء الى التفكير في الانتقال عن هذه المدينة لما وجدنا غير سبب كبير تنطوي تحته أسباب فرعية أخرى • هذا السبب الاكبر هو نفس السبب الذي أدى الى ابتناء المدينة ، واتخاذها مقراً للحكم بدلا من العاصمة الاصلية بغداد • ونعني به استفحال أمر الاتراك واستشراء خطرهم على الخلفاء •

وقد مر بنا أن من أسباب ابتناء سامراء ، زيادة جنود المعتصم من الاتراك ، وضيق بغداد بهم ، واشمئزاز أهلها من أعمالهم وحماقاتهم ، مما حدا بالمعتصم الانتقال بهم الى مدينة جديدة بعيدة عن بغداد وأهلها[1] •

واستمرت علاقة الاتراك بالخلفاء حسنة ، ولا سيما في عهد الخليفتين المعتصم والواثق • بيد أن هذه العلاقة الحسنة ما لبثت أن توترت في عهد الخليفة المتوكل الذي حاول ــ بجد ــ أن يقاوم هذا العنصر الجديد ، ويقضي على عتوه وجبروته وعلى رأس هذا العنصر المتغطرس ايتاخ التركي الذي كان مسؤولا عن « الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة »[2] • واستطاع المتوكل أن يدبر لهذا القائد مكيدة يبعده بها عن سامراء ، ومن ثم يأمر بالفتك به والتخلص منه[3] غير أن

---

(١) أنظر ص١٠ـ١١ من هذا البحث •
(٢) تاريخ الطبرى ٣٣/١١ •
(٣) المصدر السابق ٣٣/١١ ، وأنظر ظهر الاسلام لاحمد أمين ٩/١ـ١٠ •

القضاء على قائد الاتراك هذا لم يكن ـ على ما يبدو ـ كافيــاً للتخلص من نفوذهم وشرورهم ، لذلك نجد المتوكل قد عمد الى وسيلة أخرى للنيل من الاتراك وخضد شوكتهم ، فعزم على الانتقال الى عاصمة أخرى في قطر آخر غير العراق ، عله يجد فيها من العنصر العربي ما يغنيه عن العنصر التركي ، فاختار لهذا الامر مدينة دمشق[٤] • وكتب الى عامله هناك « باتخاذ القصور واعداد المنازل ، واصلاح الطريق ، واقامة المرافد »[٥] • ثم شخص اليهــا من سامراء في سنة ٢٤٣هـ ودخلها في سنة ٢٤٤هـ • ولكنه لم يمكث فيهــا الا فترة وجيزة اضطر بعدهــا أن يعود الى عاصمته القديمة سامراء[٦] •

ويذكر المؤرخون أسباباً عديدة لترك المتوكل دمشق والاوبة الى سامراء فقد قيل : انه استوبأ البلد ، وذلك أن الهواء بها بارد ندي والماء ثقيل والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامــة الليل ، وهي كثيرة البراغيث وغلت فيها الاسعار ، وحال الثلج بين السابلة والميرة[٧] • على أن هناك سبباً آخر أشارت اليه المراجع القديمة ، لعله كــان السبب الحقيقي لترك المتوكل دمشق والرجوع الى العراق • فقد ذكر أن الجنود الاتراك حاولوا أن يدبروا مكيدة لاغتيال المتوكل في دمشــق • قــال اليعقوبي : « وبلغه ـ أي المتوكل ـ عن بعض الموالي من الاتراك أمر كرهه فشخص عن دمشق الى العراق »[٨] • وقال المسعودي : « وقد كان الاتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير »[٩] •

---

(٤) أنظر ظهر الاســلام لاحمد أمين ١/٩ـ١٠ ومحاضـرات الامــم الاسلامية للخضري ص٣٥٥ •

(٥) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٤ طبعة النجف •

(٦) أنظر تاريخ الطبري ١١/٥٥ وتاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٤ ومروج الذهب ٤/١١٤ •

(٧) أنظر تاريخ الطبرى ١١/٥٥ ووفيات الاعيان لابن خلكان ١/٢٠٢

(٨) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٤ •

(٩) مروج الذهب ٤/١١٥ •

ولا شك أن انتقال المتوكل بدواوين دولته الى عاصمته الجديدة دمشق قد أثر في سامراء وساكنيها تأثيراً سيئاً ، فانبرى الشعراء يعاتبون الخليفة على فعلته هذه ويحاولون تثبيط عزيمته ، فقال يزيد بن محمد المهلبي من قصيدة طويلة :

أظن الشام تشمت بالعراق ... اذا عزم الامام على انطلاق
فان تدع العراق وساكنيها ... فقد تبلى المليحة بالطلاق[١٠]

وتذكر بعض المراجع سبباً آخر دعا المتوكل الى الانتقال عن سامراء الى دمشق ، ذلك أنه كان محروراً ، فوصف له برد هوائها ، وطيب مناخها. قال اليعقوبي : « وعزم المتوكل على المسير الى دمشق ووصف له برد هوائها وكان محروراً ، فكتب الى عامله محمد بن أحمد بن مدبر يأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل ... »[١١] . وربما كان من أسباب تفكير المتوكل في الانتقال عن سامراء الى دمشق ، عصبية البحتري للقطر الذي ينتمي اليه. اذ أنه ـ كما هو معروف ـ قد ولد في منبج احدى مدن الشام وكثيراً ما أغرى المتوكل ورغبه في الانتقال الى دمشق ، التي أطراها له كثيراً ، وأشاد بمناخها اللطيف وهوائها العليل ، فقال من قصيدة يمدحه بها :

ان دمشقاً أصبحت جنة ... مخضرّة الروض ، غداةَ البراق
هواؤها الفضفاض غض الندى ... وماؤها السَلسال عذب المذاق
والدهر طَلْق بين أكنافها ... والعيش فيها ذو حواش رقاق
ناظرةٌ نحوك مشتاقةٌ ... منك الى القرب ووشك التلاق
وكيف لا تؤثرها بالهوى ... وصيفها مثل شتاء العراق[١٢]

---

(١٠) تاريخ الطبري ١١/٥٥ .
(١١) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٤ وأنظر مرآة الزمان ٦/٤٥٦ مخطوط بدار الكتب رقم ٩٢٧٦ .
(١٢) ديوان البحتري ١/٣٠٢ .

وحاول البحتري أن يزيد في اغراء المتوكل بدمشق وتحبيبها اليه والاقامة فيها فاندفع يهجو العراق وجوه ويشيد بدمشق ومناخها ، فقال :

قد رحلنا عن العرا	ق وعن قيظها النكدْ
حبذا العيش في دمشـ	ـق اذا ليلها بَرَدَ
حيثُ يستقبلُ الزما	نُ ويُستحسن البلد
سفرٌ جددت لنا الـ	ـلهو أيامهُ الجُدُد
عزم الله للخليـ	ـفة فيه على الرشد
ملك تعجز البريـ	ـة عن حل ما عقد
يا امام الهدى الذي احتـ	ـاط للدين ، واجتهد
سر بسعد السعود في	صُحبة الواحد الصمد
وابق في العز والعلـ	ـو لنا آخر الابد(١٣)

وقال أيضاً :

نَصَبٌ الى طيب العراق وحسنها
ويمنع منها قيظَها وحَرُورها

هي الارض نهواها اذا طاب فصلُها
ونهرب منها حين يحمى هجيرها

عشيقتُنا الاولى وخُلتنا التي
تحب وأن أضحت « دمشق » تغيرها

عنيت بشرق الارض قدماً وغربها
أجوب في آفاقها وأسيرها

فلم أر مثل « الشام » دار اقامة
لراح تغاديها وكأس تديرها

(١٣) ديوان البحتري ١/٢٠ .

مِصَحةُ أبدان ونُزهة أعينٍ
ولهوُ نفوس دائمٌ وسرورها

مقدسةٌ جاد الربيعُ بلادَها
ففي كل دار روضةٌ وغديرها

تباشرَ قطراها وأضعف حسنها
بأن أمير المؤمنين يزورها(١٤)

واستمر البحتري يرغب المتوكل في دمشق ـ بعد أن وصلها ـ ويصف له محاسنها وجمال مناظرها فقال :

أما دمشق ، فقد أبدت محاسنها — وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد — مستحسن وزمان يُشبه البلدا
يُمسي السحاب على أجبالها فِرقاً — ويصبح النبت في صحرائها بَددا
فلست تبصر الا واكفاً خضلاً — أو يانعاً خضراً ، أو طائراً غردا
كانما القيظ ولى بعد جيئته — أو الربيع دنا من بعد ما بعُدا(١٥)

ولكن البحتري الذي اندفع يطري دمشق ويعدد محاسن جوها ولطافة مناخها ما لبث ـ بعد أن صمم المتوكل على العوذة الى سامراء ـ أن تراجع عما كاله لمدينة دمشق من الصفات الحسنة والمزايا الفريدة ، فانبرى يتلمس الاسباب ، ويختلق المعاذير التي أدت الى رجوع المتوكل ، وهي لا تخرج في مجموعها عن اشتياقه لقصره الجعفري ، ومدينته سامراء التي تمتاز برقة الليل ، وبرد الضحى ، واعتدال الاصيل ، بل اندفع يذم دمشق للمتوكل ويحبب اليه النزوح عنها فقال :

---

(١٤) ديوان البحتري ص٩٤٣ ـ ٩٤٤ طبعة الصيرفي .
(١٥) المصدر نفسه ١/٢٦ .

فلا سُقيت غيثاً دمشقُ ولا غدتْ
عليهـا غوادي مزنـة لعهادهـا

وقد سرني أن الخليفـة جعفـراً
غـدا زاهداً في أهلهـا وبلادها[١٦]

وقال يصف سامراء بعد عودة المتوكل اليها من دمشق :

زهت سر من را بالخليفة جعفـر وعاد اليها حسنها وجمالهـا
صفا جوها لما أتاهـا ، وكُشفت ضَباتُها عنهـا ، وهبت شَـمالها
وكانت قد أغبرت رباهـا وأظلمت جانبُ قطريها وبـان اختلالها[١٧]

وجرت محاولة ثانية للانتقال عن مدينة سامراء ، وكانت هذه المرة في عهد الخليفة المستعين ، وكان السبب المباشر لهذا الانتقال هو السبب عينـه الذي حدا بالمتوكل الانتقال عن سامراء والرحيل الى دمشق • فبعد وفـاة المنتصر بن المتوكل اجتمع قواد الاتراك وتشاوروا فيمن سيخلفه من الابناء ، فاستبعدوا من الاستخلاف أبناء المتوكل خوفاً من نقمتهم عليهم وأخذهم بثأر أبيهم ، فلم يجدوا خيراً من المستعين ولد سيدهم واستاذهم المعتصم[١٨] • بيد أنه لم يمض على حكم المستعين سـوى سنتين وأشهر حتى اضطربت أموره في سامراء بسبب قتله باغر التركي قاتل المتوكل فهاجت الاتـراك وماجت[١٩] ، فلم يكن له بد من الهروب متسللا مع قائديه الغالبين عليه ، وصيف وبغا والانحدار سراً في سفينة الى بغداد ، مقـر العنصـر المناوىء للاتراك والمشايع له في مقاومتهم ، فهجاه بسبب هذا الفرار والانحدار الى

---

(١٦) ديوان البحتري ص٧١٥ طبعة الصيرفي •
(١٧) المصدر نفسه ٣٠١/١ •
(١٨) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٥٨ •
(١٩) أنظر كتاب البلدان لليعقوبي ص٣٢ وتاريخ الطبرى ٩٧/١١ ومروج الذهب ١٦٢/٤ •

بغداد الشاعر المعروف بالربهمي[٢٠] .

وعلى الرغم من أن أهل بغداد قد رحبوا بالخليفة وأبدوا مساعدتهم له ، فانهم كانوا متشائمين مما سيؤول اليه الامر ، فقال شاعرهم في ذلك :

لعمري لئن قتلوا باغـــراً　　لقد هاج باغر حرباً طحونا
وفـــرّ الخليفـــة والقائـدا　　ن بالليـــل يلتمسون السفينا
وحلَّ بغـداد قبل الشروق　　فحلّ بهم منـه ما يكرهونا
فليت الســفينة لـــم تأتنـا　　وغرقها اللـه والراكبينا[٢١]

وصدقت نبوءة الشاعر ، فقد استمر الصدام والقتال بين أهل سامراء وخليفتهم المعتز الذي نصبوه بدلا من المستعين ، وبين أهل بغداد وخليفتهم المستعين ، مدة تزيد على السنة ، حتى مل الطرفان التقاتل والتناحر ، ثـم آل الامر أخيراً الى تنازل المستعين عن الخلافة للمعتز[٢٢] . وبهذا تكـون المحاولة الثانية للانتقال عن سامراء قد باءت بالفشل أيضاً .

* * *

وجرت محاولة ثالثة للانتقال عن سامراء ، وذلك في عهد الخليفـــة المعتمد ، وكان السبب المباشر في ذلك اختلافه مع أخيه الموفق الذي استطاع بقدرته وجدارته الهيمنة على أخيه المعتمد الذي كان منصرفاً الى اللهـــو والملذات . ولكن المعتمد ما لبث أن وجد نفسه كالمحجور عليه ، والمغلوب على أمره ، وشعر أن الامر والنهي قد آلا الى أخيه ، وليس له من شـــأن الخلافة الا الاسم ، فقال في ذلك أبياته المشهورة :

أليس من العجـــائب أن مثلي　　يرى ما قـلّ ممتنعـــاً عليـــه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعـــاً　　وما مـن ذاك شيء في يديـــه

(٢٠) أنظر معجم الشعراء ص٤٠١ .
(٢١) معجم الادباء ٦/٣ .
(٢٢) أنظر مروج الذهب ١٦٣/٤ وتاريخ الخلفاء ص٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

اليه تحمل الاموال طـــرأ ويمنع بعض ما يجبى اليه[٢٣]

واحتدم الخلاف بين الموفق والمعتمد واشتد ، فحاول الاخير في سـنة تسع وستين ومائتين الفرار الى مصر وكاتب في ذلك أحمد بن طولون الذي كان والياً عليها ، ومشايعاً له في خلافه مع الموفق ، فخرج مع عدد من القواد والاتباع قاصدا الشام ـ فلما علم بذلك الموفق وكان مشغولا في هذا الوقت بقتال صاحب الزنج ـ كتب الى عامـــل الموصل والجزيرة ، اسحاق بـن كنداج بالقبض على المعتمد وأصحابه واعادتهم الى العاصمة سامراء ، فقـام ابن كنداج بتنفيذ ما طلب اليه وعذل المعتمد في شخوصه عن دار ملكـــه وملك آبائه ، وتركه أخاه وهو في حالة حرب مع الاعداء ، ثم حمله ومن كان معه مصفدين حتى وافى بهم سامراء[٢٤] •

وبقي المعتمد في سامراء حتى سنة تسع وسبعين ومائتين ، ثم عزم على الانتقال الى بغداد واعادة مقر الخلافة اليها ، وبذلك يكون قد حقق ما فشل به غيره من الخلفاء السابقين[٢٥] •

على أن بعض المراجع قد أشارت الى أن آخر من قام بالانتقال عـــن سامراء من خلفاء بني العباس هو المعتضد بن الموفق • قال ياقوت : « ولـــم تزل سر من رأى في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبية التي كانت بين أمراء الاتراك الى أن كان آخر من انتقل الى بغـــداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية « المعتضد » بالله أمير المؤمنين كما ذكرنا في التاج »[٢٦] •

---

(٢٣) تاريخ الخلفاء ص٣٦٥ •

(٢٤) أنظر تاريخ الطبري ٢٩٩/١١ـ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٨٢/٣ـ٨٣ وتاريخ الخلفاء ص٣٦٤ـ٣٦٦ •

(٢٥) أنظر كتاب البلدان لليعقوبي ص٣٢ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٧٣/٦ وبلدان الخلافة الشرقية ص٧٩ •

(٢٦) معجم البلدان ١٧٦/٣ وانظر آثار البـلاد للقزويني ص ٣٨٦ وظهر الاسلام لاحمد أمين ١٠٠/١ •

خرابها واندثارها :

أشرنا في غير موضع من هذا البحث الى أن ابتناء سامراء كان لاسباب خاصة ، وظروف معينة وألمحنا الى أن هناك عوامل كثيرة تضافرت لتجعل من سامراء مدينة عامرة زاهرة تضاهي أكبر المدن الاسلامية سعة وأعظمها بناء وتقدماً ، بل تهيأ لها من الظروف المادية والفنية ما جعلها تنمو وتزدهر في سرعة عجيبة لا مثيل لها في تاريخ انشاء المدن القديمة • وأشرنا كذلك الى أن محاولات عديدة قد جرت بعد استفحال أمر الاتراك وغيرهم ــ من قبل الخلفاء العباسيين للانتقال عن هذه المدينة • وكانت آخر محاولة من ذلك النوع ما قام به الخليفة المعتمد ، اذ أمر بنقل عاصمة ملكه نهائياً الى بغداد في سنة ٢٧٩هـ • وبذلك تكون سامراء قد فقدت الشريان الذي يمدها بالحياة والعلة التي كانت سبب بنائها ووجودها ، فما كاد الخليفة ينتقل بدواوينه وجيوشه الى بغداد حتى أخذ الخراب يسري في قصورها والدمار يدب في عمائرها • فاستحالت تلك الابنية الضخمة والمنشآت الفخمة الى أطلال تمتد الى مسافات شاسعة من الكيلومترات ، تبعث في القلب فزعاً ورهبة وفي النفس عظة وعبرة •

وقد وصفت لنا بعض المراجع القديمة ما أصاب هذه المدينة الزاهرة من الانقراض وما آلت اليه معالمها من التقوض ، ولما يمض على الانتقال عنها الا فترة وجيزة[٢٧] من ذلك ما كتبه عبدالله بن المعتز في رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه ، يصف فيها خراب سامراء واندراسها ، فقال : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى ، وكأن خرابها يُنشر ، وقد وكلت الى الهجر نواحيها واستُحث باقيها الى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار فالظاعن فيها ممحو الاثر

---

(٢٧) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ١١/٨٤ •

والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره أرجاف وسروره أحلام ليس لـــه زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشـير الى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرار الملك[٢٨] .

وقال المسعودي في معرض كلامه على صلب بابك الخرّميّ : « ... وصلبت جثة بابك على خشبة طويلة في أقصى سامراء ، وموضعه مشهور الى هذه الغاية يعرف بخشبة بابك وان كانت سامرا في هذا الوقت قد خلا منها ساكنها وبان عنها قاطنها ، الا يسيراً من الناس في بعض المواضع »[٢٩] .

وقال ياقوت مشيراً الى خرابها : « ... وكان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله أمير المؤمنـــين كما ذكرنا في التاج وخربت حتى لم يبق منها الا موضع المشهد .. ومحلة أخرى بعيدة عنها يقال لها كرخ سامراء ، وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر اليها بعد أن لم يكن في الارض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً »[٣٠] .

واستطرد ياقوت قائلا : « وذكر الحسن بن أحمد المهلبي في كتابــه المسمى بالعزيزي قال : وأنا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليـد رفعت عنهـا للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فأما حيطانها فكالجدد فما زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهي مقدار قرية يسيرة في وسطها ، ثم سرنا من الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو الظهر ، ولا شـك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ »[٣١] .

---

(٢٨) معجم البلدان ٣/١٧٧ وأنظر باقي الرســالة ص٥٦ـ٥٧ من هذا البحث .

(٢٩) مروج الذهب ٤/٥٨ .

(٣٠) معجم البلدان ٣/١٧٦ وأنظر آثار البلاد ص٣٨٦ وصـــبح الاعشى ٤/٣٣٢ وتقويم البلدان لابن أيوب ص٣٠٠ .

(٣١) معجم البلدان ٣/١٧٦ .

محاولة للعودة اليها :

بقيت سامراء محببة لدى خلفاء بني العباس حتى بعد أن هجرت في عهد المعتمد ، وأعيد مقر الخلافة الى بغداد • وكثيراً ما كانوا يترددون اليها للنزهة والصيد • وقد حاول الخليفة المكتفي العودة الى هذه المدينة والبناء فيها مجدداً • فخرج اليها في الثلث الاخير من شهر جمادي الآخرة في سنة ٢٩٠هـ ونزل في المضارب التي ضربت له في الجوسق ، ثم استدعى وزيره القاسم بن عبيدالله وبعض المختصين بشؤون البناء والعمارة ، وطلب منهم أن يقدروا له نفقة البناء والمدة اللازمة لذلك • ويبدو أن الوزير لم يكن متحمساً لهذا الامر ولا راغباً فيه ، لذلك حاول أن يخدع المكتفي ويكذبه فكثّر في تقدير نفقة البناء وطوّل في المدة اللازمة لاتمامه مما فت في عضد المكتفي فصرف نظره عن تنفيذ فكرته وأمر بالرحيل عن سامراء والعودة الى بغداد •

وقد أشار الطبري في حوادث سنة ٢٩٠هـ الى ذلك فقال : « ولعشر بقين من جمادي الآخرة خرج المكتفي بعد العصر عامداً سامراء مريداً البناء بهذا ، للانتقال اليها ، فدخلها يوم الخميس لخمس بقين من جمادي الآخرة ثم انصرف الى مضارب قد ضربت له بالجوسق ، فدعا القاسم بن عبيدالله والقوام بالبناء فقدروا له البناء وما يحتاج اليه من المال للنفقه عليه ، فكثروا عليه في ذلك وطولوا مدة الفراغ مما أراد بناءه ، وجعل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك ، ويعظم أمر النفقة في ذلك وقدر مبلغ المال فثناه عن عزمه ودعا بالغداء فتغدى ثم نام فلما هب من نومه ركب الى الشط وقصد الطيار ، وأمر القاسم بن عبيدالله بالانحدار ، ورجع أكثر الناس من الطريق قبل أن يصلوا الى سامرا حين تلقاهم الناس راجعين »(٣٢) وبذلك تكون محاولة المكتفي هذه لاعادة مقر الخلافة ثانية الى سامراء قد باءت بالفشل •

---

(٣٢) تاريخ الطبري ٣٨٠/١١ وأنظر رى سامراء ٥١/١ •

الحنين اليها والاعتزاز بها :ـ

لم يقطع خلفاء بني العباس علاقتهم بسامراء حتى بعد أن هجرت ، وكثيراً ما كانوا يقصدونها للنزهة والصيد . وكان المكتفي شديد الحب لسامراء شغوفاً بزيارتها فكان يأمر بتمهيد الطرق واعداد المؤن ، وتهيئة ما يحتاجه هو وأصحابه . وقد أشار الى ذلك الصابي في كتاب الوزراء فقال : « وحدث هارون بن ابراهيم النصراني الكاتب قال : حضرت مجلس القاسم بن عبيدالله في بعض الايام ، وبين يديه كتاب الدواوين ، اذ خرج اليه توقيع من المكتفي بالله يعرفه ما عزم عليه من الخروج الى سر من رأى للتصيد ويرسم له انفاذ من يصلح الطرق ، واعداد العلوفة والمير وما تدعو اليه الحاجة للعسكر »(٣٣) .

وكان المكتفي أحياناً يطيل اقامته في سامراء وربوعها ، حتى يدب الملل في نفوس حاشيته ومرافقيه ، وربما لجأ بعضهم الى انشاد أبيات من الشعر يلمح بها الى هذا الملل وينبه الخليفة للاوبة بهم الى بغداد ، وقد أشار الصابي الى هذا ، فقال : « ... وعاد المكتفي بالله من سفره بعد ان ضاقت صدور اصحابه وندمائه من طول مقامه وشدة البرد الذي يلاقونه ، والتقشف الذي يقاسونه ، وقال يحيى بن علي المنجم احد جلسائه :

قالوا لنا ان في القاطول مشتانا
ونحن نأمل صنع الله مولانا

والناس يأتمرون الرأي بينهم
والله في كل يوم محدث شانا

وغني المكتفي بذلك فسأل عن قائله ، فقيل : يحيى بن علي المنجم ، فأمر بالرحيل الى بغداد وشكر الناس يحيى بن علي على شعره (٣٤) .

---

(٣٣) الوزراء للصابي ص١٤٤ .
(٣٤) المصدر نفسه ص٢٥٢ .

كما كان الخليفة الراضي كثير الاختلاف الى سامراء ايضاً ، وله فيها ذكريات جميلة واوقات حميدة ، وقد أشار الى ذلك في قصيدته التي يمدح بها سامراء والتي منها قوله :

بسرّ من را بـــلاد الملك طاب لنـــا
معرّس عيشـــه باللهو منظـــوم

وجاء في النجوم الزاهرة ما يفيد بان الراضي قد زار سامراء والقى على منبرها خطبة يوم الجمعة . قل ابن تغري بردي : « قال الصولي : سئل الراضي ان يخطب يوم جمعة فصعد المنبر بسر من رأى ، فحضرت انا واسحاق بن المعتمد فلما خطب شنف الاسماع وبالغ في الموعظة »(٣٥) .

اما ابن المعتز ، فكان اكثر الناس حنيناً اليها ،واعتزازاً بها، ولا عجب في ذلك اذا ما تذكرنا انها مسقط رأسه ، ومهـــد صباه ، ومنبع أحلامه وذكرياته . وهذه الامور ــ دون شـــك ــ من اكبر الحوافز التي تحث الانسان على الاندفاع في الحنين الى وطنه والاعتزاز به .

ويجمل بنا في هـــذا الصـــدد ان نشير الى ان القول في الحنين الى الاوطان ــ في ادبنا العربي ــ قديم وكثير . من ذلك ــ على سبيل التمثيل لا الحصر ــ قول بعض الاعراب وفيه اشـــارة الى السبب الذي من أجله حبّب الوطن اليه :

ألم تعلمي يا دار ملحـــاء أنـــه
اذا أجدبت او كان خصباً جنابهـــا
أحبُّ بلاد الله مـــا بين منعـــج
اليّ وسلمى أن يصوب سحابهـــا
بلاد بها حلّ الشـــباب تميمتي
وأول ارض مسّ جلدي ترابها (٣٦)

---

(٣٥) النجوم الزاهرة ٣/٢٧١ .
(٣٦) معجم البلدان ٥/٢١٢ ، وأنظر : قول ابن الرومي في هـــذا المعنى ص١٦٨ من هذا البحث .

ومنه قول بدويّ دخل « الحضر » فاشتاق الى بلاده ، فقال :

لعمري لنور الاقحوان بحـــائل
ونور الخزامى في ألاء وعرفج [٣٧]

أحبُ الينـــا يا حميد بن مالـــك
من الورد والخيري ، ودهن البنفسج

وأكل يرابيـــع وضبّ وأرنـــب
أحبّ الينا من سُمانى وتدرج [٣٨]

ونصّ القلاص الصهب تدمى أنوفها
يجبن بنا ما بين قوّ ومنعـــج [٣٩]

أحبّ الينا من سـفين بدجلـــــة
ودرب متى ما يظلم الليل يرتج [٤٠]

ومنه ايضاً ما نسب الى الرشيد ، وكان قـــد خرج الى الحج فلما وصل زرود التفت الى ناحية العراق فقال :

أقول وقد جزنا زرود عشيـــــة
وكادت مطايانا تجوز بنـــا نجـــدا

على أهل بغـــداد السّـــلام ، فانني
أزيد بسيري عن ديارهم بعدا [٤١]

---

(٣٧) الآلاء : أشجر مرّ ، حسن المنظر ، دائم الخضرة . العرفج : ضرب من النبات سهلي ، سريع الانقياد ، لهبه شديد الحمرة .
(٣٨) سمانى : طائر .
(٣٩) النص : ضرب من السير سريع .
(٤٠) معجم البلدان ٢/٢١٠ يرتج : يغلق .
(٤١) المصدر نفسه ١/٤٦٢ـ٤٦٣ .

ومن هذا القبيل ما يعزى الى اسحاق الموصلي ، وكان قد خرج مع الواثق من سامراء الى بعض الامكنة القريبة من بغداد للتصيد والنزهة ،فلما وصل الى الصالحية تشوق الى بغداد ـ وفيها اهله واولاده ـ فقال :

أتبكي على بغداد وهي قريبة
فكيف اذا ما ازددت منها غداً بعدا

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلىً
لو انا وجدنا عن فراق بها بدا

اذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت
من الشوق او كادت تموت بها وجدا

كفى حزناً أن رحت لم استطع بها
وداعاً ، ولم أحدث بساكنها عهدا(٤٢)

اما تعلق ابن المعتز بمدينته هذه ، فيبدو انه بقي يثير مشاعره نحوها حتى بعد ان دبّ الفناء في أقطارها ، فهو ما يفتأ يحن اليها ويشيد بها ، ويفضلها على اكبر مدينة في عصره • قال في رسالته التي بعث بها الى احد اصدقائه ، مشيراً الى تعلقه بسامراء : « ••• على انها ـ وان جفيت ـ معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ••• » (٤٣) •

ويبدو ان ابن المعتز كان برماً من المقام ببغداد ، يرى نفسه فيها كالمسافر ، ويود لو قيض له الخلاص منها والرجوع الى مهد صباه ،فقال: وقد شبّه نفسه بالعنين ، وشبّه بغداد ـ ذماً لها ـ بالعجوز :

أطال الهمّ في بغداد ليلي
وقد يشقى المسافر او يفوز

(٤٢) الاغاني ٥/٣٥٧ (دار الكتب) •
(٤٣) أنظر ص ٥٦ـ٥٧ من هذا البحث •

ظللت بها ـ على رغمي ـ مقيماً
كعنين تعانقه عجوز (٤٤)

وقال ايضاً ذاماً مقامه ببغداد ، ومتحسراً على ما أصاب مدينته من الدمار بعد ان كانت بالامس القريب ، دار الملك ، تتلفع أرباضها بحلل قشيبة من أزاهير الربيع ، وتتضوع رياضها الفيح بالمسك والاريج ، وكان هو أحد سكانها ، ولكن أصابها ما أصابها ، واي شيء يدوم :

كيف نومي وقد حللت ببغدا
د مقيماً في أرضها لا أريم

ببلاد فيها الركايا عليهـ
ـن ، أكاليل من بعوض يحوم (٤٥)

جوها في الشتاء والصيف دخا
ن كثيف ، وماؤها محموم

ويح دار الملك التي تنفح المسـ
ـك ، اذا ما جرى عليه النسيم

كيف قد أقفرت ، وحاربها الدهـ
ـر ، وغنّى الجنان فيها البوم (٤٦)

فهي هاتيك أصبحت تتناجى
بالتشكي خرابها المهدوم

---

(٤٤) معجم البلدان ٤٦٥/١ .

(٤٥) الركايا : الآبار .

(٤٦) في معجم البلدان ، الطبعة الاوربية ، وطبعة بيروت (وعين الحياة فيها البوم) ، ويبدو أن الكلمتين الاوليين محرفتان .

طرفاها برّ وبحر ، ويجني الـــ
ـــورد فيها والشيح والقيصـــوم

نحن كنـــا سكانهـــا ، فانقضى ذا
ك ، وبنّا واي شـــيء يدوم(٤٧)

ويظهر ان اعتزازه بمدينته كان طاغياً عليه ، فهو ما ينفك يذكرهـا ويدعو لها بالخير وما وجد الى ذلك سبيلاً ، وكيف لا يفعل ذلك ، وله فيها ذكرياته ومسراته ، قال :

يـا أيهـا الراكب المستعجل الغادي
أقرِ الســلام على يعقوب بالوادي

وقل له الحقه قـد خلّفته دنفـاً
يمجّ آخر عهـد بـين عوّاد

يا حبـذا الدهر اذ نسقى مسرّته
صرفاً ، ونمزج انجـازاً بميعـاد

واذ نبيت وقلبانا قـد انتصفـا
حادي عناق واسعاف واسـعاد

بسر من را سقاها الغيث ما شربـت
من رائح ضاحك بالمزن اوغاد(٤٨)

وعلى الرغم من التشابه ـ بوجه عام ـ في الدوافع التي حثت الشعراء

---

(٤٧) أنظر : ديوان أبن المعتز طبعة دمشق ص٦٤ ، وطبعة بيروت سنة ١٩٦١ ص٣٩٣ـ٣٩٤ ، ومعجم البلدان الطبعة الاوربية ص٦٩١ ، وطبعة بيروت ١/٤٦٥ ، وبين معجم البلدان والديوان اختلاف في عـدد الابيـات ٠

(٤٨) أشعار أولاد الخلفاء ص٢٢٦ ٠

في الامثلة السابقة على الاعتزاز بأوطانهم والحنين اليهـــا ، فاننا نلمح في أقوال ابن المعتز اضافـــة الى الحنين والتشوق ، شيئاً من الحسرة ، على ما آل اليه امر مدينته من الخراب وهذا ما يحملنا على الزعم بان ابن المعتز كان يختلف عن غيره من الشعراء في هذا الباب •

وهكذا يتبين ممـــا سبق ان هـــذه المدينة بقيت ذات أثر فعّال في نفوس الخلفاء من بني العباس ، حتى بعد ان زال عنهـا عزها ، وخبـــا ضياء مجدها !

رثاؤهـــا :

كان هذا الموت الوحيّ ، والخراب العاجل اللـــذان دبّا في اوصال المدينة ولما ينقض على انتقال الحكم منها الى بغـــداد وقت طويل ، مدعاة لتأسف الناس وتحسرهم على ما آل اليه مصير سامراء وعزها الشامخ •

وكان من الطبيعي ان يندفع الشعراء والادباء في تسجيل هذه الامور، وفي رثاء هذه المدينة •

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نشير الى ان سامراء لم تكن اول مدينـة يندبها الشعراء ويرثيها الادباء ، فقد ســبقتها في ذلك مدينة بغـــداد حين تعرضت الى الخراب في أيام الصراع بين الامين والمأمون • فقد رثاها غير واحد من الشعراء ممن شهدوا ويلات ذلك الصراع • فقال الحســين بن الضحـــاك :

أتســـرع الرجلـــة اغـــذاذا
عن جانبـي بغداذ أم مـــاذا ؟
ألم تر الفتنـــة قد ألفـــــت
الى اولي الفتنـــــة شـــذّاذا ؟
وانتقضـــت بغـــداذ عمرانهـــا
عـن رأي لا ذاك ولا هـــــذا

هـدماً وحرقاً قد ابيد اهلهـا
عقوبـة لاذت بمـن لاذا

ما أحسن الحالات ان لم تعـد
بغداذ فـي القلـة بغـداذا[٥٠]

وقال شخص اعمى يعرف بعلي بن ابي طالب من قصيدة له :

تقطعت الارحـام بين العشـائر
واسلمهم اهل التقى والبصـائر

فذاك انتقام الله من خلقـه بهـم
لمـا اجترموه من ركوب الكبـائر

.....

كأن لم تكن بغـداد أحسن منظراً
وملهى رأته عين لاهٍ ونـاظر

بلى ، هكذا كانت فأذهب حسـنها
وبدّد منها الشـمل حكم المقادر

وحلّ بهم ما حلّ بالنـاس مثلهـم
فأضحوا أحاديثاً لبـادٍ وحـاضر

أبغداد يا دار الملـوك ، ومجتنـى
صنوف المنى ، يا مستقر المنـابر

ويا جنة الدنيا ، ويا مطلـب الغنـى
ومستنبط الاموال عند المتـاجر

(٥٠) تاريخ الطبري ٤٤٧/٨ طبعة دار المعارف .

أبيني لنا : أين الذين عهــدتهم
يحلون في روض من العيش زاهر ؟

وأين الملوك في المواكب تغتدي
تشبّه حسناً بالنجوم الزواهر (٥١)

وقال عمرو بن عبدالملك الوراق :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين
ألم تكوني زماناً قرة العين

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم
وكان قربهم زيناً من الزين

صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا
ماذا لقيت بهم من لوعة البين

استودع الله قوماً ما ذكرتهم
الا تحدر ماء العين من عيني

كانوا ففرّقهم دهر وصدّعهم
والدهر يصدع ما بين الفريقين (٥٢)

ولعل اشهر ما قيل في رثاء بغداد ، وما أصابها من الدمار ـ في هذه الفتنة ـ القصيدة الطويلة التي انشأها الشاعر الخريمي ، والتي نجتزيء منها بقوله :

---

(٥١) مروج الذهب ٣/٤٠١ـ٤٠٢ طبعة دار الاندلس .

(٥٢) تاريخ الطبري ٨/٤٤٧ (دار المعارف) وانظر ص٥٠٠ من المصدر نفسه حيث أعيدت الابيات ايضا . وانظر : مروج الذهب ٣/٤٠٤ طبعة دار الاندلس .

قـــالوا ولم يلعب الزمان ببغـــــ
ــــداد وتعثرْ بهـــا عواثرهـا

اذ هي مثل العروس باطنهـــــا
مشيـــوّق للفتى وظـاهرهــــا

جنــــة خلد ودار مغبطـــــة
قلّ من النائبـــات داثرهـــا

درت خلوف الدنيـــا بساكنهـا
وقلّ معســــورها وعاسرهــــا

وانفرجـت بالنعيـــــم وانتجعـت
فيهـــــا بلذاتها حواضرهـــا

فالقوم منهـــا في روضـــة أنف
أشرق غبّ القطـــار زاهرهـــا

من غرّه العيش في بلهنيـــــــة
لو ان دنيـــــا يدوم عامرهـــا

دار ملوك رست قواعــــــدها
فيهـــا وقـرت بهـــا منابرهـــا

اهل العـــلا والنـــدى وأندية الـــ
ـفخر اذا عُدّت مفاخرهـــــا

أفراخ نعمى في أرض مملكـــــة
شـــدّ عُراهـــا لها أكابرهـــا

فلم يزل والزمان ذو غـــــير
يقـــدح في ملكها أصاغرهـــا

حتى تساقت كأساً مثملة
من فتنة لا يقال عاثرها

....

يا هل رأيت الجنان زاهرة
يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة
تكنّ مثل الدمى مقاصرها

....

فانها اصبحت خلايا من الا
نسان قد أدميت محاجرها

وأصبح البؤس ما يفارقها
الفاً لها والسرور هاجرها

......

يا بؤس بغداد دار مملكة
دارت على أهلها دوائرها

أمهلها الله ثم عاقبها
لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبال
حرب التي اصبحت تساورها (٥٣)

فهذه الامثلة تشير بوضوح الى ما حل ببغداد من الخراب الشامل الذي جرّه الصراع بين الاخوين المتناحرين ، كما تعكس ما كان يكابده أهل بغداد من شدة وطأة الحرب عليهم ، وتمزيق صفوفهم ، واشاعة القتل

(٥٣) تاريخ الطبري ٤٤٨/٨ (طبعة دار المعارف) .

والفوضى بينهم ، كما تظهر الى جانب اسف الشعراء على ما انتاب مدينتهم من عوامل الهدم والتدمير ، ان ما حل ببغداد كان جزاء ما اقترفه اهلها من المعاصي وركوب الكبائر .

أما ما قيل في رثاء سامراء ، فمنه ما كتبه بعضهم على وجه حائط من حيطانها الخربة :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من
حكم الخلائف آبائي على الامـــم

فكل ما فيـــه مبـــذول لطارقـه
ولا ذمـــام به الا على الحرم (٥٤)

ومنه ما قاله الخليفة الراضي فيها :

بسرّ من را بلاد الملك طاب لنـــــا
معرّس عيشـــه باللهو مـــذموم

ارض متى اختَلست الحاظها نظراً
اهتاج ذو طرب وارتاح مهمـــوم

والحير والقصـــر والقاطول جنتها
والجعفريّ بكف الدهر مزموم (٥٥)

منـــازل آنست دهراً فأوحشهـــا
ظلم الزمان ، فمثلوم ومهـــدوم

عفت وغيّرها وصل الرياح لهـــا
والوصل منها بحبل الهجر محتوم(٥٦)

(٥٤) معجم البلدان ٣/١٧٧ .

(٥٥) مزموم : مشدود .

(٥٦) الاوراق للصولي ٢/١٨١ ، وانظر : ري سامراء ٢/٣٠٠ .

اما عبدالله بن المعتز الذي ولد ــ كما اشرنا في هــذا البحث ــ في هذه المدينة وترعرع في ظلال قصورها ، فقد كان شديد الاسـف ، كثير الاسى على ما اصاب مسقط رأسه ، ومهد صباه ، فاندفع يترجم انفعالاته وأحاسيسه حيال مدينته هذه عن طريق ما نظمه فيها من شعر ، من ذلك قوله :

قــد اقفــرت سرّ من را
ومـــا لشـــيء دوام
فــالنقض يحمــل منهــا
كأنـــه آجـــام
مــاتت كمــا مــات فيل
تسلّ منــه العظــام [٥٧]

وقولــه :

غــدت سرّ من را في العفاء كأنها
(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)
وأصبح اهلوهــا شبيهاً بحالهــا
(لما نسجتها من جنوب وشــمال)
اذا ما امرؤ منهم شــكا سوء حالــه
(يقولون لاتهلك اسىً وتجمل)[٥٨]

وقولــه :

هــاتيك دار الملك مقفــرة
ما ان بها من أهلهــا شخص [٥٩]

(٥٧) معجم البلدان ٣/١٧٧ ٠
(٥٨) المصدر نفسه ٣/١٧٨ ٠
(٥٩) أنظر ص٥٤ـ٥٥ من هذا البحث ٠

ويبدو ان ابن المعتز قد نحا في رثائه لمدينته منحى الشعراء البغداديين في رثاء مدينتهم ، من حيث تعداد محاسنها ، والتساؤل عما آل اليه أمرها ،بعد ان كانت بالامس القريب ، زاهية زاهرة ، تموج بالجيوش اللجبة ،وتحكم رعيتها الطيبة من قبل حاكم عادل حازم ـ ولعله يريد به والـده المعتز ـ وهو هنا يخالف ما ذهب اليه شعراء بغداد ، الذين ألحوا الى ان ما اصاب مدينتهم كان جزاء ما ارتكبه اهلها وحكامها من المعاصي وكبائر الذنوب ـ ثم يعرّج على بغداد واهلها ، فيصب عليها جام غضبه ، ويلصق بهما كل نقيصة وهناة • وكأن ابن المعتز كان يلقي تبعة خراب مدينتـه على عـاتق مدينة بغداد ، لهذا فهو ما يفتأ يهاجمها واهلها ، ويفضل مدينته عليها وعلى سكانها !

وعلى الرغم من تشابه رثاء المدينتين بوجه عام ، فاننا نرى ان اشتمال رثاء بغداد على ما يمكن اعتباره شماتة او تبريراً لما اصابها من دمار نتيجة لاجتراح حكامها واهلها الكبائر ، جعله أقل تأثيراً ، وبالتالي أقل رجحاناً في حرارته وصدقه على رثاء مدينة سامراء !

ولابن المعتز ـ الى جانب ما أشرنا اليه من الاشعار في رثاء سامراء ـ رسالة مشهورة (٦٠) بعث بها الى أحد أخدانه يعبّر فيها عمـا تجيش به نفسه من انفعالات حيال مدينته الداثرة ، ولم ينس ان يهاجم فيهـا بغداد واهلها ايضاً •

ويخيل الينا ان هذه الرسالة من الرسائل الفريدة في بابهـا ، وهي تماثل الى حد بعيد قصيدته الصادية ، في الغرض والمحتوى ، واكبر الظن ان عبدالله قد أنشأهما في وقت متقارب !

والرسالة تعد قطعة ادبية فنيـة ، وهي تعكس بوضوح ـ الى جانب

---

(٦٠) أنظر : النص الكامل للرسالة ص٥٤ ـ ٥٥ من هذا البحث •

ما اشتملت عليه من صدق العاطفة ، ودقة التصوير ـ ادب ابن المعتزالذي يحفل كثيراً بالتشبيه ، ويكلف ـ دون تكلف ـ بانواع البديع • وهي في اغلبها قصيرة الجمل ، مسجوعة ، وكأني بمنشئها أراد بها ان تكون قصيدة منثورة !

وهكذا نسدل الستار على آخر مشهد من آخر فصل من فصول قصة هذه المدينـــة التي لعبت دوراً خطيراً في المع عصر من العصور العربيـــة الاسلامية ، في المجالات : الفنية والعمرانية ، والتاريخية والسياسية، والعلمية والادبية ، وغيرها •

خاتمــة

للمدن التي اتخذت عواصم للدول والامارات الاسلامية ، أثر لا ينكر في الهيمنة على النواحي السياسية والاقتصادية والعلمية والادبية وغيرها ، اذ كانت تلك المدن بحكم مركزها السياسي مقر الخلفاء والامراء ، وملتقى من يلوذ بهم من اصناف الناس ، او ينتجعهم من العلماء والادباء ، وأرباب المهن والفنون المتنوعة .

وكثيراً ما كان التنافس محتدماً بين العواصم والمدن الكبرى في سبيل التفوق والاحتفاظ بالمرافق الحيوية ، والنواحي العلمية والادبية ، وتيسّر لبعض المدن القصيرة العمر ـ وهـــذا شـيء يلفت النظر حقاً ـ ان تحتل مركزاً مرموقاً ، وتكوّن لهـــا شخصية واضحة المعـــالم في شتى المناحي والمجالات . من هذه المدن « سامراء » التي عقدنا عليها الفصول الاربعـــة السابقة ، فقد تهيأ لهذه المدينة من العوامل المختلفة ما بوأها مركزاً فريداً بين أمثالها من المدن وتيسّر لهـــا على الرغم من المحـــاولات التي بذلت للانتقال عنها في ظروف مختلفة متقاربة ان تحظى بالكثير من اهتمام الخلفاء والوزراء ، وان تشق لنفسها طريقاً لا حباً في المضامير المختلفة .

ان قصة انشاء هذه المدينة ، واتخاذها عاصمـــة لاكبر امبراطوريـــة اسلامية مدة أربت على نصف قرن ، لا تخلو من الغرابة حقاً ، فقد بنيت واتسعت وازدهرت في حقبة قصيرة جداً ، بل تهيأ لها ان تنافس العاصمة الاصلية (بغداد) في كل أمر من الامور ، واســتطاعت ان تخطو خطوات واسعة في معارج التقدم والحضارة ، مما لا نجد لها نظيراً في تاريخ المدن القديمة ـ فيما ـ نظن ـ ومع كل ما كانت عليــه المدينة من عوامل النمو والازدهار ، فان الاجحاف قد لحقهـــا من قبل بعض دارسي الحقبة التي انشئت فيها . فمن المعلوم انها لم تدرس في فترة معينة ، ولم تعط ما أعطي لغيرها من الدراسة وابراز الشخصية العلمية والادبية ، وكثيراً ما كـــان

الدارسون اذا ما تطرقوا الى القرن الثالث الهجري ، وما كان عليه من تقدم حضاري وازدهار ادبي وعلمي ، يتخذون بغداد المركز الاول لكل هذه الامور ، متجاوزين لاسباب لا نعرفها ، مدينة سامراء التي كانت مدة بقائها عاصمة حاضرة الخلافة العباسية ، ومدينتها الاولى في كل شأن من الشؤون!

وفي ضوء دراستنا لهذه المدينة استطعنا ان نزيح كداسة الغبار التي كانت تغطي معالمها ، وان نخرج بعدد من النتائج والحقائق التي لا بد لنا من الاشارة اليها :

١) ان بناء سامراء قد أثر تأثيراً كبيراً على بغداد في كل مرفق من مرافق الحياة ، وانها استطاعت ان تحتل مركزها في كل شيء ، بل وتوقف حركتها وتشلها ، مدة مكوثها عاصمة للعباسيين .

٢) ان لهذه المدينة شخصية واضحة قوية في المجالات : العمرانية والفنية والسياسية والتاريخية .

٣) ان للادب الذي قيل فيها شخصية واضحة ، ظهرت ملامحها في وصف القصور والبرك والمساجد وغير ذلك من المعالم .

٤) انها أمدت الشعر العربي بغرض جديد هو وصف القصور والبرك ، مما لا نجد له نظيراً ـ من حيث الكثرة والجودة ـ في ادبنا قبل هذه الحقبة .

٥) انها المدينة الاسلامية الاولى التي زخرت بالعديد من القصور الضخمة ، والعمائر الفخمة في تلك الحقبة .

٦) انها المدينة الاولى في عدد اللغات الواردة في اسمها ، ولا تضاهيها في ذلك مدينة اخرى حتى بغداد نفسها .

٧) لا بد لمن يتصدى لدراسة القرن الثالث الهجري في المجالات العلمية والادبية والسياسية والتاريخية والعمرانية والفنية ، من الوقوف طويلاً عند هذه المدينة ، لما لها من اثر واضح في كل هذه المجالات ؟

المراجـع

١ ـ آثار البلاد وأخبار العباد • تأليف : زكريا بن محمد بن محمود القزويني ـ طبعة بيروت •

٢ ـ ابن الرومي : حياته من شعره ، تأليف : عباس محمود العقاد ـ الطبعة الرابعة ١٩٥٧ ـ ١٣٧٦ ـ مصر •

٣ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم: لشمس الدين أبى بكر المقدسي ـ الطبعة الثانية ليدن ١٩٦٥ مطبعة بريل •

٤ ـ أخبار أبي تمام : لابن بكر محمد بن يحيى الصولي ـ الطبعة الاولى ١٣٥٦ـ١٩٣٧ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة •

٥ ـ أخبار البحتري : تأليف : أبي بكر محمد بن يحيى الصولى ـ الطبعة الاولى ١٣٧٨هـ ـ١٩٥٨م دمشق •

٦ ـ أخبار الدول وآثار الاول في التاريخ : لاحمد بن يوسف القرماني•

٧ ـ أخبار الراضي بالله والمتقي بالله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢هـ ا. سنة ٣٣٣ من كتاب الاوراق : لابي بكر محمد بن يحيى الصولي مطبعة الصاوي ـ مصر •

٨ ـ أخبار النحويين البصريين : تأليف القاضي أبي سعيد الحسن بن عبداللهالسيرافي مطبعـــة البابي الحلبي ـ مصـــر ـ الطبعة الاولى ١٣٧٤هـ ـ١٩٥٥م •

٩ ـ اسحاق الموصلي : الموسيقار النديم : تأليف الدكتور محمود أحمد الحفني سلسلة أعلام العرب العدد (٣٤) مصر •

١٠ ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق : لابي بكر محمد ابن يحيى الصولي ـ مطبعة الصاوي ١٣٥٥هـ-١٩٣٦ •

١١ ـ أعتاب الكتاب : لابي عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بابن الأبار الطبعة الاولى ١٣٨٠-١٩٦١م دمشق •

١٢ ـ الاعلاق النفيسة : لابي علي أحمد بن عمر بن رسته • طبعة ليدن ١٨٩١ •

١٣ ـ الاعلام : تأليف خيرالدين الزركلي ـ الطبعة الثانية •

١٤ ـ أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام : تأليف : عمر رضا كحالة الطبعة الثانية المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٣٧٩-١٩٥٩م •

١٥ ـ الاغاني : للامام أبي الفرج الاصبهاني • طبعة ساسي ـ مطبعة التقدم مصر •

١٦ ـ ألحان الحان : تأليف عبدالرحمن صدقي دار المعارف مصر ١٩٥٧ •

١٧ ـ أنباه الرواة على انباه النحاة : تأليف جمال الدين علي بن يوسف القفطي تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م الطبعة الاولى •

١٨ ـ الانساب : لابي سعيد السمعاني طبعة جب ١٩١٢ •

١٩ ـ ابو تمام الطائي : حياته وحياة شعره تأليف نجيب محمد البهبيتي ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٤٥ •

٢٠ ـ البحتري : تأليف نديم مرعشلي • منشورات دار الشرق الجديد بيروت الطبعة الاولى ١٩٦٠ •

٢١ ـ بدائع البدائه : تأليف علي بن ظافر الازدي • طبع في سنة ١٢٧٨هـ

٢٢ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم • الطبعة الاولى مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م •

٢٣ ـ البلدان : تأليف أحمد بن واضح اليعقوبي • الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م المطبعة الحيدرية في النجف •

٢٤ ـ بلدان الخلافة الشرقية : تأليف ليسترنج • ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد • مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م •

٢٥ ـ البيان والتبيين : للجاحظ • تحقيق حسن السندوبي ـ الطبعة الرابعة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م مطبعة الاستقامة ـ القاهرة •

٢٦ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان مطبعة الهلال ١٩٣٠ •

٢٧ ـ تاريخ الادب العربي : تأليف كارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار دار المعارف ـ مصر ١٩٦١ •

٢٨ ـ تاريخ الاسلام • تأليف : الدكتور حسن ابراهيم حسن • الطبعة السابعة •

٢٩ ـ تاريخ الامم والملوك : تأليف الطبري ـ الطبعة الاولى ـ المطبعة الحسينية المصرية • وطبعة دار المعارف •

٣٠ ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام : تأليف الخطيب البغدادي ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م •

٣١ ـ تاريخ التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان •

٣٢ ـ تاريخ الخلفاء : للامام جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ـ الطبعة الثانية ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م •

٣٣ ـ تاريخ العرب (مطول) : فيليب حتي •

٣٤ ـ تاريخ اليعقوبي : تأليف أحمد بن واضح • منشورات المكتبة الحيدرية ـ النجف ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م •

٣٥ ـ تجارب الامم : تأليف ابن مسكويه • الجزء السادس •

٣٦ ـ التحف والهدايا : لابي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابن هاشم الخالديين ، تحقيق : الدكتور سامي الدهان ـ طبعة دار المعارف ـ مصر •

٣٧ ـ تراث الاسلام : ترجمة الدكتور زكي محمد حسن • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ •

٣٨ ـ تقويم البلدان : تأليف ابن أيوب • طبعة رينود ـ مطبعة الطباعة السلطانية ـ باريس ١٨٤٠م •

٣٩ ـ التنبيه والاشراف : تأليف المسعودي ، تحقيق عبدالله اسماعيل الصاوي ـ مطبعة الشرق الاسلامية ـ مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م •

٤٠ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : تأليف أبي منصور الثعالبي ـ مطبعة الظاهر ـ القاهرة ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م •

٤١ ـ ثمرات الاوراق في المحاضرات : للامام تقي الدين بن حجة الحموي وهو هامش على كتاب المستطرف ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة •

٤٢ ـ الجغرافيون العرب : تأليف مصطفى الشهابي • دار المعارف ـ مصر ١٩٦٢ • سلسلة أقرأ العدد (٢٣٥) •

٤٣ ـ حديث الأربعاء : للدكتور طه حسين •

٤٤ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : لجلال الدين السيوطي ـ مطبعة ادارة الوطن ـ مصر ١١٢٩٩هـ •

٤٥ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري تأليف آدم ميتز ،

ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة • الطبعة الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م •

٤٦ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : تأليف ابن الفوطي ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد • مطبعة الفرات - بغداد ١٣٥١هـ •

٤٧ - الحيوان : للجاحظ ، تحقيق محمد عبدالسلام هارون - الطبعة الاولى •

٤٨ - الخراج : لقدامة بن جعفر • ليدن سنة ١٣٠٦هـ

٤٩ - خريدة القصر وجريدة العصر : تأليف عماد الدين الاصفهاني الكاتب - القسم العراقي - تحقيق محمد بهجة الاثري - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م •

٥٠ - الخطط : للمقريزي ، مطبعة النيل - مصر ١٣٢٦هـ •

٥١ - خلاصة الذهب المسبوك : مختصر من سير الملوك : تأليف عبدالرحمن الاربلي - مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس ١٨٨٥م•

٥٢ - دائرة المعارف الاسلامية - مطبعة الاعتماد - عبدالحميد يونس •

٥٣ - دليل المتحف العراقي - بقلم الدكتور فرج بصمهجي - مطبعة الحكومة - بغداد ١٩٦٠ •

٥٤ - الديارات : للشابشتي : تحقيق كوركيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥١ الطبعة الاولى •

الديارات : للشابشتي : تحقيق كوركيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٦ الطبعة الثانية •

٥٥ - ديوان ابن الرومي : شرح الشيخ محمد شريف سليم - مطبعة

الهلال • ديوان ابن الرومي لكامل كيلاني ـ مصـر ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م •

٥٦ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي : شرح العكبري ـ الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م •

٥٧ ـ ديوان أبي تمام : تحقيق شاهين عطية ـ المطبعـة الادبيـة في بيروت ١٨٨٩م •

ديوان أبي تمام : تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر

٥٨ـ ديوان أبي نواس تحقيق : أحمد عبدالمجيد الغزالي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت •

٥٩ ـ ديوان البحتري : تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ مطبعة دار المعارف ـ مصر •

ديوان البحتري ـ طبعة بيروت ١٩٦٢م ـ ١٣٨١هـ •

٦٠ ـ ديوان دعبل بن علي الخزاعي : تحقيق الدكتور عبدالكريم الاشتر ـ دمشق ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م •

٦١ ـ ديوان السرى الرفاء : مكتبة القدسى ـ القاهرة سنة ١٣٥٥هـ •

٦٢ ـ ديوان عبدالله بن المعتز ، شرح محيي الدين الخياط ـ المكتبة العربية بدمشق •

٦٣ ـ ديوان علي بن الجهم : تحقيق : خليل مردم بك ـ المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م •

٦٤ ـ ديوان الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ـ تحقيق الدكتور جميـل سعيد ـ مطبعة نهضة مصر ـ بالفجالة •

٦٥ ـ ذيل الامالي والنوادر ، لابي علي القالي ، الطبعة الثالثة •

٦٦ ـ رحلة ابن بطوطة : المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة وادي النيل ـ بمصر القاهرة بالموسكي ١٢٨٧هـ •

٦٧ ـ رسائل البلغاء : تأليف محمد كرد علي ـ الطبعة الثانية ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م مطبعة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة •

٦٨ ـ ري سامراء : تأليف الدكتور أحمد سوسة • مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٨ •

٦٩ ـ زهر الآداب وثمر الالباب : لابي اسحق ابراهيم الحصري القيرواني المتوفى ٤٥٣هـ ، شرح الدكتور زكي مبارك ، الطبعة الثالثة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م مطبعة السعادة ـ مصر •

٧٠ ـ سامراء : لمديرية الآثار القديمة • مطبعة الحكومة ببغداد ١٩٤٠ •

٧١ ـ سمط اللالى : لابي عبيد البكري ، تحقيق : عبدالعزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م •

٧٢ ـ سومر ـ مجلة علمية تبحث في آثار العراق القديمة •

٧٣ ـ سيدات البلاط العباسي : تأليف الدكتور مصطفى جواد ـ دار الكشاف ببيروت ١٩٥٠ •

٧٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ـ نشر مكتبة القدسي ـ مصر ١٣٥١ •

٧٥ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ، تحقيق : محيي الدين عبدالحميد ـ الطبعة الثانية ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢ مصر •

٧٦ ـ شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم ـ لعلي الخاقاني ـ مطبعة أسعد ـ بغداد ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م •

٧٧ ـ الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري : تأليف الدكتور

أحمد عبدالستار الجواري • دار الكشاف بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م •

٧٨ - الشعر والشعراء : تأليف ابن قتيبة الدينوري • تحقيق أحمد محمد شاكر - طبعة دار المعارف بمصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م •

٧٩ - صبح الاعشى في صناعة الانشا : تأليف أبى العباس أحمد بن علي القلقشندي •

٨٠ - الصحاح : للجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطا - مطابع دار الكتاب العربي بمصر •

٨١ - صفحات من حياة الكندي وفلسفته : للدكتور عمر فروخ - دار العلم للملايين ببيروت - الطبعة الاولى ١٩٦٢ •

٨٢ - صورة الارض ، لابن حوقل ، الطبعة الثانية • مطبعة بريل ليدن ١٩٣٨ •

٨٣ - طبقات الشعراء ، لعبدالله بن المعتز • تحقيق : عبدالستار احمد فراج • دار المعارف - مصر •

٨٤ - طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدي ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م الطبعة الاولى •

٨٥ - الطرائف الادبية ، تحقيق : عبدالعزيز الميمني • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٧ •

٨٦ - ظهر الاسلام : تأليف : أحمد أمين •

٨٧ - العراق قديماً وحديثاً : تأليف السيد عبدالرزاق الحسني - الطبعة الثانية مطبعة العرفان - صيدا •

٨٨ - العقد الفريد : لابن عبد ربه : الطبعة الثانية • مطبعة لجنة التأليف

والنشر والترجمة ١٣٦٧ ـ ١٩٤٨ •

٨٩ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : تأليف أبي علي الحسن ابن رشيق القيرواني • تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد • مطبعة السعادة ـ مصر الطبعة الثالثة ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ •

٩٠ ـ العيون والحدائق في اخبار الحقـائق : لمؤلف مجهول ـ طبعة : دى غويه •

٩١ ـ عيون الاخبار • تأليف : ابن قتيبة الدينوري • طبعة وزارة الثقافة مصر •

٩٢ ـ عيون الانباء في طبقات الاطبـاء : لابن ابي أصـيبعة ـ الطبعة الاولى ١٢٩٩هـ ـ ١٨٢٢م •

٩٣ ـ فتوح البلدان : تأليف أحمد بن يحيى البلاذرى ـ نشر : الدكتور صلاح الدين المنجد مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة •

٩٤ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلاميـة تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا • طبعـة صادر ـ بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م •

٩٥ ـ الفرج بعد الشدة : تأليف القاضي ابي علي المحسن بن ابيالقاسم التنوخـي الطبعـة الاولى ـ دار الطباعـة المحمديـة القاهـرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م •

٩٦ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي : تأليف الدكتور شوقي ضيف ـ الطبعة الثالثة • مكتبة القدس ـ بيروت ١٩٥٦ •

٩٧ ـ فنون الاسلام : تأليف الدكتور زكي محمد حسن الطبعـة الاولى ١٩٤٨ نشر مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة •

٩٨ ـ الفهرست لابن النديم • مطبعة الاستقامة القاهرة •

٩٩ ـ فوات الوفيات : لمحمد بن شاكر الكتبي • تحقيق : محيي الدين عبدالحميد • مطبعة السعادة ـ مصر •

١٠٠ـ في الادب العباسي : تأليف الدكتور محمد مهدي البصير • الطبعة الاولى مطبعة النجاح ـ بغداد ١٩٤٩م •

١٠١ـ في التاريخ العباسي • لشاكر مصطفى : مطبعة الجامعة السورية دمشق ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م •

١٠٢ـ القاموس المحيط : للفيروز ابادى : الطبعة الرابعة ـ مطبعة دائرة المأمون ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م •

١٠٣ـ الكامل في التاريخ : تأليف ابن الاثير • تحقيق : عبدالوهاب النجار المطبعة المنيرية ـ مصر ١٣٥٧هـ •

١٠٤ـ كشف الطرة عن الغرة : تأليف محمود الحسني الحسيني النقشبندي الآلوسي •

١٠٥ـ الكندي ـ الرائد الاول للفلسفة الاسلامية : لمحمد بحر العلوم ـ مطبعة النجف ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م •

١٠٦ ـ لسان الميزان لابن حجر العسقلاني : الطبعة الاولى • حيدر آباد ١٣٢٩ هـ •

١٠٧ـ اللباب في تهذيب الانساب : للمؤرخ عزالدين ابن الاثير • نشر مكتبة القدس القاهرة ١٣٥٧هـ •

١٠٨ ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة ـ للقلقشندي ـ تحقيق : عبدالستار احمد فراج ـ الكويت ١٩٦٤ •

١٠٩ـ مآثر الكبراء في تاريخ سامراء : تأليف الشيخ ذبيح الله المحلاتي •

المطبعة الحيدرية ـ النجف •

١١٠ـ مجمل التواريخ والقصص بالفارسية لمؤلف مجهول : تحقيق ملك الشعراء بهار مطبوع في طهران **١٣١٨ شمسية** •

١١١ـ محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لمحيي‌الدين بن العربي ـ المطبعة العثمانية سنة **١٣٠٥**هـ ـ مصر •

١١٢ـ المحاسن والمساوى تأليف البيهقي ـ مطبعة السعادة ـ مصر **١٣٢٥ ـ ١٩٠٦** •

١١٣ـ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) لمحمد الخضري الطبعة الثالثة دار احياء الكتب العربية مصر **١٣٤٩**هـ ـ **١٩٣٠**م •

١١٤ـ محاضرات الراغب الاصبهاني : للراغب الاصبهاني : المطبعة الشرقية ـ مصر •

١١٥ـ محمد بن عبدالملك الزيات تأليف : محمود الهجرسي • سلسلة اعلام العرب ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة •

***ـ مختصر أخبار الخلفاء : لابن الساعي البغدادي ، مكتبة المتحف العراقي ـ بغداد ـ رقم المخطوطة **١٦٤٧** •

١١٦ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد أمير علي • ترجمة رياض رأفت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر **١٩٣٨** •

١١٧ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان : تأليف سبط ابن الجوزي • مخطوط بدار الكتب المصرية رقم **٩٢٧٦**

١١٨ـ مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع : لابن عبدالحق •

١١٩ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : للمسعودي : تحقيق : محيي‌الدين عبدالحميد الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ ـ **١٩٤٨**م مطبعة السعادة مصر •

١٢٠- المزهر في علوم اللغة وانواعها ، للسيوطي : دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه . الطبعة الرابعة ٣١٧٨هـ - ١٩٥٨م .

١٢١- مسالك الممالك - للاصطخري . طبعة ليدن ١٩٢٧م .

١٢٢- المسالك والممالك : لابن خرداذبه : طبع ليدن ١٣٠٦ م

١٢٣- مصارع العشاق : للشيخ ابي محمد جعفر بن احمد السراج ،طبعة بيروت ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م .

١٢٤- معجم الادباء : لياقوت الحموي : الطبعة الاخيرة . تحقيق : احمد فريد رفاعي - مصر .

١٢٥- معجم البلدان : لياقوت الحموي . بيروت ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

١٢٦- معجم الشعراء ، للمرزباني : تحقيق عبدالستار احمد فراج - دار احياء الكتب العربية ١٣٧٩-١٩٦٠ .

١٢٧- مقاتل الطالبيين : لابي الفرج الاصفهاني ، تحقيق : أحمد صقر . القاهرة ١٣٦٨-١٩٤٩ طبع بدار احياء الكتب العربية .

١٢٨- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . القسم الاول . تاريخ العراق القديم تأليف : طه باقر الطبعة الثانية .

١٢٩- من حديث الشعر والنثر : للدكتور طه حسين - دار المعارف - مصر ١٩٥٧ .

١٣٠- موجز دليل آثار سامراء : لسالم الآلوسي بغداد ١٩٦٥ .

١٣١- النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس : لابن دحية . تحقيق : عباس العزاوي ، مطبعة المعارف بغداد ١٣٦٥هـ -١٩٤٦م .

١٣٢- نزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري : تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي .

١٣٣- نزهة الجلبس ، تأليف العباس بن علي المكي الموسوي . المطبعة

الوهبية ـ مصر ١٢٩٣ هـ .

١٣٤ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لابن تغري بردي ـ مصر .

١٣٥ـ نكت الهميان في نكت العميان : لصلاح الدين الصفدي . المطبعة الجمالية مصر ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م .

١٣٦ـ نهاية الارب في فنون الادب : للنويري . طبعة وزارة الثقافة والارشاد ـ مصر .

١٣٧ـ نور القبس ، تأليف ابى عبيدالله محمد بن عمران المرزباني . تحقيق رودلف زلهايم ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .

١٣٨ـ الوافي بالوفيات : لصلاح الدين الصفدي . مطبعة الدولة استانبول ١٨٣١ .

١٣٩ـ الوافي بالوفيات: للصفدي ـ مخطوط بدارالكتب: ج٧م٢ رقم١٢١٩

١٤٠ـ تاريخ الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لابى الحسن الهلالي ابن المحسن الصابي : تحقيق عبدالستار احمد فراج ـ دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨م .

١٤١ـ وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان :لابن خلكان . تحقيق : محيي الدين عبدالحميد الطبعة الاولى ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م مطبعة السعادة مصر .

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع :

فهرس الاعلام

(أ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ي)

فهرس الامم والقبائل والاماكن والقصور

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ك)

(ل)

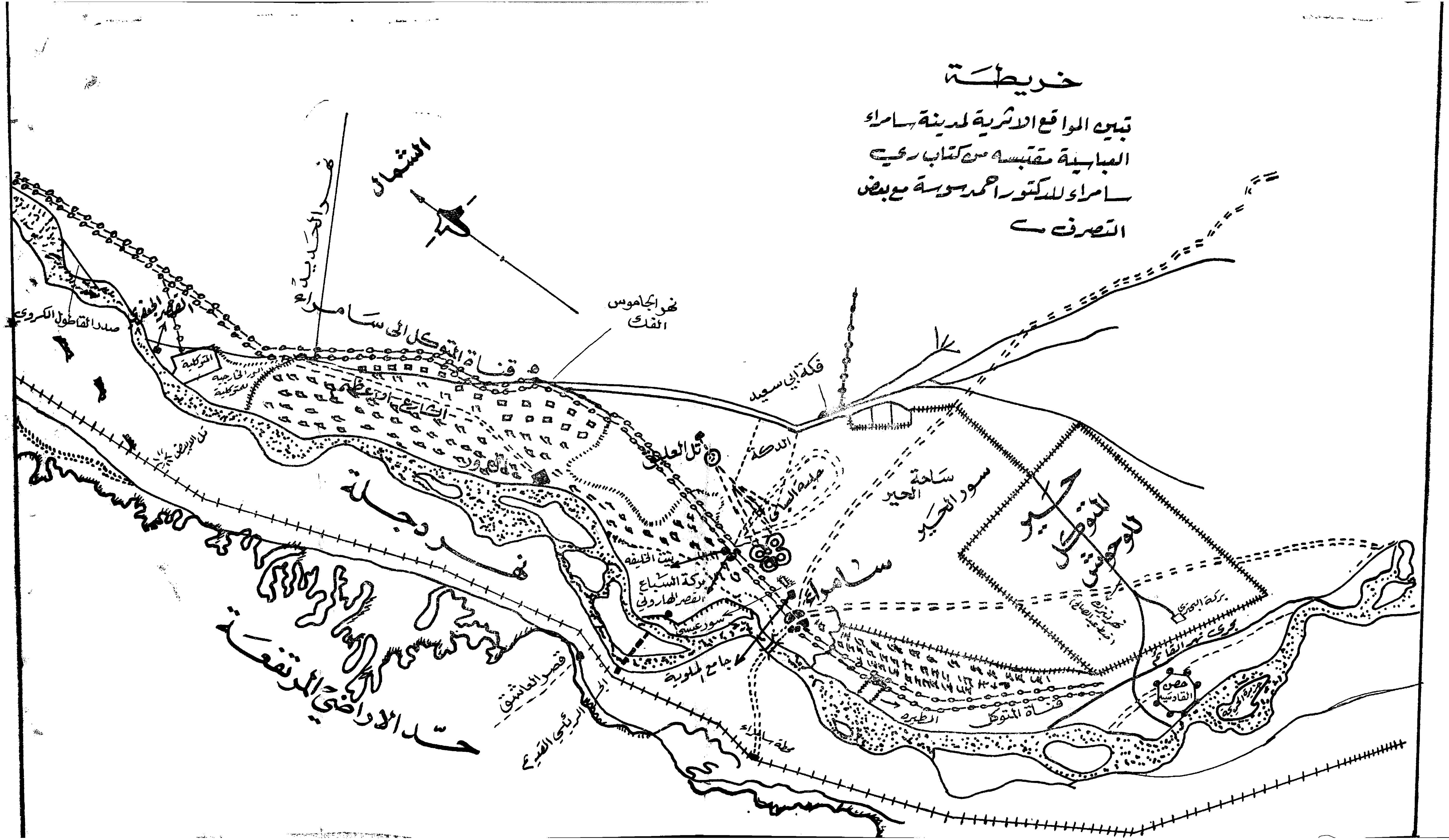
(م)

٣٢/١٠٠٠/١٩٦٩

جدول الخطأ والصواب

الخطـأ	الصواب	الصفحة	السطر
النصرى	النصارى	٨	١٢
اشتقاتها	اشتقاقها	٨	١٥
المعارة	العمارة	١٩	١
الشواء	الشعراء	٢٧	١٦
علم	ولم	٣٤	٦
ابن تمام	أبو تمام	٣٥	١٨
مقاتل الطالبين	مقاتل الطالبيين	٣٩	٢٠
أحمد خضر	أحمد صقر	٣٩	٢١
آخريان	أخريان	٤٦	١
أبو الرفح	أبو الفرج	٥١	٢٥
أــر	أثر	٦٠	١
فاستصفروا	فاستصغروا	٦٧	٤
يبحل	يبجل	٦٧	٤
رافت	رانت	٦٨	٢١
للتونحي	للتنوخي	٧٤	٢١
والفنيين	والمغنين	٧٥	١٣
وأنباء	وأنباه	٧٨	٢٥
للصفوي	للصفدي	٨٠	٢٤
يجمعها	يجمعهما	٨٢	٢٣
بجر الحقائب	بجر الحقائب	٩١	٦
الاجمال	موقري الاحمال		
الكسول	الكهول	١١٣	٨
رضوان	برهان	١١٥	١٢
الله	لله	١٤٩	٤
معا	ما	١٦١	١
تفحلوا	تنحلوا	١٦١	١
أيمك	أديمك	١٦٣	١
ظباءء	ظباء	١٦٧	١٠
حجبها	حجابها	١٧٦	٦
فالكثيف	فالكثيب	١٨٩	١٨

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
يتخذه	تحذف الكلمة	٢٠٣	١٩
بالائمى	يالائمى	٢٠٥	١٧
الياء	الهاء	٢٠٧	١٢
الباء	الهاء	٢٠٧	١٣
جاء	جاءت	٢١٠	٨
النيات	النبات	٢١١	١٨
ابن عينية	ابن أبي عيينة	٢٢٠	١٨
نرجسه	احتفظ	٢٢١	١٥
نرجسة	اختط	٢٢٦	٤
المتوكل	المتوكلية	٢٣٩	٧
شمسها	شمسهما	٢٤١	٢
جحظة	لجحظة	٢٥٣	٢
نحسبها	نحسها	٢٥٦	٣
مُحضرها	مَحضرها	٢٥٩	١٨
تكتنفها	تكنفها	٢٦٠	١٥
يسأم	يسلم	٢٦١	١٠
للحلافة	للخلافة	٢٦٣	٢
وأنه	وأنسه	٢٦٥	١
سريه	سربه	٢٦٥	٧
ديوان	ديوان البحتري	٢٧٥	٢٣
رغيب	غريب	٢٧٥	١٥
رغائب	غرائب	٢٧٧	٤
الصولى	الصابي	٢٧٩	١
يتخذه	يتخذها	٢٨٩	٩
الور	الورد	٢٩٠	٩
اصطحب	اصطبح	٣٠٨	٥
كأن	كان	٣١٢	١
البلدن	البلدان	٣١٧	٢٣
نومي	يومي	٣٢٢	٢٠
قيظَها	قيظُها	٣٣٨	١٤
جانب	جوانب	٣٤٠	٨
ففرتهم	ففرقهم	٣٥٤	١٤


خريطة
تبين المواقع الاثرية لمدينة سامراء العباسية مقتبسة من كتاب ري سامراء للدكتور احمد سوسة مع بعض التصرف
الشمال
قناة المتوكل الى سامراء
نهر الجاموس
القلك
فكة ابي سعيد
الدكة
تل العليق
ساحة الحير
سور الحير
حير المتوكل للوحوش
سامراء
نهر دجلة
حد الاراضي المرتفعة
جامع الملوية
بركة السباع
القصر الهاروني
سور عيسى
بيت الخليفة
قصر العاشق
محطة سامراء
قناة المتوكل
المطيرة
حصن القادسية
بركة البحتري
المتوكلية
صدر القاطول الكسروي